النص الكامل

الطبعة القانونية الأولى والوحيدة باللغة العربية

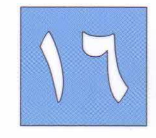
أغاثا كريستي

ثلاثة عشر لغزاً

مجموعة قصص قصيرة









ثَلاثَةَ عَشَرَ لُغْزاً

١٣ من الألغاز المثيرة التي تواجهها موهبةُ الآنسة ماربل الفذّة في التحري.

من جريمة قتل وحشية بالسم إلى الاختفاء الغامض لسبائك الذهب من إحدى السفن، ومن رصيف لوّثَتْه بقعُ الدم بشكل مخيف إلى موت عنيف خارق للطبيعة، ومن الجريمة التي لم تُرتكَب إلى الجريمة التي ارتُكبت مرتين!

مجموعة من أجود القصص القصيرة للعجوز الظريفة، الآنسة ماربل.

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيثُ انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفَي مليون نسخة!

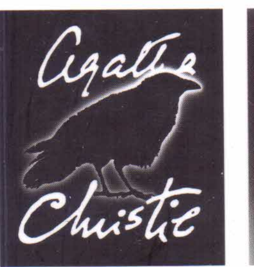
Agatha Christie



The Thirteen Problems

MARPLE

الآنسة ماربل





١٦

رقم هذه الرواية حسب ترتيب صدور الروايات بالإنكليزية

الناشر وصاحب الحق الحصري بالطبعة العربية في جميع أنحاء العالم





ISBN 2-1957-2625-0



US $ 4.00

سعر البيع ١٥ ريالاً

أغاثا كريستي

ثَلاثَةَ عَشَرَ لُغْزاً

هذه هي الترجمة القانونية الوحيدة لهذا الكتاب
وهي تضم النص الكامل لمجموعة أغاثا كريستي القصصية
المنشورة أول مرة عام ١٩٣٢ بعنوان

The Thirteen Problems

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: agatha@al-ajyal.com

الطبعة الخامسة

٢٠٠٦

التوزيع في المملكة العربية السعودية ودول الخليج
Pioneer House
الرياض ٤٧٩١٦٢٣ جدة ٦٧٥٠٠٥٣ الخبر ٨٩٩٥٢٣٣
دبي ٢٨٢٦٠٠٥ الكويت ٢٤٤٠٩٤٧ مسقط ٢٤٧٩٦٤١٤ البحرين ٧٢٩٣٦٢٩

أغاثا كريستي

ثَلاثَةَ عَشَرَ لُغْزاً

طُبعت للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٣٢

صورة الغلاف مستوحاة من قصة «سبائك الذهب»

ترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسّون



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الناشر

لماذا هذه الطبعة؟

عندما أعلنّا -في مؤسسة الأجيال للترجمة والنشر- عن عزمنا على تقديم ترجمة جديدة لأعمال الروائية الفذّة، أغاثا كريستي، تساءل كثيرون بدهشة واستغراب: لماذا تُجهدون أنفسكم وتتكلفون كثيراً من الجهد والعناء وكثيراً من المال لإعادة ترجمة هذه الروايات التي تُرجمت إلى اللغة العربية من قديم وتداولها الناس لعشرات السنين؟

ولكن الحقيقة (التي ربما بدت غريبة) أن الترجمة القديمة ذاتها هي الجواب عن هذا السؤال؛ إذ إن فيها من الأخطاء والنقائص ما لا يصلح معه الحال أو يستقيم بغير إعادة الترجمة وإعداد طبعة جديدة. وأول تلك النقائص، وإن بدت غيرَ ذات أهمية للقارئ العربي ظاهراً، أن أياً من الترجمات القديمة لم تكن «شرعية» بالمعنى القانوني؛ أي أن الذين نفّذوها ونشروها لم يحصلوا على الإذن بطباعتها ولم يدفعوا شيئاً مقابل حقوق النشر، وبالتالي لم يهتموا بتجويدها أو إتقانها بقدر ما اهتموا بالربح العاجل والكسب السريع.

من هنا جاءت تلك الطبعات القديمة حافلة بالعيوب، حتى لا يكاد يصحُّ لمن قرأها أن يقول إنه -فعلاً- قرأ شيئاً من كتابات أغاثا كريستي. وإليكم جملة من تلك العيوب:

(١) في الترجمة نقص واسع وحذف كثير، يكاد يذهب -في بعض الأحيان- بثلث النص الأصلي. وما ندري ما الذي حمل المترجمين الأوائل على اقتراف هذا الخطأ المتعمَّد: أهو لتقليص حجم الروايات وتوفير نفقات الطباعة على الناشر، أم لتيسير القراءة على القارئ حتى لا يملّ من قراءة رواية طويلة؟ ولكن مَن قال إن قراءة ما حُذف يبعث على الملل؟ الحقيقة أن ما وقع من حذف وتقليص واختصار قد أربك القارئ إذ غيّبَ عنه بعض التفصيلات المهمة، كما فوّتَ عليه الاستمتاع بكثيرٍ من «اللمسات الساحرة» من الأدب الفذّ لأغاثا كريستي.

(٢) في الترجمات القديمة أخطاء كثيرة لأنها -بجملتها- نتاج عمل فردي متسرع هدفه الربح العاجل كما أسلفنا، وهذه الأخطاء (وكثير منها ساذج مضحك) أفسدت استمتاع القارئ بمتابعة القصة وكانت -أحياناً- عقبةً في طريق فهمه لحَبْكَة الأحداث وعقدة الرواية.

(٣) فضلاً عن أخطاء الترجمة، حفلت تلك الطبعات القديمة بما لا يكاد يُحصى من الأخطاء النحوية واللغوية والإملائية وجاءت على غير نَسَقٍ في طبيعة ترجمتها وأسلوب كتابتها، حتى لتجد أن اسْمَي بَطَلَيْ أغاثا الشهيرين، هيركيول بوارو والكابتن هيسْتِنْغز، قد كُتبا بأشكال متنوعة وصور متباينة خلال الروايات،

وكأنهما مجموعة من الأشخاص المختلفين!

(٤) أما الطباعة فمأساة لا تقلّ حجماً عن مأساة الترجمة وتكاد تنافسها في السوء والرداءة! امتلأت الروايات بالأخطاء المطبعية التي لم يحفل بتصحيحها أحد، وصُفّت أسوأَ صف ثم طُبعت على أسوأ ورق. وما زال أولئك «الناشرون...» يصوّرون طبعة عن طبعة حتى صارت مقاطعُ كاملةٌ منها مطموسةً مستعصيةً على القراءة لا تكاد تبين حروفها وألفاظها.

(٥) ثم اجتهد «الناشرون...» فوضعوا لهذه الروايات أغلفة يظنّ معها من يراها أنها ليست سوى قصص فاضحة ماجنة، فكان أن أعرض عنها كثير من الناس الذين ظنوا أن صور أغلفتها تعبير عن محتواها، وزهد في هذا الأدب الرفيع كثير من المتأدبين.

(٦) وأباح هؤلاء «المترجمون...» لأنفسهم أن يتدخلوا في عناوين الروايات وتبويبها وترتيبها؛ فمسخوا العناوين الأصلية واستبدلوا بها ما ظنّوه أكثر إثارة أو أدعى لجذب القرّاء. واعتدوا على تبويب الروايات فأدخلوا بعض فصولها في بعض، وعلى ترتيب مجموعات القصص القصيرة فبعثروا ما كان منتظماً وشتتوا ما كان مجتمِعاً. كل ذلك بغير سبب واضح ولا تعليل مفهوم.

(٧) وأخيراً، كان العدوان الأكبر على أغاثا كريستي بأن نحلوا لها ما ليس -أصلاً- من كتابتها. وذلك أن الناشرين لمّا رأوا إقبال الناس على ما حمل اسمها قد طمعوا في مزيد من البيع ومزيد من الربح، فجاؤوا بروايات لا يُعرف مؤلفوها فألحقوها بها ونسبوها إليها، حتى بلغ ما نُشر في السوق باسمها مئة وبضع

عشرة رواية، رغم أن كل ما كتبته من روايات بوليسية (وهي لها كتابات أخرى لم تُترجَم بعد إلى العربية، كما سيأتي في ترجمتها الموجزة) ليست سوى ثمانين رواية لا غير!

فما الذي فعلناه نحن؟

اتصلنا بأصحاب الحقوق (ورثة المؤلفة) فعقدنا معهم اتفاقاً ووقّعنا عقداً ينصّ على الحقّ الحصري لنا بالطبعة العربية عبر العالم، ودفعنا مبلغاً كبيراً من المال مقابل هذا الاتفاق. بعد ذلك بدأنا بمشوار الترجمة الطويل الذي استغرق نحواً من سبع سنوات من العمل الشاق الدؤوب، المتعب والممتع في آنٍ معاً، ونفذّنا العمل بالأسلوب التالي:

(١) الترجمة على مرحلتين: يُترجَم العمل -أولاً- بالكامل، ثم يُراجَع مراجعة كاملة شاملة وكأنه ترجمة جديدة يقوم بها مترجم آخر. وكلا العملين تولاه مترجمون محترفون أصحاب خبرة وكفاءة ودراية واسعة باللغتين، العربية والإنكليزية.

(٢) التحرير: وفي هذه المرحلة تمت المراجعة الكاملة والدقيقة لكل نص مترجَم؛ لغوياً، ونحوياً، وإملائياً. مع العناية بالتفقير والترقيم (وضع العلامات من نقطة وفاصلة وسواهما). وتولّى هذا العملَ واحدٌ من أفضل المختصين في هذا المجال.

(٣) الصفّ والإخراج: وقد نُفّذ هذا العمل لدى أفضل مراكز الصف، وبُذل في الإخراج من الجهد غايته ليأتي على أفضل شكل ممكن. وكان أن وقع الاختيار على قَطْع الكتاب

بالشكل الذي يجده القارئ بين يديه بعد استقراءٍ لميولِ كثيرٍ من القرّاء وُجد فيه أن الغالبية منهم يفضّلون -للروايات- هذا الحجم مقابل الحجم الكبير للكتب العلمية وكتب التراث.

(٤) ثم كانت المراجَعة بعد المراجَعة للنصّ النهائي المصفوف للتأكد من سلامته من أي خطأ أو سهو. كل ذلك ابتغاءَ الوصول إلى غاية الاتقان والحصول على أفضل عملٍ ممكنٍ يطيقه الجهد البشري.

نعم، نحن لم نحقق كتباً عظيمة من كتب التراث أو نترجم أعظم روائع الأدب العالمي، ولكن المرء مطالَبٌ -إذا عمل- أن يتقن عمله؛ تلك واحدة من وصايا الشرع. ثم إن في أدب أغاثا كريستي من الجمال والرقيّ ما يستحق السعي إلى مثله -إذ يُترجَم- في النص المُعرَّب. وأخيراً، فإن القارئ العربي الذي سيدفع قيمة هذه الكتب مالاً من جيبه ثم يصرف لقراءتها ساعات من وقته جديرٌ بالحصول على الأفضل. وهذا هو -بالذات- ما سعينا إليه في نهاية المطاف. فهل وُفِّقنا؟

نرجو أن نكون، وأنت -عزيزنا القارئ- خير حَكَم.

الناشر



منهجنا في التحرير

أردنا لهذه الطبعة أن تخرج متميزةً في سلامة لغتها وصحة صياغتها وقوة أسلوبها، فبذلنا في تحريرها غاية الجهد وأقصى الاهتمام، واضطررنا -في سبيل ذلك- إلى مراجعة المادة المترجَمة مرةً بعد مرة، غيرَ عابئين بما نصرفه من وقت أو نبذله من طاقة، حتى وصلنا إلى ما نحسبه عملاً مقبولاً يرضى عنه القارئ ويُرضينا نحن عن أنفسنا.

وقد أحببنا أن نضع بين يدي القارئ هذه الملاحظات حول الأسلوب الذي اتبعناه في المراجعة والتحرير:

ففي اللغة: نَهَجنا اعتمادَ الفصاحة بلا تكلّف؛ فاعتمدنا من الألفاظ الدائرة على ألسنة الناس ما وافق العربية، وتجنبنا كل لفظ غريب. وفي هذا المقام كرّسنا ما اعتمده مجمع اللغة العربية ووافق عليه مما ورد في معجمه «الوسيط»، مثل «الشُّرْبة» (بضم الشين بلا واو بعدها اسماً للحساء) و«السَّلَطة» و«الكُشك»، ومثل قولهم: «سرَّحَ العامل» (بمعنى أخلاه وصرفه من عمله) و«أشَّرَ على الكتاب» (أي وضع عليه إشارة برأيه)، ومثل هذا كثير.

وقد تنبّهنا إلى بعض المفردات مما يُخلَط فيه بين المذكر

والمؤنث والمفرد والجمع، «فالمستشفى» مذكّر يُؤنَّث خطأً، و«الحماس» بالتذكير لفظ غير موجود في اللغة، بل هي «الحماسة» بالتأنيث، و«الشرطة» جمع مذكّر وليس مفرداً مؤنثاً كما يظن عامة الناس؛ في الوسيط: «الشرطة هم حَفَظة الأمن في البلاد، الواحد شُرْطيٌّ وشُرَطيٌّ». ومثل هذا الخلط -فيما يجري على أقلام الكُتّاب وألسنة الناس- أيضاً كثير.

وكذلك تنبّهنا إلى بعض ما درَجَ على الألسنة والأقلام من مفردات غير صحيحة، فأبدلنا بها ما صحَّ وسُمِعَ عن العرب في هذا المقام؛ مثل قولهم: «خجول» والصواب «خَجِلٌ»، وقولهم: «مُندهش» والصواب «دَهِشٌ» أو «مَدْهوش»، وقولهم: «خصّيصاً» والصواب «خصوصاً»، و«الجِدّيّة» والصواب «الجِدّ»، ومنه: كان الأمر جِدّيّاً، وهو خطأ صوابه: كان الأمر جِدّاً، و«جاؤوا سويّةً» والصواب «جاؤوا معاً» لأن «سويّة» تعني الاستواء والعدل (كقولك: قسمت المال بينهم بالسوية)، و«المجوهرات»، وهو جمع غريب لم يُسمَع، والصحيح «الجواهر»، ومثل ذلك كثير.

<u>وفي الإملاء:</u> كتبنا «إذن» بالنون مطلقاً، عملت أو لم تعمل، وهو مذهب الأكثرين من أهل اللغة، وكان المبرّد يقول: "أشتهي أن أكوي يد مَن يكتب إذن بالألف؛ لأنها مثل أن ولن".

وفي بعض الألفاظ التي يجوز فيها الوصل والفصل (مثل: قلَّ ما) اخترنا الوصل مطلقاً فكتبناها: «قلّما» أسوةً بأمثالها؛ فقد اتفقوا على أن يكتبوا بالوصل «ممّا» (من ما) و«عمّا» (عن ما) و«إلاّ» (إن لا)، ومثلها: «إنّما» و«حيثما» و«كيفما»، إلخ.

واخترنا في لفظ «مئة» كتابتها من غير ألف، وهو رأيٌ لكثيرٍ من العلماء نقله السيوطي في «همع الهوامع» واعتمده عبد الغني الدقر في «معجم قواعد اللغة العربية»، قال: "وهو أقرب إلى الصواب". وفي عدد المئات (كثلاثمئة وخمسمئة، الخ) اخترنا كتابتها متصلةً غير منفصلة (لا كما يفعل بعضهم فيكتبونها: ثلاث مئة وخمس مئة، إلخ).

وحرصنا -في الطبع- على أن تُثبَت همزات القطع وتُحذَف همزات الوصل ،وهو الصحيح في الكتابة. وحرصنا على عدم الوقوع في الخطأ الذي يقع فيه كثيرٌ من الطابعين إذ يخلطون بين الألف المقصورة والياء المتطرفة في آخر الكلمة فينقطون الاثنتين أو يجردونهما كلتيهما من النقط، ومثل ذلك بالنسبة للتاء المربوطة والهاء المتطرفة. وحرصنا -أيضاً- على إثبات تنوين الفتح مطلقاً منعاً لالتباسه بالألف (كقولهم: "وجد مالا يفرح"، فهي بلا تنوين تفيد أنه لم يجد شيئاً يفرح، وبالتنوين تفيد أنه وجد من المال ما يفرح، فتأمّل الفرق!). وأثبتنا تنوين الضم والكسر في كل حالة خشينا فيها الالتباس.

وكذلك أثبتنا علامات الشَّكل الأصلية (الفتحة والضمة والكسرة والسكون) في كل حالة يُخشى فيها الالتباس؛ كالتفريق بين الفعل المبني للمجهول والمبني للمعلوم، وبين فعلَي المضارع والأمر، والمثنى وجمع المذكر السالم في حالَي النصب والجر، وغير ذلك. وحرصنا على إثبات الشَدّة -خصوصاً- في غير المواضع المدرَكة سليقةً؛ إذ هي دلالة على حرف محذوف.

أما علامات الترقيم (من نقطة وفاصلة وعلامة استفهام وغيرها)، فقد أوليناها كل عناية ممكنة؛ إذ هي -كما سمّاها بعض الأدباء- «علاماتٌ للتفهيم»، بها يتم المعنى ويَضِحُ المقصود. واتّبعنا في تحديد العلامات ومواضعها الأصولَ التي اعتمدها أهل البحث واللغة، وعلى رأسهم العلامة أحمد زكي باشا في كتابه القيّم «الترقيم وعلاماته في اللغة العربية» مع بعض التصرف بما يوافق الأصول الحديثة المتّبَعة في عالَم النشر في هذا العصر.

وأخيراً، نظرنا في كتابة الحروف الأجنبية التي ليس لأصواتها مقابل في لغتنا العربية، فوجدنا القوم قد اختلفوا فيها اختلافاً كبيراً. فأما الباء الشديدة (P) فقد كتبوها باء بثلاث نقاط، فاعتمدنا لها الباء العادية؛ إذ ليس من المتيسّر في الصف والطباعة توفير باء مثلثة، كما أن هذا الرسم غيرُ متفَقٍ عليه ولا هو معتمَد من جهة علمية ذات شأن كمجمع اللغة العربية. وكذلك فعلنا في الحرف (V) فكتبناه فاء عادية بنقطة واحدة. أما الحرف الذي أثار أكبر اضطراب فهو الحرف (G) الذي يسمّونه «جيماً مصرية». فلأجل نطق أهل مصر الجيم بهذا الصوت اعتمد له كثيرون صورة الجيم، ولكن لو تأمّلت مَخرَج هذا الحرف ومَخرَج الجيم لوجدتهما متباعدَين تباعداً بيّناً، ولوجدت أن ما يقاربه في لغتنا مَخرجاً (في النطق) هي الغين والقاف والكاف. وقد كان هذا الصوت يُكتَب -فيما نُقل قديماً عن الفارسية- كافاً فوقها خط، وهي صورة لم يُتفَق عليها فماتت واندثرت. وأهل الخليج يكتبون -اليوم- هذا الصوت قافاً، ويكتبه آخرون غَيْناً، وهو ما اخترناه لما وجدنا من قوة الدليل عليه؛ وانظر كيف كتبوا أكثر ما عرّبوا من أسماء البلدان كذلك فقالوا: «البرتغال» و«غانا» و«الغابون» و«السنغال»

و«بلغاريا» و«غرينتش»، وأمثال ذلك كثير كثير. وهكذا كتبنا اسم مؤلفة هذه القصص «أغاثا» خلافاً لما كان شائعاً من كتابتها بالجيم. (واستثنينا من الكتابة بالغين فقط كلمة «إنكلترا» والنسبةَ إليها: «إنكليز» و«إنكليزية»؛ لشيوع كتابتها بالكاف بين المتعلمين وطلبة المدارس ولمناسَبة المخرج، فأثبتناها بالكاف كما هي هنا).

أما أكثر ما يربك فهو كتابة الحروف الصوتية الطويلة في الأسماء الأجنبية. ففي العربية ثلاثة أصوات طويلة لا غير: الألِف والواو والياء، أما في الإنكليزية فتوجد ثمانية أصوات طويلة: الألف المرقَّقة (كما في: cat)، والألف المفخَّمة (كما في: car)، والألف الممالة (كما في: care)، والواو المشبعة (كما في: boot)، والواو الممالة المرقَّقة (كما في: bone)، والواو الممالة المفخّمة (كما في: orange)، والياء المشبعة (كما في: me)، والياء الممالة (كما في: urgent). وقد قربنا -في الرسم العربي- كل أنواع الألف فكتبناها ألفاً، وكل أنواع الواو فكتبناها واواً، ونوعَي الياء فكتبناهما ياءً، ما عدا الألف الممالة التي اجتهدنا في كتابتها ياء (كما في Hastings، صاحب بوارو الشهير في كثير من الروايات، كتبناه هيستِنْغز).

هذا ما اجتهدنا فيه وذهبنا إليه، آملين أن يكون اجتهادنا صحيحاً وأن نكون قد هُدينا فيه إلى الصواب؛ فيكون العمل الذي نقدمه إلى قرائنا سليماً صحيحاً معافى من العيوب. والله المستعان.

المحرّر

* * *

المؤلّفة في سطور

تُعتبَر أغاثا كريستي أعظمَ مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها بليونَيْ (ألفَيْ مليون) نسخة!

وُلدت أغاثا كريستي في بلدة توركي بجنوب إنكلترا عام ١٨٩٠، وتوفيت عام ١٩٧٦ وعمرها نحو خمسة وثمانين عاماً. لم تذهب أغاثا قطّ إلى المدرسة، بل تلقت تعليمها في البيت على يد أمها التي دفعتها إلى الكتابة وشجعتها عليها في وقت مبكر من حياتها، كما تخبرنا هي نفسها؛ فحينما كانت نزيلة فراشها تتعافى من مرضٍ ألمّ بها سألتها أمها: "لماذا لا تكتبين قصة؟". أجابت فوراً: "لا أظن أنني قادرة على ذلك"، فقالت أمها: "بلى، تستطيعين. جرّبي وسترَين". عندئذ كتبت أغاثا أول رواية لها وعنوانها «ثلوج على الصحراء»، وهي رواية رفضها الناشرون فلم تُنشر قط. أما الرواية الثانية «القضية الغامضة في ستايلز» (التي ظهر فيها بوارو للمرة الأولى) فقد أدخلتها إلى عالم الكتابة الرحيب،

وذلك حين نُشرت -أخيراً- بعدما رفضها ستة من الناشرين!

عاشت أغاثا طفولة سعيدة، إذ كانت صغرى ثلاثة أولاد لأبٍ مرِح مُحبٍّ للحياة وأم ذكية طموحة، وقد ظلّت -حتى آخر حياتها- تذكر بيتها الذي وُلدت ونشأت فيه بكثير من الشوق والحنين. ولكن هذه السعادة لم تَدُم؛ فقد توفي والدها وهي في الحادية عشرة مخلّفاً لأسرته مشكلات مادية لم تلبث أن أدخلت أغاثا في عالم المسؤولية في ظروف صعبة.

وحينما قامت الحرب العالمية الأولى تطوعت أغاثا للعمل في أحد المستشفيات ممرّضةً تساعد جرحى الحرب. وفي هذا المستشفى عملت بتحضير الأدوية وتركيبها وتعرفت إلى السموم المختلفة، وهو الأمر الذي كانت له فائدة عظيمة في كتاباتها اللاحقة عن الجرائم.

وفي تلك الفترة، في عام ١٩١٤، تزوجت طيّاراً شاباً اسمه آرشيبالد كريستي، ولكنها انفصلت عنه عام ١٩٢٨ بعد موت والدتها بقليل. ولم تلبث أن تزوجت -مرة أخرى- عام ١٩٣٠ عالم الآثار الشهير السير ماكس مالُوانْ، وهو الذي أمضت برفقته سنوات من عمرها في المشرق (في العراق وسوريا ومصر) فجاءت أحداث عدد من رواياتها لتقع في هذه البلاد، مثل: «موت فوق النيل»، و«لقاء في بغداد»، و«جريمة في بلاد الرافدين». وحينما سافرت على متن قطار الشرق السريع خرجت بواحدة من أشهر رواياتها: «جريمة في قطار الشرق».

تحدثت أغاثا كريستي عن نفسها فقالت: "لو سُئلت عن

ميولي لأجبت بأنني أحب كل طعام جيد، وأكره الكحول وكل ما يدخل في صنعه الكحول. حاولت التدخين فوجدته بغيضاً ولم أجد ما يغريني بالتعلق به. أحب الأزهار، وأعشق البحر، وأهوى السفر ولا سيما في بلدان الشرق الأدنى. أحب المسرح وأكره الأفلام الناطقة إذ أعجز عن متابعتها، وأكره الإذاعة وضوضاءها، وأبغض المدن وازدحامها".

أما قصصها فتتميز بدقة حَبْكتها وترابط أحداثها ومنطقية تسلسلها، تغور فيها في أعماق النفوس البشرية محلِّلةً كوامنَها باحثةً عن دوافعها بعبقرية فذة وبصيرة نافذة. وهي قصص «نظيفة» بريئة من إثارة المشاعر والغرائز وليس فيها ما يُخجِل أو يَسوء. وقد حرصت على أن تقول لنا فيها دائماً: «لا بدّ أن ينتصر الخير»، و«الجريمة لا تفيد».

أشهر أبطالها هيركيول (هرقل) بوارو، والآنسة ماربل. أما بوارو فقد «وُلد» عام ١٩٢٠ في «القضية الغامضة في ستايلز»، وهي أول رواية نُشِرت لها، ثم استمرّ بالظهور في روايات لاحقة لمدة خمس وخمسين سنة حتى «قُتل» أخيراً عام ١٩٧٥ في روايتها «الستارة». وهو محقق بلجيكي وشرطي متقاعد أهمّ ما يميّزه ذكاؤه الخارق (الناتج عن «الخلايا الرمادية الصغيرة» في دماغه!) وشارباه العظيمان اللذان ليس لهما مثيل في الدنيا! وغالباً ما يرافقه في تحقيقاته صاحبه الشهير، الضابط المتقاعد، الكابتن هيستِنْغز، الذي يتميز بطبيعته الطيبة وذكائه المتواضع وحبه الكبير لبوارو.

وأما الآنسة ماربل فهي عانس عجوز ذات ذكاء بالغ وإدراك عجيب، وتتمتع بقدرة فذّة على الملاحظة والتحليل وفهمٍ عميقٍ للنفس البشرية بحيث تكشف أسرار الجرائم مستفيدةً من شبكةٍ واسعةٍ من الأصدقاء والمعارف والعلاقات الاجتماعية الناجحة.

كتبت أغاثا كريستي من روايات وقصص الجريمة سبعاً وستين رواية طويلة وعشرات من القصص القصيرة التي نُشرت في ثلاث عشرة مجموعة، وبذلك يكون عدد ما نُشر لها من الأعمال البوليسية ثمانين كتاباً. كما كتبت ستَّ روايات طويلة رومَنسية باسم مستعار هو «ماري ويستماكوت»، وست عشرة مسرحية أشهرها «مصيدة الفئران» التي تُعتبر أطول المسرحيات عرضاً في التاريخ؛ إذ ما زالت تُعرض في لندن (دون انقطاع تقريباً) منذ عام ١٩٥٢، أي لأكثر من نصف قرن!

أما سيرة حياتها التي كتبتها قبيل وفاتها فقد نُشرت بعد موتها بعام واحد، وسوف نقدّم ترجمتها إلى قرائنا (مع كتاب ذكرياتها الآخر «تعالي أخبريني كيف تعيشين» الذي نشرته عام ١٩٤٦ وسردت فيه ذكرياتها عن رحلاتها مع زوجها)، حيث ستكون هذه هي المرة الأولى التي يُترجم فيها هذان الكتابان إلى اللغة العربية.



الفصل الأول
منتدى الثلاثاء

- ألغازٌ لم تُحل!

نفخ ريموند وست سحابة من الدخان وكرر الكلمات بشيء من السرور الواعي المتعمد: ألغازٌ لم تُحل!

نظر حوله راضياً. كانت الغرفةُ قديمةً ذات أعمدة سوداء عريضة تمتد تحت سقفها، وقد فُرشت بأثاث من النوع الجيد القديم الذي يلائمها؛ ومن هنا جاءت نظرة الاستحسان في عيني ريموند وست.

كان ريموند وست يمتهن الكتابة، ويحب أن يكون في أجواء لا يعيبها أو ينتقص منها شيء. وقد كان بيت خالته جين ماربل يسره دوماً باعتباره أفضل إطار لشخصيتها. نظر إليها حيث تجلس أمام الموقد منتصبة الجذع في كرسي ضخم وثير: كانت ترتدي ثوباً أسود مقصباً ضيقاً جداً عند الخصر، ينحدر -في الجزء الأمامي منه- شريطُ زركشةٍ متموجاً من كتفيها حتى الخصر، وقفازاً أسود

موشحاً، وتضع فوق شعرها الثلجي الناعم قبعة سوداء مزركشة أيضاً. وكانت تحوك قطعة من الصوف الناعم الأبيض. أما عيناها الزرقاوان الغائمتان، الممتلئتان رقة ولطفاً، فقد استعرضتا بشيء من السرور ابن أختها وضيوفه. استقرت عيناها أولاً على ريموند نفسه ببهجته وانطلاقه، ثم انتقلتا إلى جويس ليمبرييه الفنانة ذات الشعر الكثيف الأسود والعينين الخضراوين الغريبتين، ثم انتقلت عيناها إلى ذلك الرجل المتزين الذي عركته الحياة السير هنري كليذرنغ. وكان في الغرفة شخصان آخران: الدكتور بيندر، رجل الدين الكهل، والسيد بيثيريك المحامي، وهو رجل ضئيل الجسم، يضع نظارات ينظر من فوقها لا من خلالها. أولت الآنسة ماربل لحظات انتباه قصيرة لكل هؤلاء ثم عادت إلى حياكتها وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة.

أطلق السيد بيثيريك تلك النحنحة الجافة التي يبدأ بها كلامه دوماً وقال: ما هذا الذي تقوله يا ريموند؟ ألغاز لم تُحل؟ هاه... ماذا عن تلك الألغاز؟

قالت جويس ليمبرييه: لا شيء، إن ريموند يحب فقط صوت هذه الكلمات، ويحب سماع نفسه وهو يقولها.

رماها ريموند بنظرة تأنيب جعلتها ترمي برأسها إلى الخلف وتضحك، ثم قالت للآنسة ماربل: إنه دجال، أليس كذلك يا آنسة ماربل؟ أنا واثقة أنك تعلمين ذلك.

ابتسمت لها الآنسة ماربل بلطف دون الإجابة بشيء.

قال الكاهن بتجهم: الحياة نفسها لغز لم يُحل.

اعتدل ريموند في جلسته ونفض لفافته بحركة مفاجئة وقال: ليس هذا ما أعنيه. لم أكن ألقي حكماً فلسفية، بل كنت أفكر بحقائق واقعية مجردة ملء السمع والبصر. حقائق وقعت ولم يفسرها أحد أبداً.

قالت الآنسة ماربل: أعرف يا عزيزي بالضبط أنواع الأمور التي تعنيها. السيدة كاروثرز -مثلاً- تعرضت لتجربة بالغة الغرابة بالأمس؛ فقد اشترت أوقيتين من الروبيان المنتقى من محل إليوت، ثم مرت على محلين آخرين، وعندما وصلت إلى البيت وجدت أن الروبيان لم يكن معها. عادت إلى المحلين اللذين مرت بهما، ولكن الروبيان اختفى تماماً. هذا يبدو لي أمراً ملفتاً جداً للنظر.

قال السيد كليذرنغ بتجهم: قصة مريبة جداً.

قالت الآنسة ماربل وقد احمرت وجنتاها قليلاً من الانفعال: توجد طبعاً أنواع عديدة من التفسيرات الممكنة لهذا الأمر؛ إذ ربما كان أحدهم مثلاً...

قاطعها ريموند وست قائلاً بشيء من السرور: يا خالتي العزيزة، أنا لم أقصد هذا النوع من الأحداث التي تقع في القرى، بل كنت أفكّر بجرائم القتل والاختفاء، بمثل تلك الجرائم التي يمكن للسير هنري أن يحدثنا عنها لساعات طوال إن أراد ذلك.

قال السير هنري بتواضع: ولكني لست ممن يسهبون في الحديث عن مهنهم؛ أنا لا أتحدث عن مهنتي أبداً.

كان السير هنري كليذرنغ حتى وقت قريب أحد كبار الضباط في شرطة سكوتلانديارد. قالت جويس ليمبرييه: أحسب أن كثيراً من

جرائم القتل وغيرها لم يجد له الشرطة حلاً أبداً.

قال السيد بيثيريك: تلك حقيقة يعترفون بها كما أظن.

قال ريموند وست: إنني أتساءل: ترى أي نوع من الأدمغة هو الذي ينجح حقاً في كشف الألغاز؟ فالمرء يشعر دوماً بأن الافتقار إلى الخيال كثيراً ما يعوق رجل الشرطة العادي.

قال السير هنري ببرود: تلك هي وجهة نظر الرجل العادي.

علقت جويس مبتسمة: إذا احتاج المرء علم النفس والخيال فليلجأ إلى الكُتّاب...

ثم قامت بانحناءة ساخرة لريموند، ولكنه ظل جدياً وقال بتجهم: إن فن الكتابة يعطي المرء بصيرة تنفذ إلى النفس البشرية، وربما رأى المرء عندها دوافع من شأن الرجل العادي أن يغفلها.

قالت الآنسة ماربل: أعرف يا عزيزي أن كتبك تدل على ذكاء لامع، ولكن هل تعتقد حقاً أن الناس كريهون إلى تلك الدرجة التي تصورها في كتاباتك؟

- يا خالتي العزيزة! احتفظي بمعتقداتك لنفسك، فليس لي أنا أن أفنّدها لا سمح الله.

قالت الآنسة ماربل وهي تقطب جبينها قليلاً وتعد الغرزات في الصوف الذي تحوكه: ما أعنيه هو أن الكثير من الناس لا يمكن تصنيفهم بين صالح وطالح كما يبدو لي، بل يكونون -ببساطة- سذجاً سخفاء.

أصدر السيد بيثيريك نحنحته الجافة ثانية وقال: ألا ترى يا ريموند أنك تولي أهمية كبيرة للخيال؟ إن الخيال صفة خطيرة جداً كما نعرف نحن المحامين حق المعرفة. إن القدرة على غربلة الأدلة بموضوعية وأخذ الحقائق والنظر إليها كحقائق هو ما يبدو لي الطريقة المنطقية الوحيدة للوصول إلى الحقيقة. ويمكنني أن أضيف -من واقع خبرتي- أنها أيضاً الطريقة الوحيدة الناجحة.

صاحت جويس وهي تقذف برأسها إلى الخلف بسخط: ياه! أراهن على أن بوسعي أن أغلبكم جميعاً في هذه اللعبة؛ فأنا لست امرأة فقط (ولكم أن تقولوا ما تشاؤون ولكن للمرأة حدساً لا يملكه الرجل) بل إنني فنانة أيضاً. أنا أرى أشياء لا ترونها أنتم، كما أنني -بحكم عملي فنّانة- خبرت كل أنواع الناس وظروفهم. إنني أعرف الحياة بشكل لا يمكن للآنسة الحبيبة ماربل أن تعرفه وهي تعيش في هذه القرية الصغيرة.

قالت الآنسة ماربل: ربما كنت على حق يا عزيزتي، ولكن أموراً شديدة الإيلام والإزعاج تحدث في القرى أحياناً.

ابتسم السيد بيندر وقال: أيمكن لي أن أتكلم؟ أعلم أن سمة هذه الأيام هي التصغير من شأن رجال الدين، ولكننا نسمع أشياء ونعرف جانباً من الشخصية الإنسانية يشكل كتاباً مبهماً للآخرين.

قالت جويس: حسناً، يبدو لي أننا نشكل تجمعاً واسع التمثيل. ماذا لو شكلنا منتدى؟ ما هو اليوم... الثلاثاء؟ سوف نسميه «منتدى الثلاثاء». سنلتقي كل أسبوع، ويطرح كل عضو منا مشكلة بدوره... لغزاً يكون قد عرفه شخصياً وعرف حله بالطبع. لنرَ... كم عددنا

نحن؟ واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة. ينبغي لنا أن نكون ستة.

قالت الآنسة ماربل بابتسامة عريضة: لقد نسيتِني يا عزيزتي.

فوجئت جويس قليلاً ولكنها أخفت ذلك بسرعة وقالت: سيكون ذلك رائعاً يا آنسة ماربل، لم يخطر لي أنك مهتمة باللعبة.

قالت الآنسة ماربل: أظنها ستكون ممتعة جداً، خاصة بحضور العديد من السادة الأذكياء كهؤلاء. أخشى أن لا أكون ذكية شخصياً، ولكن العيش طوال هذه السنين في قرية سينت ميري ميد يعطي المرء بصيرة نافذة بالطبيعة الإنسانية.

قال السير هنري بلباقة: أنا واثق أن مساهمتك ستكون قيّمة جداً.

سألت جويس: من الذي سيبدأ؟

قال السيد بيندر: لا أظننا سنختلف في ذلك، فعندما نحظى بهذا الحظ العظيم في وجود رجل بارز بيننا مثل السير هنري...

ترك جملته دون إنهائها وانحنى بلباقة باتجاه السير هنري. بقي السير هنري ساكتاً للحظات، ثم تنهد أخيراً وأعاد شبك ساقيه وبدأ حديثه: من الصعب قليلاً عليّ اختيار ذلك النوع تحديداً من الألغاز التي تريدونها، ولكن أظن أنني أعرف حالة تناسب هذه المواصفات بشكل رائع. ربما كنتم قد رأيتم ذكراً لتلك القضية في الصحف قبل عام مضى، وقد تم في حينها حفظ القضية باعتبارها لغزاً لم يُحل،

ولكن الحل وقع بين يدي في الحقيقة قبل عدة أيام.

إن حقائق القضية بسيطة جداً: ثلاثة أشخاص يجلسون لتناول عشاء يحتوي -فيما يحتويه- على جراد البحر المعلَّب. وفي وقت لاحق من تلك الليلة يقع الثلاثة مرضى، ويتم استدعاء طبيب على وجه السرعة. يشفى اثنان من الثلاثة ويموت الثالث.

أطلق ريموند آهة استحسان فيما مضى السير هنري قائلاً: وكما قلت فإن الحقائق بصيغتها تلك كانت بسيطة جداً. فقد عزيت الوفاة إلى التسمم الغذائي وأُصدرت شهادة بهذا المعنى، وتم دفن الضحية حسب الأصول. ولكن الأمور لم تقف عند هذا الحد.

أومأت الآنسة ماربل برأسها تفهماً وقالت: انتشرت الأقاويل كما أظن، فهي عادة ما تنتشر.

مضى السير هنري قائلاً: والآن عليّ أن أصف شخصيات هذه المأساة. سوف أسمي الزوج وزوجته السيد والسيدة جونز، ومرافقة الزوجة الآنسة كلارك. كان السيد جونز بائعاً جوالاً كثير السفر لشركة تصنع الأدوية، وكان رجلاً وسيماً بطريقة مظهرية خشنة، في نحو الخمسين من عمره. وكانت زوجته امرأة عادية تقريباً في نحو الخامسة والأربعين من عمرها. أما المرافقة، الآنسة كلارك، فقد كانت امرأة في الستين من عمرها، بدينة ظاهرة البهجة ذات وجه محمرّ دائم الابتسام. بوسعكم القول إن أياً منهم لم يكن شخصية بالغة الأهمية.

وقد بدأت المتاعب بطريقة غريبة جداً. كان السيد جونز مقيماً

في الليلة التي سبقت الحادثة في فندق صغير في مدينة بيرمنغهام، وصدف أن كان الورق النشاف المستخدم لتنشيف الحبر قد وضع في آلة التنشيف حديثاً في ذلك اليوم، وحدث أن خادمة الغرف لم تجد يومها شيئاً تفعله أفضل من التسلي بدراسة ما هو منطبع على ورقة النشاف أمام المرآة بعد أن كان السيد جونز يكتب رسالة هناك. بعد أيام من ذلك ذكرت الصحف خبر وفاة السيدة جونز عقب تناولها جراد البحر المعلب، وعندها قامت خادمة الغرف بالإفضاء لزملائها الخدم بالكلمات التي فكّت رموزها على ورقة النشّاف. وكانت الكلمات كالتالي: «معتمِدٌ تماماً على زوجتي... عندما تموت... المئات والألوف...».

ولعلكم تذكرون أن قضية قد شاعت مؤخراً عن رجل سَمَّ زوجته. وهكذا لم يتطلب الأمر الكثير حتى يلتهب خيال أولئك الخدم، فقيل إن السيد جونز قد خطط لقتل زوجته ليرث المئات والألوف من الجنيهات! وحدث أن إحدى الخادمات كان لها أقرباء في البلدة الصغيرة التي يعيش بها جونز، فكتبت لهم وكتبوا لها بالمقابل. ويبدو أن السيد جونز كان مهتماً كثيراً بابنة طبيب البلدة، وهي شابة جميلة في الثالثة والثلاثين من عمرها... وهكذا بدأت همهمات الفضيحة. وتم تقديم عريضة لوزارة الداخلية للتحقيق في الأمر، وتلقت إدارة سكوتلانديارد سيلاً من الرسائل المغفلة من التوقيع وكلها تتهم السيد جونز بقتل زوجته. يمكنني القول إننا لم نعتقد للحظة واحدة بوجود شيء في الأمر باستثناء أقاويل أهل القرية وثرثرتهم، ومع ذلك فقد صدر أمر باستخراج الجثة. كانت القضية واحدة من تلك القضايا التي تلفها الأساطير الشعبية التي

لا تعتمد على أي أساس قوي والتي ثبت -مع ذلك- أنها مبررة كل التبرير؛ فنتيجةً للتشريح تم العثور على كمية وافرة من الزرنيخ أصبح واضحاً معها أن المتوفاة قد ماتت نتيجة التسميم المتعمد. وكان على سكوتلانديارد أن تثبت -بالتعاون مع السلطات المحلية- كيف تم دس الزرنيخ ومن الذي دسه.

صاحت جويس: آه! هذا ما أحبه... إنها الجرائم الحقيقية!

أكمل السير هنري: حامت الشكوك طبعاً حول الزوج؛ إذ كان المستفيد من موت زوجته. ليس إلى حد مئات الألوف التي تخيلتها خادمة الفندق برومانسية بالغة، ولكن بمبلغ محترم يبلغ ثمانية آلاف جنيه. لم تكن له أموال خاصة غير ما يكسبه بعمله، وكان رجلاً ذا عادات لا تخلو من إسراف، مع ميلٍ لمجتمع النساء. حققنا بكل عناية ممكنة في إشاعات ارتباطه بابنة الطبيب. ورغم أنه بدا واضحاً أن صداقة قوية كانت تجمع بين الاثنين في يوم ما، إلاّ أن انفصالاً مفاجئاً جداً قد حدث قبل شهرين من ذلك، ويبدو أن أياً منهما لم يرَ الآخر منذ ذلك الحين. أما الطبيب نفسه -وهو كهل من النوع المستقيم البريء- فقد ذُهل لنتيجة التشريح. كان قد استُدعي في منتصف الليل تقريباً لفحص الثلاثة فوجدهم جميعاً في حالة سيئة، وقد أدرك فوراً الحالة الخطيرة للسيدة جونز، وأرسل إلى المستودع الذي يحتفظ فيه بالأدوية من يحضر له بعض حبوب الأفيون بغية تخفيف الألم. ولقد توفيت المرأة رغم كل جهوده، ولكنه لم يشك لحظة واحدة بأن في الأمر شيئاً. كان مقتنعاً أن وفاتها كانت بسبب نوع من التسمم الناشئ عن سوء حفظ المعلبات. كان العشاء في تلك الليلة يتألف من جراد البحر المعلب والسلطة وحلوى الترايفل

والخبز والجبن، ولسوء الحظ لم يتبقَ شيء من جراد البحر؛ فقد تم أكله كله ورمي العلبة. وقد حقق الطبيب مع الخادمة الشابة غلاديس (وكانت في غاية القلق والانزعاج تبكي بانفعال) ووجد صعوبة في حملها على التركيز على الموضوع، ولكنها أكدت مراراً وتكراراً أن علبة جراد البحر لم تكن منتفخة أبداً، وأن الجراد بدا لها بحالة جيدة تماماً.

كانت هذه هي الحقائق التي تعين علينا الانطلاق منها. إن كان جونز قد دس الزرنيخ لزوجته بدافع إجرامي فقد بدا واضحاً أن السم لم يوضع في أيٍ من الأطعمة التي تم تناولها على العشاء، باعتبار أن الثلاثة قد شاركوا في تناول الوجبة. كما أنه كان علينا أن نلاحظ أمراً آخر مهماً وهو أن جونز نفسه لم يعد من بيرمنغهام إلاّ عندما كان طعام العشاء يؤتى به إلى المائدة، بحيث أنه لم يكن ليجد فرصة للعبث بأي نوع من الأطعمة مسبقاً.

سألت جويس: وماذا عن مرافقة الزوجة؟ البدينة ذات الوجه البشوش؟

أومأ السير هنري برأسه وقال: أؤكد لك أننا لم نتجاهل موضوع الآنسة كلارك. ولكن بدا لنا أن من المشكوك فيه أن يكون لها دافع للجريمة؛ إذ لم تترك لها السيدة جونز أي حصة في الإرث، ولم تستفد من وفاة مخدومتها إلاّ عناء البحث عن عمل جديد.

قالت جويس متأملة: يبدو أن هذا يبرئ ساحتها.

أكمل السير هنري قائلاً: ولكن سرعان ما اكتشف أحد

المفتشين العاملين معي حقيقة مهمة. فبعد العشاء في تلك الليلة نزل السيد جونز إلى المطبخ وطلب طبقاً من مزيج دقيق الذرة لزوجته التي اشتكت من أنها ليست على ما يرام. وقد انتظر في المطبخ حتى انتهت غلاديس من إعداد المزيج، ثم حمله وصعد بنفسه إلى غرفة زوجته. وأعترفُ أن ذلك بدا لنا حلاً للقضية.

أومأ المحامي برأسه وقال وهو يعدّد على أصابعه: الدافع والفرصة. فبصفته بائعاً جوالاً لشركة أدوية يمكنه الوصول بسهولة إلى السم.

وأضاف القس: وهو -فوق ذلك- رجل ضعيف الوازع الخلقي.

كان ريموند وست يحدق إلى السير هنري ثم ما لبث أن قال: توجد ثغرة في مكان ما... لماذا لم تعتقلوا الرجل؟

ابتسم السير هنري بشيء من خيبة الأمل وقال: ذلك هو الجزء المؤسف في القضية. كان كل شيء قد سار حتى الآن بشكل سلس، وها نحن نصل الآن إلى العقبات المفاجئة. لم يتم القبض على جونز لأن الآنسة كلارك أخبرتنا عند التحقيق معها بأن السيدة جونز لم تأكل شيئاً من طبق مزيج دقيق الذرة، بل هي التي أكلته، أي كلارك نفسها. نعم، ويبدو أنها ذهبت إلى غرفة السيدة جونز كما هي عادتها، وكانت السيدة جونز جالسة في سريرها وإلى جانبها الطبق، وقد قالت: "لا أشعر أنني على ما يرام يا ميلي، وهذا عقابٌ أستحقه إذ أكلت جراد البحر ليلاً. لقد طلبت من ألبرت أن يجلب لي بعضاً من مزيج دقيق الذرة، ولكنني -وقد جيء به إليّ الآن- لا أشعر بأنني

أشتهيه". وقد علقت الآنسة كلارك قائلة: "أمر مؤسف، خاصة وأنه محضَّر بشكل جيد أيضاً وليست به كُتل. إن غلاديس طباخة رائعة حقاً. قليل من الفتيات من يستطعن تحضير مزيج دقيق الذرة بشكل جيد في أيامنا هذه، وإنني أعلن أنني أشتهيه شخصياً؛ فأنا جائعة". وعندها أجابتها السيدة جونز: "أظنك فعلاً جائعة نتيجة وساوسك الغبية".

توقف السير هنري ليعلق قائلاً: لا بد لي من أن أوضح أن الآنسة كلارك -وقد أقلقتها الزيادة في سمنتها- كانت تتبع نظام حمية. وهذا هو ما عنته السيدة جونز بالوساوس، فقد قالت لها: "هذا ليس جيداً بالنسبة لك يا ميلي، ليس جيداً بالفعل. إن كان الله قد خلقك سمينة فهذا يعني أنه أراد لك أن تكوني سمينة. كلي هذا المزيج فسوف يفيدك كثيراً".

وهكذا شرعت الآنسة كلارك في أكل المزيج... وأكلته كله بالفعل، وبذلك فإن قضيتنا ضد السيد جونز قد تهافتت تماماً. وعندما طُلب منه تفسير للكلمات التي كانت على ورقة النشاف أعطى تفسيراً فورياً جاهزاً، إذ قال إن الرسالة كانت جواباً على رسالة كتبها إليه أخوه في أستراليا يطلب منه مالاً، وقد كتب لأخيه مشيراً إلى أنه معتمد كلياً على زوجته، وعندما تموت زوجته فإنه سيكون مسؤولاً عن المال وسيساعد أخاه إن أمكنه ذلك. وقد أعرب عن أسفه لعدم قدرته على المساعدة، ولكنه أشار إلى أن في العالم المئات والألوف من الناس ممن يعانون من نفس تلك الظروف المؤسفة.

قال الدكتور بيندر: وهكذا انهارت القضية؟

أجابه السير هنري: وهكذا انهارت القضية؛ فلم نستطع المجازفة باعتقال جونز دون وجود ما يمكن الاعتماد عليه.

ساد بعض الصمت، ثم قالت جويس: وهذه هي القصة كلها، أليس كذلك؟

قال السير هنري: هذه هي القضية كما ظلت دون حل طوال العام الماضي. أما الحل الحقيقي فهو في أيدي شرطة سكوتلانديارد الآن، وربما قرأتم عنه في الصحف في غضون يومين أو ثلاثة.

قالت جويس بتأمل: الحل الحقيقي... أمر محير. دعونا نفكر جميعاً لخمس دقائق ثم نعود للكلام.

أومأ ريموند وست برأسه ونظر إلى ساعته ليبدأ التوقيت، وعندما انتهت الدقائق الخمس التفت إلى الدكتور بيندر وقال: أتبدأ في الكلام؟

هز العجوز رأسه وقال: أعترف بأنني حائر تماماً. لا أملك إلاّ أن أشعر بأن الزوج هو الطرف المذنب، ولكنني لا أستطيع تصور الطريقة التي اتبعها للقيام بذلك. كل ما يمكنني قوله هو أنه دس لها السم دون شك بطريقة ما، مع أنني لا أستطيع تخيل الكيفية التي أمكن من خلالها اكتشاف تلك الطريقة بعد مرور كل هذا الوقت.

- جويس؟

قالت جويس جازمة: إنها المرافِقة، المرافقة بالتأكيد! كيف لنا أن نعرف أي دافع كان يدفعها؟ إن كونها عجوزاً وسمينة وبشعة

لا يعني أنها لم تكن تحب جونز شخصياً. وربما كانت تكره الزوجة لسبب آخر مختلف. فكّروا في مهنة المرافِقة... إن عليها دوماً أن تكون مسلية وأن تبدي الموافقة وتكتم مشاعرها وتكبح رغباتها. وفي يومٍ ما لم تعد قادرة على تحمل ذلك، وعندها قتلتها. ربما كانت قد وضعت السم في ذلك الطبق، وربما كانت كل تلك القصة عن تناولها لمزيج دقيق الذرة كذباً.

- السيد بيثيريك؟

وضع المحامي رؤوس أصابعه بعضها مقابل بعض بشكل يدل على الاحتراف وقال: لا أكاد أستطيع الإدلاء برأي، لا أكاد أستطيع ذلك بالاعتماد على هذه الحقائق.

قالت جويس معترضة: ولكن لا بد لك من إبداء رأي. لا يمكنك أن تحتفظ بحكمك وتقول «دون إضرار بأحد» وتمثل علينا دور القانوني. لا بد أن تلعب اللعبة.

قال السيد بيثيريك مسايراً: وفقاً لهذه الحقائق لا يبدو لي ما يمكن أن يقال. إن رأيي الشخصي -وقد خبرت مع الأسف كثيراً من هذه القضايا- أن الزوج هو المذنب. ويبدو أن التفسير الوحيد الذي يمكن أن يغطي كافة الحقائق هو أن الآنسة كلارك قد تستّرت على الزوج لسبب أو لآخر. ربما كان بينهما ترتيب مالي ما. ربما أدرك بأنه سيكون موضع شبهة، وربما وافقت هي -وهي لا ترى أمامها إلاّ مستقبل الفقر- على الإدلاء بقصة تناولها للمزيج مقابل مبلغ كبير من المال يُدفَع لها سراً. فإن كانت تلك هي الحال فهي حال شاذة جداً بالطبع، حال شاذة حقاً.

قال ريموند: أنا أختلف معكم جميعاً. لقد نسيتم العامل الأهم في هذه القضية؛ ابنة الطبيب. سأخبركم بتحليلي للقضية. لقد كان جراد البحر المعلب فاسداً، وهذا يفسر أعراض التسمم. وقد أُرسل في طلب الطبيب فوجد السيدة جونز تعاني من ألم عظيم لأنها أكلت من الجراد أكثر من الآخرين، وبعث -كما أخبرتَنا يا سير هنري- في طلب حبوب أفيون. لم يذهب بنفسه، بل أرسل في طلبها. من الذي سيعطي الرسول حبوب الأفيون؟ ابنته كما هو واضح. إنها تحب جونز، وفي تلك اللحظة تنشط في نفسها كل الغرائز السيئة وتدرك أن في يدها وسيلة تحريره. وهكذا فإن الحبوب التي أرسلَتْها تحتوي على الزرنيخ الأبيض الصرف. هذا هو تصوري لحل القضية.

قالت جويس بلهفة: والآن أخبرنا بالحل يا سير هنري.

ولكن السير هنري ردّ قائلاً: انتظري لحظة، فالآنسة ماربل لم تتكلم بعد.

كانت الآنسة ماربل تهز رأسها بأسى، ثم قالت: يا إلهي! لقد أغفلتُ غرزة أخرى من الصوف؛ فقد كنت منسجمة جداً مع هذه القصة. إنها قضية محزنة، محزنة جداً. إنها تذكرني بالعجوز السيد هارغريفز الذي كان يعيش في أعلى المرتفع هناك. لم تراود زوجتَه أيةُ شكوك أبداً حتى توفي تاركاً كل أمواله لامرأة كان يعيش معها وله منها خمسة أولاد. كانت المرأة خادمة عندهم في وقت من الأوقات، وكانت السيدة هارغريفز تصفها دوماً بأنها فتاة رائعة، يُعتمد عليها كثيراً في قلب الفرشات كل يوم وتنظيف ما تحتها، باستثناء أيام العطلات طبعاً. وكان السيد هارغريفز قد أسكن تلك المرأة في بيت

في البلدة المجاورة واستمر في منصبه كأحد رعاة الكنيسة مؤدياً كل طقوسها.

قال ريموند بنفاد صبر: يا خالتي العزيزة جين، ما علاقة هارغريفز الذي شبع موتاً بالقضية؟

ردّت الآنسة ماربل: لقد جعلتني هذه القصة أفكر فيه فوراً؛ فالحقائق متشابهة كثيراً، أليس كذلك؟ أحسب أن الفتاة المسكينة قد اعترفت الآن، وهذا ما جعلكم تعرفون يا سير هنري.

سأل ريموند وست: أية فتاة؟ يا خالتي العزيزة، ما الذي تتكلمين عنه؟

- عن تلك الفتاة المسكينة، غلاديس، التي انفعلت كثيراً عندما تكلم معها الطبيب، وحق لها أن تنفعل... المسكينة! أرجو أن يُشنَق ذلك الشرير جونز، وقد جعل من تلك الفتاة المسكينة قاتلة. أحسب أنهم سيشنقونها هي الأخرى... مسكينة!

قال السيد بيثيريك: أظن أنك قد أسأت فهم الموضوع قليلاً يا آنسة ماربل.

ولكن الآنسة ماربل هزت رأسها بعناد والتفتت إلى السير هنري قائلة: إنني على صواب، أليس كذلك؟ بدت القضية واضحة تماماً بالنسبة لي. ألا تعلمون أننا نسمي تلك الحبيبات الملونة التي نزيّن بها الحلوى «المئات والألوف»؟ أضيفوا إلى هذا مسألة الترايفل على العشاء. لا يمكن للمرء إغفال ذلك.

صاح ريموند: ماذا بشأن المئات والألوف والترايفل؟

- إن الخدم عادة ما يضعون تلك الحبيبات التي نسميها «المئات والألوف» على حلوى الترايفل يا عزيزي؛ تلك الحبيبات الملونة من السكّر. عندما سمعتُ أنهم تناولوا الترايفل على العشاء، وأن الزوج كان يكتب لشخصٍ ما عن المئات والألوف فإنني ربطت بين الأمرين بالطبع. هناك كان الزرنيخ... في تلك الحبيبات. تركها مع الفتاة وطلب منها أن تضعها على الترايفل.

قالت جويس بسرعة: ولكن ذلك مستحيل، فقد أكلوا جميعاً من الترايفل.

قالت الآنسة ماربل: آه، لا. لقد كانت المرافِقة تتبع نظام حمية إن كنت تذكرين، والمرء لا يأكل حلوى كالترايفل عندما يتبع نظام حمية. وأظن أن جونز اكتفى بكشط تلك الحبيبات عن حصته من الحلوى وتركها في طرف طبقه. كانت فكرة ذكية، ولكنها فكرة شريرة جداً أيضاً.

تسمرت أعين الباقين على السير هنري فقال بتمهل: أمر غريب جداً، ولكن الآنسة ماربل صدف أن أصابت كبد الحقيقة. لقد ورط جونز غلاديس، وكانت يائسة تقريباً. أراد إزاحة زوجته عن الطريق، وقد وعد غلاديس بأن يتزوجها عندما تموت زوجته. سَمَّ حبيبات السكر وأعطاها لها مع تعليمات حول كيفية استخدامها. لقد ماتت غلاديس قبل أسبوع، وقد مات مولودها عند الولادة وهجرها جونز ليذهب إلى امرأة أخرى. وعندما كانت تُحتضَر اعترفت بالحقيقة.

ساد الصمت لبضع لحظات ثم قال ريموند: حسناً يا خالة جين، هذه واحدة لصالحك. لا أعرف كيف تمكنتِ من الوصول

إلى الحقيقة؛ فما كنتُ لأفكر بالخادمة الصغيرة باعتبارها متورطة في الجريمة!

قالت الآنسة ماربل: صحيح يا عزيزي، ولكنك لا تعرف من الحياة بقدر ما أعرف. إن رجلاً من شاكلة جونز هذا يكون قاسياً وذا نزوات. فور سماعي أن فتاة جميلة كانت في البيت شعرت بالثقة بأنه لا يمكن أن يتركها لشأنها. الأمر كله مؤلم مزعج، وليس الكلام عنه بالشيء المريح. لا يمكنني أن أصف لك الصدمة التي تعرضت لها السيدة هارغريفز واللغط العظيم الذي أثاره ذلك في القرية!



الفصل الثاني
بيت عشتروت الوثني

- والآن يا دكتور بيندر، ما الذي ستقصّه علينا؟

ابتسم القس العجوز بلطف وقال: لقد أمضيت حياتي في أماكن هادئة، ولم يصادفني إلاّ القليل من الحوادث ذات الشأن. ومع ذلك فقد تعرضت ذات مرة -عندما كنت شاباً- إلى تجربة بالغة الغرابة والمأساوية.

أصدرت جويس ليمبرييه آهة تشجيع فيما استمر القس قائلاً: إنني لم أنسَ تلك التجربة أبداً؛ فقد تركت في نفسي أثراً عميقاً وقتها، بل إنه ما زال بوسعي -بجهد قليل من الذاكرة- أن أحس ثانية بخشية ورعب تلك اللحظة الفظيعة التي رأيت فيها رجلاً قُضي عليه من قبل جهة لا تبدو من الإنس.

شكا السير هنري قائلاً: إنك تجعلني أحس بالرعب يا بيندر.

قال بيندر: وقد جعلتني التجربة أحس بالرعب أيضاً كما تقول. ومنذ ذلك الحين لم أعد أضحك من الناس الذين يستخدمون كلمة

«الجو». يوجد شيء من هذا القبيل؛ فإن أماكن معينة تكون مُشبعة ومفعمة بتأثيراتٍ من الخير أو الشر، وهي تأثيرات بوسعها أن تجعل قوتها محسوسة.

علقت الآنسة ماربل قائلة: ذلك البيت المسمى لارتشيز بيت منحوس كئيب جداً؛ فقد خسر السيد سميذرز العجوز كل أمواله واضطر إلى مغادرته، ثم اشترته أسرة كارسليك فوقع جوني كارسليك من أعلى الدرج وكسر ساقه، واضطرت السيدة كارسليك للذهاب إلى جنوب فرنسا للعلاج، والآن اشترته عائلة بيردن وسمعت أن السيد بيردن المسكين مضطر لإجراء عملية جراحية دون إبطاء.

قال السيد بيثيريك: أحسب أن في هذا الموضوع الكثير من الخرافات، وقد تعرضت الكثير من العقارات إلى أضرار بالغة من تلك التقارير غير المسؤولة التي تم ترويجها.

قال السير هنري وهو يضحك: لقد عرفت واحداً أو اثنين من «الأشباح» ذوي الشخصية القوية النشيطة.

ريموند: أظن أن علينا أن نسمح للسيد بيندر بإكمال قصته.

نهضت جويس وأطفأت المصباحين تاركة ضوء النار الخافت وحده ينير الغرفة، ثم قالت: الجو... نستطيع الآن أن نمضي في القصة.

ابتسم السيد بيندر لها واستند إلى ظهر كرسيه ونزع نظارته وبدأ قصته بصوت رقيق مثقل بالذكريات: لا أدري إن كان أحدكم يعرف منطقة دارتمور، فالمكان الذي سأتكلم عنه يقع في أطرافها. كان

في ذلك المكان عقار بالغ الروعة، رغم أنه بقي لسنوات معروضاً للبيع في السوق دون أن يجد من يشتريه. ربما كان الموقع يصبح أجرد بارداً في الشتاء، ولكن المناظر كانت رائعة وكانت في البيت نفسه مواصفات غريبة فريدة. اشترى البيت رجل يدعى هايدن، السير ريتشارد هايدن. كنت قد عرفته منذ أيام دراسته في الكلية، ومع أنني لم أعد أراه لبضع سنوات إلاّ أن روابط الصداقة القديمة بيننا بقيت، وقد قبلت بكل سرور دعوته لزيارته في بيته الجديد الذي أسماه «سايْلَنْت غروف»، بمعنى: «الأيكة الصامتة».

لم يكن المشاركون في الدعوة كُثراً. كان ريتشارد هايدن نفسه هناك، وابن عمه إيليوت هايدن، وليدي تدعى الليدي مانرينغ ومعها ابنة لها شاحبة الوجه تدعى فيوليت لا يكاد المرء يشعر بوجودها، والكابتن روجرز وزوجته، وهما زوجان احترفا ركوب الخيل وسفعت بشرتهما الأنواء الجوية وقد كرسا حياتهما للخيل والصيد فقط. وكان هناك الدكتور الشاب سايموندز، بالإضافة إلى الآنسة ديانا أشلي. وقد كنت أعرف شيئاً عن تلك الأخيرة؛ فقد كانت صورتها غالباً ما تنشر في الصحف التي تعنى بأخبار المجتمع، وكانت واحدة من حسناوات الموسم المشهورات بسمعتهن السيئة. كان مظهرها حقاً ملفتاً جداً للنظر؛ فقد كانت سمراء ممشوقة القوام، وكانت عيناها السوداوان نصف المغمضتين تعطيانها مظهراً شرقياً مثيراً على نحو غريب. كما كانت ذات صوت رائع أيضاً، عميق الصدى أشبه بصوت جرس.

أدركت على الفور أن صديقي ريتشارد هايدن كان منجذباً إليها كثيراً، وخمنت أن الحفلة كلها لم يتم ترتيبها إلاّ لتكون مناسَبة

لوجودها. ولكنني لم أكن واثقاً من مشاعرها هي. فقد كانت متقلبة في ملاطفاتها، تلقاها يوماً تتحدث مع ريتشارد ولا تلقي بالاً لكل من عداه، وتراها في اليوم التالي تلاطف ابن عمه إيليوت بشكل لا تكاد تلاحظ معه وجود شخص اسمه ريتشارد، ثم تراها ثانية تلقي ابتساماتها الساحرة على الدكتور سايموندز الهادئ المنطوي.

في الصباح الذي أعقب وصولي رتب مضيفنا جولة ليرينا المنطقة كلها. لم يكن في البيت نفسه ما يثير الإعجاب، فقد كان بيتاً جيداً راسخاً قوي البنيان استُخدمت في بنائه أحجار من غرانيت منطقة ديفونشير، وكأنه بُني ليقاوم الزمن وظروف الطبيعة. لم يكن فيه شيء من الرومانسية، ولكنه كان مريحاً جداً. وكان بوسع المرء أن يرى من نوافذه منظراً عاماً للأراضي السبخة وللتلال الضخمة التي تتوّجها القمم الصخرية التي حتّتها عوامل الجو وتقلباته.

وعند منحدرات التلال باتجاهنا قامت دوائر عديدة من الأكواخ التي كانت بقايا عهد مضى يعود إلى العصر الحجري المتأخر. وعلى تلة أخرى كان قبر أثري أجريت الحفريات فيه مؤخراً، وعُثر فيه على بعض الأدوات البرونزية. كان هايدن قد بدأ اهتمامه بالأمور الأثرية، وقد تحدث عنها بكثير من الحيوية والحماسة. وقد أوضح لنا أن هذه البقعة بالذات غنية جداً ببقايا الماضي، ومضى قائلاً: كان هنا سكان الأكواخ من العصر الحجري الحديث وكهنة «الدرود» الإنكليز القدماء، والرومان، بل لقد تم العثور على بقايا من آثار الفينيقيين الأوائل. ولكن هذا المكان هو أكثر هذه المناطق أهمية. إنكم تعرفون اسمه... «الأيكة الصامتة». من السهل على المرء أن يعرف من أين جاء هذا الاسم.

ثم أشار بيده إلى الأمام. كان ذلك الجزء تحديداً من الريف عارياً إلى حد بعيد... حيث الصخور ونباتات الخلنج والسرخس، ولكن على بعد نحو مئة متر من البيت كانت أيكة أشجار كثيفة. قال هايدن: هذه من بقايا أيام بعيدة جداً. لقد ماتت الأشجار ثم أُعيدت زراعتها، ولكنها بقيت إلى حد بعيد كما كانت، ربما من زمن المستوطنين الفينيقيين. تعالوا وشاهدوها.

تبعناه جميعاً، وفيما كنا ندخل الأيكة انتابني شعور غريب بالضيق الذي يجثم على الصدر. وأظن ذلك كان بسبب الصمت المخيم. بدا أن تلك الأشجار تخلو من الطيور وأعشاشها، وكان ثمة شعور بالعزلة الكئيبة والرعب. رأيت هايدن ينظر إليّ بابتسامة غريبة، ثم ما لبث أن سألني: هل تشعر بشيء تجاه هذا المكان يا بيندر؟ أتشعر بالعدائية أم بعدم الارتياح؟

قلت له بهدوء: أنا غير مرتاح لهذا المكان.

قال هايدن: هذا من حقك تماماً؛ فقد كان هذا أحد معاقل الأعداء القدامى لدينك. هذه أيكة عشتروت.

قلت: عشتروت؟

- عشتروت أو عشتار أو عشتوريث، كائناً ما كان الاسم الذي تختاره. أنا أفضّل اسم عشتروت الفينيقي. أعتقد أن في هذا البلد أيكة واحدة معروفة باسم أيكة عشتروت... في الشمال عند السور. ليس لدي دليل ولكنني أحب أن أعتقد بأن لدينا هنا أيكة عشتروت حقيقية. هنا داخل هذه الدائرة من الأشجار الكثيفة كانت تمارَس طقوس مقدسة.

تمتمت ديانا أشلي وفي عينيها نظرة بعيدة حالمة: طقوس مقدسة، عجباً ماذا كانت طبيعتها؟

قال الكابتن روجرز بضحكة عالية لا معنى لها: لم تكن طقوساً محترمة في كل الأحوال. أظنها كانت طقوساً داعرة.

لم يُلقِ هايدن بالاً له، بل أكمل قائلاً: في وسط الأيكة هناك لا بد من وجود معبد. ليس لدي من المال ما أصرفه على المعابد، ولكنني استمتعت بفكرة صغيرة خاصة بي.

وصلنا في تلك اللحظة إلى بقعة مكشوفة صغيرة وسط الأشجار، وفي وسط تلك البقعة وُجد بناء حجري أشبه بالبيت الصيفي الذي يبنى في الحدائق لأغراض السمر. نظرت ديانا أشلي إلى هايدن متسائلة فقال: "إنني أسميه بيت الوثن، إنه بيت وثن عشتروت". ثم قادنا إليه. وفي داخل البيت، وعلى عمود أسود لم تصقله يد ماهرة استقر تمثال صغير غريب يمثل امرأة ذات قرنين مقوسين وهي تركب أسداً. قال هايدن: إنها عشتروت الفينيقيين، إلهة القمر!

صاحت ديانا: إلهة القمر! آه، دعونا نُقِم حفلاً الليلة، أقترح أن نضع ثياباً تنكرية ونأتي إلى هنا في ضوء القمر لنحتفل بطقوس عشتروت.

صدرت مني حركة مفاجئة فالتفت إليّ فجأة إيليوت هايدن ابن عم ريتشارد وقال: هذا كله لا يعجبك، أليس كذلك يا أبتِ؟

قلت متجهماً: نعم، لا يعجبني.

نظر إليّ بفضول وقال: ولكن هذا مجرد لهو غبي. لا يمكن لريتشارد أن يكون متأكداً من أن هذه حقاً أيكة مقدسة. إنها مجرد نزوة منه، فهو يحب اللهو بهذه الفكرة. وعلى كل حال إذا كانت...

- إذا كانت؟

ضحك على نحو غير مريح وقال: ماذا... لا أظنك تؤمن بوجود مثل هذه الأمور، أليس كذلك؟ أعني باعتبارك كاهناً.

قلت: لست واثقاً من أن عليّ أن لا أؤمن بذلك.

- ولكن هذه الأمور مضت وانتهت.

- لست واثقاً من ذلك. إنني أعرف ما يلي فقط: أنا لست ممن يبدون تحسساً بما يسمى «جواً»، ولكنني منذ أن دخلت أيكة الأشجار هذه شعرت بانطباع غريب وبإحساس بالشر والخطر في كل مكان حولي.

نظر حوله باضطراب وقال: نعم، إنه... إنه جو غريب على نحو ما. أعرف ما تعنيه، ولكنني أحسب أن خيالنا فقط هو الذي يجعلنا نحس بمثل هذا الإحساس. ما رأيك يا سايموندز؟

سكت الطبيب لحظات قبل أن يجيب، ثم قال بهدوء: أنا غير مرتاح لهذا الأمر. لا أستطيع تفسير ذلك، ولكنني غير مرتاح لسبب أو لآخر.

في تلك اللحظة جاءت فيوليت مانرينغ إليّ وقالت: إنني أكره هذا المكان، أكرهه. دعونا نخرج منه.

تحركنا مبتعدين ولحق بنا الآخرون. وحدها ديانا هي التي تلكأت. التفتُّ فرأيتها تقف أمام البيت وتحدق بجدية إلى التمثال داخله.

كان ذلك اليوم حاراً بشكل غير طبيعي، وقد قوبل اقتراح ديانا بإقامة حفلة تنكرية في تلك الليلة باستحسان عام. وقد جرى ما هو مألوف في مثل هذه الأجواء من ضحك وتهامس وإعداد سري محموم لملابس السهرة التنكرية، وعندما ظهرنا لتناول العشاء تعالت صيحات الفرح المعتادة. كان روجرز وزوجته قد تنكرا بزي اثنين من سكنة الأكواخ في العصر الحجري الحديث... وهو ما يفسر الاختفاء المفاجئ للبساط الذي يوضع أمام الموقد. أما ريتشارد هايدن فقد سمّى نفسه بحاراً فينيقياً، وكان ابن عمه رئيس عصابة من قطاع الطرق. وقد تنكّر الدكتور سايموندز بزي طباخ، والليدي مانرينغ بزي ممرضة، وابنتها بزي عبدة شركسية، فيما لبست أنا شخصياً ثوب راهب. وقد كانت ديانا أشلي آخر من نزل، وجعلنا تنكرها نحس جميعاً بشيء من خيبة الأمل، فقد كانت تلف على جسمها برنساً تنكرياً أسود لا شكل له. أعلنت بشكل متبجح: المجهولة، هذه أنا. والآن دعونا ندخل لتناول العشاء بالله عليكم.

بعد العشاء خرجنا إلى الخارج. كانت ليلة رائعة بدفئها ورقة جوها، وكان القمر بازغاً.

تجولنا وتبادلنا الأحاديث، ومر الوقت سريعاً. ولا بد أن ساعة كاملة قد مرت قبل أن ندرك أن ديانا لم تكن معنا. قال ريتشارد هايدن: لا يمكن أن تكون قد ذهبت للنوم.

هزت فيوليت مانرينغ رأسها بالنفي وقالت: "لقد رأيتها تذهب في ذلك الاتجاه منذ نحو ربع ساعة". وأشارت وهي تتحدث إلى أيكة الشجر التي بدت سوداء تلفها الظلال في ضوء القمر.

قال ريتشارد هايدن: عجباً، ما الذي ترمي إليه؟ أقسم أنها تخطط لعمل شيطاني. دعونا نذهب ونرى.

ذهبنا جميعاً يحدونا شيء من الفضول لمعرفة ما تخطط له ديانا. ومع ذلك فإنني شعرت بتردد غريب في دخول ذلك الحزام الأسود من الأشجار الذي ينذر بالشر. بدا أن هناك شيئاً أقوى مني يستبقيني ويحثني على عدم الدخول، شعرت بقناعة أشد تحديداً من أي وقت مضى بالشر الجوهري الكامن في تلك البقعة. وأظن أن بعضاً من الآخرين قد جربوا نفس المشاعر التي أحسست بها، رغم ترددهم في الاعتراف بها. كانت الأشجار كثيفة متشابكة إلى حدٍّ لم يكن ضوء القمر يخترقها، وكان حولنا العديد من الأصوات الخافتة، همسات وتنهدات. كان الجو مخيفاً إلى أبعد حد، وقد بقينا مجتمعين متلاصقين باتفاق الجميع.

فجأة خرجنا إلى الفسحة المكشوفة في وسط الأيكة ووقفنا جامدين من الدهشة، فقد وقف هناك -على عتبة بيت الوثن- جسد امرأة عليها إضاءة خفيفة وقد التفّ عليها بإحكام شاشٌ شفاف، وبرز من كتلة شعرها الأسود قرنان مقوسان.

صاح ريتشارد هايدن: "يا إلهي!"، وطفر العرَق على حاجبيه. أما فيوليت مانرينغ فكان ردّ فعلها أكثر حدة، فقد هتفت: إنها ديانا. ماذا فعلت بنفسها؟ آه، إنها تبدو مختلفة على نحوٍ ما!

رفع الجسد الواقف على العتبة يديه، ثم تقدم خطوة إلى الأمام وأنشد بصوت عذب عالٍ: أنا كاهنة عشتروت. احذروا من التقرب مني؛ فأنا أحمل الموت في يدي.

صاحت الليدي مانرينغ: لا تفعلي ذلك يا عزيزتي؛ لقد أرعبتِنا حقاً.

قفز هايدن إلى الأمام نحوها صائحاً: يا إلهي، ديانا! أنت رائعة.

كانت عيناي قد اعتادتا عند ذلك ضوء القمر، وبات بوسعي أن أرى بوضوح أكبر. وقد بدت -حقاً- مختلفة تماماً كما قالت فيوليت. كان وجهها قد غدا أكثر شرقيةً، وعيناها أقرب إلى شقين طوليين في التماعهما شيء من القسوة، والابتسامة الغريبة على شفتيها كانت ابتسامة لم أرها عليها أبداً من قبل. صاحت محذرة: حذار، لا تقربوا الآلهة. إن مسني أحد منكم فهو الموت.

صاح هايدن: إنك رائعة يا ديانا، ولكن كفّي عن هذا... إنني -بشكل أو بآخر- لا أرتاح لذلك.

كان يخطو على العشب باتجاهها فرفعت نحوه يدها وصاحت: توقف... خطوة واحدة أخرى وسوف أضربك بسحر عشتروت.

ضحك ريتشارد هايدن وسارع خطاه، وفجأة حدث أمر غريب؛ تردد لحظة ثم بدا أنه يترنح ثم سقط قطعة واحدة. لم ينهض ثانية، بل بقي ممدداً حيث وقع ووجهه إلى الأرض. وفجأة بدأت ديانا تضحك بشكل هستيري. وكان الصوت غريباً مرعباً يشق

سكون الليل. قفز إليوت للأمام وهو يسُبُّ صائحاً: لا أستطيع تحمل ذلك. انهض يا ريتشارد، انهض يا رجل.

ولكن ريتشارد هايدن بقي مطروحاً حيث هو. وصل إليوت هايدن إلى جانبه وجثا قربه وقَلَبَه برفق. ثم انكبّ فوقه وهو يحدق إلى وجهه. بعد ذلك نهض بحدة واقفاً وهو يترنح قليلاً وقال: دكتور، دكتور، تعال بالله عليك. أظن... أظنه مات!

ركض سايموندز للأمام فيما عاد إليوت لينضم إلينا وهو يمشي ببطء شديد. كان ينظر إلى يديه بطريقة لم أفهمها. وفي تلك اللحظة انطلقت صيحة مريعة من ديانا: "لقد قتلته، آه... يا إلهي! لم أقصد ذلك، ولكنني قتلته". ثم أغمي عليها فوراً وهوت على العشب.

صاحت السيدة روجرز قائلة: آه، دعونا نترك هذا المكان المرعب؛ يمكن أن يحدث لنا أي شيء هنا. آه، أمر فظيع!

أمسك إليوت بي من كتفي وتمتم قائلاً: هذا غير ممكن يا رجل، صدقني غير ممكن. لا يمكن لرجل أن يُقتل هكذا. إنه... إنه منافٍ للطبيعة.

حاولت تهدئته وقلت: يوجد تفسير ما، لا بد أن ابن عمك كان يعاني من ضعف لا علم له به في القلب، فالصدمة والانفعال...

قاطعني قائلاً: "أنت لا تفهمني"... ثم رفع يديه أمامي لأراها فلاحظت بقعاً حمراء عليها، ثم قال: لم يمت ريتشارد نتيجة صدمة، بل طُعن... طعن طعنة نفذت إلى القلب، ولكن ليس من سلاح!

حدقت إليه غيرَ مصدق. في تلك اللحظة نهض سايموندز من

فحصه للجثة واقترب منا. كان شاحباً يرتجف من رأسه حتى أخمص قدميه. قال: هل نحن جميعاً مجانين؟ ما هذا المكان... الذي يمكن أن تحدث به أشياء كهذه؟

قلت له: الأمر صحيح إذن؟

أومأ برأسه موافقاً وقال: الجرح من تلك الجروح التي يحدثها خنجر طويل دقيق، ولكن... ما من خنجر هناك.

نظرنا جميعاً بعضنا إلى بعض، ثم صاح إليوت: ولكن ينبغي أن يكون هناك. لا بد أنه سقط، لا بد أن يكون على الأرض في مكان ما. دعونا نبحث عنه.

بحثنا في الأرض عبثاً، ثم قالت فيوليت مانرينغ فجأة: في يد ديانا شيء؛ خنجر من نوع ما. لقد رأيته. رأيته يلمع عندما هددَتْه.

هز إليوت هايدن رأسه وقال معترضاً: ولكنه لم يقترب منها حتى ثلاثة أمتار.

كانت الليدي مانرينغ منكبة على الفتاة الممددة على وجهها على الأرض، فقالت: ليس في يدها شيء الآن، ولا أستطيع رؤية شيء على الأرض. أأنت واثقة أنك رأيتِه يا فيوليت؟ أنا لم أرَ شيئاً.

جاء الدكتور سايموندز إلى الفتاة وقال: ينبغي أن نأخذها إلى البيت. أتساعدني يا روجرز؟

تعاونا على حمل الفتاة الغائبة عن الوعي إلى البيت. ثم عدنا وأخذنا جثة السير ريتشارد.

توقف الدكتور بيندر عن سرده للأحداث معتذراً ونظر حوله إلى المجموعة قائلاً: إن معلومات المرء في هذه الأيام أفضل بكثير، وذلك بسبب انتشار القصص البوليسية. إن أي فتى جاهل يعلم الآن أن الجثة ينبغي أن تُترك حيث وجدت. ولكننا لم نكن في تلك الأيام نمتلك مثل هذه المعرفة، ولذلك أخذنا جثة ريتشارد هايدن إلى غرفة نومه في البيت الحجري المربع، وأرسلنا الخادم على الدراجة بحثاً عن الشرطة... والمسافة تبلغ نحواً من اثني عشر ميلاً.

وعندها أخذني إليوت هايدن جانباً وقال: اسمع، إنني عائد إلى الأيكة. لا بد من العثور على ذلك السلاح.

قلت مشككاً: إن كان يوجد سلاح.

أمسك بذراعي وهزها بقوة قائلاً: أنت تحمل في عقلك مثل هذه الخرافات السخيفة وتظن أن موته كان من خوارق الطبيعة. حسناً، إنني عائد إلى الأيكة لأرى.

كنت معارضاً لذهابه لسبب خفي غريب. حاولت جهدي ثنيه عن عزمه ولكن دون نتيجة. كانت مجرد فكرة تلك الدائرة الكثيفة من الأشجار مقيتة بالنسبة لي، وشعرت بنذير قوي بوقوع كارثة أخرى. ولكن إليوت كان شديد العناد. وأحسبه كان خائفاً شخصياً، ولكن ما كان ليعترف بذلك. خرج متسلحاً بعزم شديد على الوصول إلى حقيقة اللغز.

كانت ليلة مرعبة جداً، ولم يستطع أحد منا النوم، أو حتى محاولة النوم. وقد أبدى الشرطة -بعد وصولهم- عدمَ تصديقٍ للأمر كله. ولقد أبدوا رغبة قوية في استجواب الآنسة ديانا أشلي، ولكن

كان عليهم -في هذه النقطة- أن يتفاهموا مع الدكتور سايموندز، الذي رفض الفكرة رفضاً قاطعاً؛ فقد أفاقت الآنسة أشلي من غيبوبتها أو غشيتها فأعطاها دواء منوماً طويل المفعول، ولا ينبغي إزعاجها بأي شكل حتى اليوم التالي.

لم يفكر أحد بإليوت هايدن حتى بلغت الساعة السابعة صباحاً تقريباً، عندما سأل عنه فجأة الدكتور سايموندز. شرحت له ما فعله إليوت فازداد وجه سايموندز تجهماً وقال: ليته لم يفعل ذلك. إنه... إنه عمل طائش.

- أتظن أن أذى ربما أصابه؟

- أرجو أن لا يكون الأمر كذلك، ولكن أظن أن من الأفضل يا أبتِ أن نذهب كلانا ونرى.

كنت أعلم أنه محق، وقد اضطررت لاستجماع كل ما لديّ من شجاعة حتى أحمل نفسي على القيام بهذه المهمة. انطلقنا معاً ودخلنا ثانية تلك الأيكة المشؤومة. نادينا مرتين فلم نجد جواباً، وما هي إلاّ دقائق حتى وصلنا الفسحة التي بدت باهتة اللون شبحية في ضوء الصباح الباكر. أمسك سايموندز ذراعي بقوة فيما أطلقت أنا صيحة تعجب خافتة. عندما نظرنا ليلة أمس في ضوء القمر كانت هناك جثة رجل ممددة على العشب ووجهه إلى الأرض. والآن في ضوء الصباح الباكر وقعت عينانا على نفس المنظر. كان إليوت هايدن ممدداً في نفس المكان تماماً حيث كان ابن عمه. صاح سايموندز: يا إلهي! لقد نالت منه أيضاً!

ركضنا معاً على العشب. كان إليوت هايدن غائباً عن الوعي، ولكنه كان يتنفس بوهن، وفي هذه المرة لم يكن في سبب المأساة شك؛ فقد كان سلاح طويل رفيع ما يزال مغروساً في الجرح. قال الطبيب: إصابته دخلت الكتف، ولم تدخل القلب. هذا من حظه. والله لا أدري بماذا أفكر. إنه ليس ميتاً على أية حال، وسيكون قادراً على إخبارنا بما حدث.

ولكن هذا بالضبط ما لم يستطع إليوت هايدن فعله. كان وصفه لما حدث غائماً جداً. فقد بحث عبثاً عن الخنجر، ولكنه تخلى أخيراً عن البحث وأخذ لنفسه موقفاً قرب بيت الوثن. وهناك بدأ يشعر بثقة متزايدة بأن أحداً يراقبه من حزام الأشجار. وقد حاول مقاومة هذا الانطباع، ولكنه لم يستطع إخراجه من ذهنه. ثم وصف ريحاً باردة غريبة بدأت تهب. وبدا أن الريح لا تأتي من ناحية الأشجار بل من داخل بيت الوثن. استدار وحدق داخل البيت. رأى التمثال الصغير لعشتروت وشعر بأنه واقع تحت تأثير خداع بصري. إذ بدا أن التمثال أخذ يكبر ويكبر. ثم تلقّى فجأة ما بدا له أشبه بالصفعة بين صدغيه مما جعله يتراجع مترنحاً، ولدى وقوعه كان واعياً لألم حاد حارق في كتفه.

تم هذه المرة التعرف إلى الخنجر باعتباره نفس الخنجر الذي عُثر عليه في القبر الأثري على التلة، والذي اشتراه ريتشارد هايدن. وبدا أن أحداً لا يعرف إن كان قد احتفظ به في بيته أم في بيت الوثن في الأكمة.

كان الشرطة يرون (وسيبقون كذلك) أنه قد طُعن عمداً من قِبل

الآنسة أشلي، ولكن في ضوء شهادتنا المتوافقة بأنها لم تقترب منه أبداً أقل من ثلاثة أمتار لم يكن من أمل للشرطة في اتهامها. وهكذا كان الأمر لغزاً وسيبقى كذلك.

ساد الصمت الغرفة، ثم قالت جويس ليمبرييه أخيراً: ليس من شيء يقال. الأمر كله مرعب جداً... وخارق. أليس لديك تفسير يا دكتور بيندر؟

أومأ العجوز برأسه بالإيجاب وقال: نعم، لديّ تفسير؛ أي أن لدي تفسيراً من نوع ما. إنه تفسير غريب بعض الشيء ولكنني أرى أنه يخفق أيضاً في تفسير بعض العوامل.

قالت جويس: لقد حضرتُ جلسات تحضير للأرواح، ومهما كان رأيكم فإن أموراً بالغة الغرابة يمكن أن تحدث. أحسب أن بوسع المرء أن يفسرها بنوع من أنواع التنويم المغنطيسي. لقد حولت الفتاة نفسها حقاً إلى كاهنة لعشتروت، وأحسب أنها لا بد طعنته بشكل أو بآخر. ربما كانت قد رمت الخنجر الذي رأته الآنسة مانرينغ في يدها.

تدخل ريموند وست قائلاً: أو ربما كان رمحاً مما يُستخدم في لعبة رمي الرمح. فضوء القمر في نهاية الأمر ليس بتلك القوة، وربما كان لديها رمح من نوعٍ ما وطعنته به عن بعد، وعندها يأتي -كما أظن- دور التنويم المغنطيسي الجماعي. أعني أنكم كنتم جميعاً مستعدين لرؤيته وهو يُضرب من قبل قوى خارقة، ولذلك رأيتم الأمر على هذا النحو.

قال السير هنري: لقد رأيت الكثير من الألعاب العجيبة

بالأسلحة والسكاكين في احتفالات السيرك. وأظن أن من الممكن أن يكون رجل قد اختفى بين الأشجار، وربما رمى من هناك سكيناً أو خنجراً بدقة كبيرة... إذا ما اعتبرنا طبعاً أنه محترف. أعترف أن هذه الفرضية تبدو مستبعَدة، ولكنها في الواقع أكثر النظريات احتمالاً. أنتم تذكرون أن الرجل الآخر كان يحس بانطباع قوي بوجود مَن يراقبه من الأيكة. أما بالنسبة لشهادة الآنسة مانرينغ بأن الآنسة أشلي كانت تمسك بخنجر في يدها، وشهادة الآخرين بأنها لم تكن تحمل شيئاً فإن هذا لا يدهشني. فلو كانت لديكم خبرتي لعلمتم بأن من شأن شهادةٍ يدلي بها خمسة أشخاص حول نفس الموضوع أن تختلف اختلافاً يكاد يجعلها لا تُصدَّق.

تنحنح السيد بيثيريك وقال: ولكن يبدو أننا نَغفل -في كل هذه النظريات- عن حقيقة جوهرية واحدة. ماذا حدث للسلاح؟ ما كانت الآنسة أشلي لتستطيع التخلص من رمح وهي تقف هناك وسط فسحة مكشوفة. ولو أن قاتلاً مختبئاً رمى خنجراً لكان من شأن ذلك الخنجر أن يبقى في الجرح عندما قُلب الرجل على ظهره. أظن أن علينا أن نطرح جانباً كل النظريات المستبعدة ونكتفي بالحقيقة الموضوعية.

جويس: وأين تقودنا الحقيقة الموضوعية؟

السيد بيثيريك: أمر واحد يبدو واضحاً تماماً؛ لم يكن قرب الرجل أحدٌ عندما ضُرب ووقع، ولذلك فإن الشخص الوحيد الذي كان بوسعه أن يطعنه هو نفسه شخصياً. أي أنها انتحار في الحقيقة.

صاح ريموند مستغرباً: ولكن لماذا عساه يريد الانتحار؟

تنحنح المحامي ثانية وقال: آه، هذه قضية نظرية مرة أخرى،

وأنا لست مهتماً بالنظريات في الوقت الحاضر. يبدو لي -بعد استبعاد التفسير الخوارقي الذي لا أؤمن به لحظة واحدة- أن تلك هي الطريقة الوحيدة التي يمكن بموجبها أن تقع تلك الحادثة. لقد طعن نفسه، وبينما كان يقع فتح ذراعيه بقوة ساحباً الخنجر من الجرح وقاذفاً به بعيداً إلى منطقة الأشجار. هذا حدث ممكن كما أرى، رغم ضعف احتماليته.

قالت الآنسة ماربل: لا يروق لي أن أتكلم؛ فالأمر كله حيرني كثيراً في الواقع. ولكن الأمور الغريبة تحدث أحياناً؛ ففي الحفلة التي أقامتها الليدي شاربلي في حديقتها العام الماضي داس الرجل الذي كان يرتب لعبة الغولف الدائرية على إحدى العصي الصغيرة التي تحمل الأرقام. لم يكن منتبهاً أبداً... فأغمي عليه ولم يصحُ إلاّ بعد خمس دقائق.

قال ريموند وست بلطف: نعم يا خالتي العزيزة، ولكنه لم يُطعَن طعناً، أليس كذلك؟

- بالطبع لم يُطعَن يا عزيزي، وهذا ما أريد قوله. لا توجد طبعاً إلاّ طريقة واحدة يمكن أن يكون المسكين ريتشارد قد طُعن بها. ولكني أتمنى لو أعرف ما الذي جعله يترنح في البداية. ربما كان ذلك بسبب أحد الجذور طبعاً، لا بد وأنه كان ينظر إلى الفتاة، وفي ضوء القمر يدوس المرء على الأشياء دون انتباه.

قال الكاهن وهو ينظر إليها بفضول: تقولين إن طريقة واحدة كان بالإمكان اتباعها لطعن السير ريتشارد يا آنسة ماربل؟

- إنه أمر محزن جداً لا أحب التفكير فيه. لا أظنه كان أعسر، بل كان يستخدم يده اليمنى، أليس كذلك؟ أعني أنه كان يستخدم

اليمين دون شك طالما أنه طعن نفسه في الكتف اليسرى. لطالما شعرتُ بالحزن على المسكين جاك بينز أثناء الحرب؛ فقد أطلق النار على رجله -كما تذكرون- بعد نشوب قتالٍ ضارٍ في منطقة أراس وذلك ليخلّص نفسه من المعركة. وقد أخبرني بالأمر عندما ذهبت لزيارته في المستشفى، وكان يحس بالعار الشديد من فعلته تلك. لا أحسب أن ذلك الرجل المسكين، إليوت هايدن، قد استفاد كثيراً من جريمته النكراء.

صاح ريموند: إليوت هايدن؟ أتظنين أنه هو الذي فعلها؟

قالت الآنسة ماربل وقد اتسعت عيناها دهشة: لا أرى كيف يمكن لأحد غيره أن يفعلها. أعني إن كان للمرء أن ينظر إلى الحقائق -كما قال السيد بيثيريك بكثير من الحكمة- وينحّي جانباً كل ذلك الجو الذي لا أراه لطيفاً من الأساطير الوثنية. فإليوت هو أول من ذهب إليه وقلَبَه على ظهره، وحتى يقوم بذلك لا بد طبعاً أنه كان يدير ظهره لهم جميعاً، وبما أنه كان متنكراً بزي رئيس عصابة من قطّاع الطرق فلا بد أنه كان يضع سلاحاً من نوعٍ ما في حزامه. أتذكّر أنني رقصت مرة وأنا شابة مع رجل متنكر بملابس مماثلة وكان لديه خمسة أنواع من السكاكين والخناجر في حزامه، ولا يمكنكم أن تتصوروا كم كان ذلك صعباً وفظيعاً على من تراقصه.

استدارت كل الأعين إلى الدكتور بيندر فقال: لقد عرفتُ الحقيقة بعد خمس سنوات من وقوع المأساة. جاءت على شكل رسالة كتبها لي إليوت هايدن، وقال فيها إنه تخيل أنني كنت أشكّ فيه طَوال الوقت. قال إن الجريمة حدثت نتيجة إغراء مفاجئ. كان

هو الآخر يحب ديانا أشلي، ولكنه لم يكن سوى محام فقير يصارع لكسب عيشه، وقد رأى في إزاحة ريتشارد عن الطريق ووراثة لقبه وأملاكه فرصة رائعة تنفتح أمامه. كان الخنجر قد اهتز ووقع من غمده وهو يجثو فوق ابن عمه، وقبل أن يتاح له من الوقت ما يفكّر فيه بالأمر أخذ الخنجر وطعنه به وأعاده إلى حزامه من جديد، ثم طعن نفسه لاحقاً ليبعد عنه الشكوك. لقد كتب لي عشية سفره في حملة إلى القطب الجنوبي خشية أن لا يعود أبداً كما قال. ولا أظنه كان ينوي العودة، كما أعرف أنه -كما قالت الآنسة ماربل- لم يستفد شيئاً من جريمته؛ فقد كتب يقول: "لقد عشت طوال خمس سنوات كأنني في الجحيم، وإنني أرجو أخيراً أن أكفّر عن جريمتي بالموت ميتة شريفة".

ساد الصمت المجموعة كلها، ثم قال السير هنري: وقد مات ميتة شريفة بالفعل. لقد بدلتَ الأسماء في قصتك يا دكتور بيندر، ولكنني أظن أنني عرفت الرجل الذي تقصده.

تابع القس العجوز قائلاً: ولكن كما قلت، لا أظن هذا التفسير يغطي تماماً كل الحقائق. ما زلت أرى أن تأثيراً شريراً كان يسكن تلك الأيكة، وهو التأثير الذي أملى على إليوت هايدن تصرفه. وحتى هذا اليوم لا أملك إلاّ أن أرتعد عندما أفكر في بيت عشتروت الوثني!

* * *

الفصل الثالث

سبائك الذهب

قال ريموند وست: لا أدري إن كنت منصفاً في القصة التي سأرويها لكم، لأنني لا أستطيع إعطاءكم حلاً لها. ومع ذلك فإن حقائقها كانت مثيرة وغريبة إلى حدٍّ يجعلني أحب طرحها عليكم كمشكلة. وربما استطعنا الوصول فيما بيننا إلى نتيجة منطقية. لقد وقعت هذه الأحداث قبل عامين، عندما ذهبتُ لقضاء عطلة نهاية الأسبوع مع رجل يدعى جون نيومن في كورنوول.

قالت جويس ليمبرييه بحدة: كورنوول؟

- نعم، لماذا؟

- لا شيء. ولكن الأمر غريب. فقصتي هي أيضاً عن مكان في كورنوول... قرية صغيرة تعيش على صيد السمك وتدعى راثول. لا تقل لي إن قصتك عن نفس القرية؟

- لا، فقريتي اسمها بولبيران وهي تقع على الساحل الغربي لكورنوول، في منطقة موحشة وصخرية جداً. كنت قد تعرفت

إلى الرجل قبل ذلك ببضعة أسابيع ووجدته رفيقاً مثيراً جداً. كان رجلاً ذكياً مستقلاً من الناحية المالية يتملكه خيال رومانسي واسع، ومجاراةً لآخر هواية من هواياته العديدة استأجر بيتاً يدعى بول هاوس. كان الرجل حجة في مجال العصر الإليزابيثي، وقد وصف لي بلغة تصويرية تنبض بالحياة الخط الذي اتبعه أسطول الأرمادا الإسباني في محاولته غزو بريطانيا. وكان متحمساً في وصفه إلى درجة تكاد تجعل المرء يتخيله شاهد عيان لمشهد الأسطول. وإنني -لذلك- أتساءل إن كان لما يقال عن التناسخ صحة.

قالت الآنسة ماربل وهي تنظر بلطف إليه: أنت رومانسي جداً يا عزيزي ريموند.

أجابها ريموند بشيء من الانزعاج: الرومانسية آخر صفة يمكن أن تلصق بي. ولكن هذا الرجل -نيومن- كان رومانسياً حتى النخاع، وقد أثار اهتمامي لهذا السبب باعتباره أثراً غريباً باقياً من آثار الماضي. ويبدو أن سفينة معينة من سفن الأرمادا كانت معروفة باحتوائها على كنوز هائلة من الذهب كانت قادمة من البحر الإسباني فتحطمت على شاطئ كورنوول، على صخور سيربنت الغدارة الشهيرة. وقد بُذلت -كما أخبرني نيومن- العديد من المحاولات طوال سنوات لإنقاذ السفينة واستعادة الكنوز. وأظن أن مثل هذه القصص شائعة تماماً رغم أن عدد السفن الخيالية التي يُعتقد أنها تحمل كنوزاً هو أكبر بكثير من عدد السفن الحقيقية. وقد تم تأسيس شركة لهذا الغرض، ولكنها أفلست، واستطاع نيومن شراء كل حقوق ذلك الشيء -كائناً ما كان اسمه- بسعر أرخص من التراب. وقد غدا متحمساً جداً للأمر كله. كان يرى أن المسألة لا تعدو كونها مسألة تأمين المعدات العلمية

الحديثة. لقد كان الذهب هناك، ولم تكن لديه أية شكوك أبداً في إمكانية استرداده.

فكرت وأنا أصغي له كم من المرات تحدث الأمور على هذا النحو. رجل غني مثل نيومن ينجح دون أن يبذل جهداً يذكر، ومع ذلك فإن القيمة الحقيقية لما سيجده لن تعني له الشيء الكثير في أغلب الاحتمالات. وينبغي أن أعترف أن حماسته قد انتقلت إليّ. تخيلت سفناً حربية تتجول عند الشاطئ وتلعب بها العواصف ثم ترتطم بالصخور السوداء وتتحطم. كان اسم السفن الإسبانية وحده يبدو رومانسياً، وكانت عبارة «الذهب الإسباني» مثيرة للفتى الصغير كما هي بالنسبة للرجل العاقل. وفوق ذلك فقد كنت أعمل حينها في رواية كانت بعض مشاهدها في القرن السادس عشر، ورأيت أن بإمكاني الحصول من مضيفي على شيء من الصبغة المحلية الثمينة التي يمكن إضفاؤها على الرواية.

انطلقتُ من بادينغتن في صباح يوم الجمعة ذاك وأنا في أفضل معنويات، أتطلع بأمل لرحلتي تلك. كانت عربة القطار فارغة باستثناء رجل واحد جلس قبالتي في الزاوية المقابلة. كان طويلاً عسكري الهيئة، ولم أستطع التخلص من انطباع ألحّ علي بأنني قد رأيت هذا الرجل في مكان ما من قبل. حاولت التذكر جاهداً لبعض الوقت دون جدوى، ولكنني تذكرت أخيراً. كان رفيق سفري هو المفتش بادغويرث، وكنت قد التقيته عندما كنت أكتب سلسلة مقالات عن قضية اختفاء إيفرسن.

ذكّرته بنفسي، وسرعان ما انخرطنا في حديث ممتع. وعندما

أخبرته أنني ذاهب إلى بولبيران قال إن تلك مصادفة غريبة لأنه هو أيضاً كان ذاهباً إلى تلك البلدة. لم أُرِد أن أكون فضولياً، ولذا حرصت على عدم سؤاله عن سبب ذهابه إلى هناك، وبدل ذلك تحدثت عن اهتمامي أنا بذلك المكان وذكرت السفينة الإسبانية التي تحطمت. وبدا -لدهشتي- أن المفتش يعرف كل شيء عن الموضوع. فقد قال: "لاشك أنها السفينة المسماة خوان فيرنانديز... لن يكون صديقك أول الذين أغرقوا أموالهم لينتشلوا أموالاً منها. إنها فكرة رومانسية".

قلت: وربما كانت القصة كلها أسطورة، ولم تغرق أية سفينة أبداً هناك.

- آه، بلى. لقد غرقت السفينة هناك بلا شك، مع العديد من السفن الأخرى أيضاً. سوف تُدهَش لو عرفت كم من السفن تحطمت على ذلك الجزء من الساحل. والحقيقة أن هذا هو سبب ذهابي إلى هناك الآن؛ فهناك تحطمت السفينة «أوترانتو» قبل ستة أشهر.

- أتذكّر أنني قرأت عنها. وهل وقعت خسائر في الأرواح؟

- لم تقع خسائر في الأرواح، ولكن حدثت خسائر أخرى. ليس الأمر معروفاً على نطاق واسع، ولكن «أوترانتو» كانت محملة بالذهب.

قلت وأنا في غاية الاهتمام: نعم؟

- لقد وظّفنا غواصين يعملون في عمليات الانتشال بالطبع، ولكن... ضاع الذهب يا سيد وست.

قلت وأنا أحدق إليه: ضاع! كيف له أن يضيع؟

- هذا هو السؤال، لقد مزقت الصخورُ غرفةَ النفائس المصفّحة تاركة فتحة كبيرة فيها. وقد جعل ذلك دخول الغواصين إلى داخلها أمراً سهلاً، ولكنهم وجدوها فارغة. السؤال هو: «هل سُرق الذهب قبل تحطم السفينة أم بعد ذلك؟ هل كان في غرفة النفائس أصلاً؟».

- تبدو قضية غريبة.

- بل هي غريبة جداً عندما تفكر بحمولتها من الذهب؛ فهذا ليس عقداً من اللؤلؤ تستطيع دسه في جيبك. عندما تفكر كم هي ثقيلة وضخمة تلك الحمولة... عندها يبدو الأمر كله مستحيلاً. ربما وقعت عملية احتيال قبل إبحار السفينة، ولكن إن لم يكن في الأمر مثل ذلك فلا شك أن الذهب قد تم نقله في الأشهر الستة الماضية، وأنا ذاهب إلى هناك للتحقيق في الأمر.

وجدت نيومن في انتظاري في المحطة. اعتذر لي عن عدم وجود سيارته التي أرسلها إلى بلدة ترورو المجاورة لإجراء بعض التصليحات عليها، وقد استقبلني بدل ذلك بسيارة قلاب زراعية تعود لمزرعة البيت. صعدت قفزاً وجلست بجانبه، ثم قادني بحذر عبر الشوارع الضيقة لتلك القرية التي تعيش على صيد السمك. صعدنا طريقاً شديد المرتقى بالغ الانحدار، ثم عبرنا طريقاً ترابياً دائرياً لنجد أنفسنا أمام بوابة «بول هاوس» ذات الأعمدة الغرانيتية.

كان المكان ساحراً، وقد بُني فوق الصخور ليعطي إطلالة

جيدة على البحر. كانت بعض أجزائه تعود إلى ثلاثمئة عام مضت أو أربعمئة، وقد تمت إضافة جناح حديث إليه. وخلف البيت تمتد أرض زراعية تقدَّر بسبعة أو ثمانية فدانات.

قال نيومن مرحِّباً: أهلاً بك إلى بول هاوس، وإلى «رمز السفينة الذهبية». وأشار إلى حيث عُلِّق -فوق الباب الأمامي- نموذج مصغر طبق الأصل للسفينة الإسبانية وقد نشرت كل أشرعتها.

كانت ليلتي الأولى شديدة الروعة والفائدة المعرفية؛ فقد أراني مضيفي المخطوطات القديمة العائدة للسفينة خوان فيرنانديز وبسط لي خرائط أشّر عليها بخطوط من النقاط، وأخرج صوراً لأجهزة غطس حيرتني كل الحيرة.

أخبرته عن لقائي بالمفتش بادغويرث، وأبدى اهتماماً بالغاً بذلك اللقاء. قال متأملاً: غريب أمر الناس في هذا الساحل. التهريب وتحطيم البواخر يجريان في دمائهم. عندما تغرق سفينة عند ساحلهم لا يملكون إلاّ النظر إليها كغنيمة قانونية أرسلها القدر إلى جيوبهم. إن معي رجلاً هنا أحب أن تراه؛ إنه أثر ممتع من مخلفات الماضي.

أشرق اليوم التالي مشمساً صحواً. أخذني صاحبي إلى القرية وعرّفني هناك على غطاسه، ويدعى هيغينز. كان رجلاً جامد الوجه شديد التحفظ في حديثه، ولم تكن مساهماته في الحديث لتعدو كلمة واحدة من وقت لآخر. وبعد نقاش بينهما في بعض المسائل الفنية البحتة انتقلنا إلى مقهى ثري آنكورز، وقد أدى كوب ضخم من القهوة إلى شيء من الحلحلة للسان صاحبنا المهم. قال متذمراً: رجل تحرٍ يأتي من لندن... يقولون إن تلك السفينة التي غرقت هنا في

تشرين الثاني الماضي كانت تحمل كميات هائلة من الذهب. حسناً، إنها لم تكن أول سفينة تغرق، ولن تكون الأخيرة.

تدخل مالك المقهى قائلاً: هذا صحيح تماماً يا بيل هيغينز.

أجابه الرجل: أظنها كذلك يا سيد كيلفن.

نظرت بشيء من الفضول إلى مالك المقهى. كان رجلاً ذا مظهر يثير الإعجاب، أسمر البشرة وذا كتفين عريضين إلى حدٍّ غريب، وكانت عيناه محمرتين وله طريقة اختلاسية غريبة في تفادي نظرات الآخرين. وشككت بأن هذا هو الرجل الذي تكلم عنه نيومن قائلاً إنه أثر ممتع من مخلفات الماضي. قال بشيء من العدائية: لا نريد غرباء يتدخلون في هذا الساحل.

سأله نيومن وهو يبتسم: أتقصد الشرطة؟

أجاب كيلفن بشكل موحٍ: أقصد الشرطة... والآخرين. ولا تنسَ ذلك يا سيدي.

قلت ونحن نصعد التلة باتجاه البيت: أتعلم يا نيومن، إن تلك العبارة بدت لي أقرب ما تكون للتهديد؟

ضحك صديقي وقال: هراء، أنا لم أُلحِق أي ضرر بأهل المنطقة.

هززت رأسي بارتياب. كان في ذلك الرجل، كيلفن، شيءٌ شرير، وشعرت أن تفكيره يمكن أن يتخذ مسارات غريبة لا تُدرَك.

وأظن أنني أرّخت وقت شعوري بعدم الارتياح منذ تلك اللحظة. كنت قد نمت جيداً في ليلتي الأولى تلك، ولكن نومي في الليلة الثانية كان مضطرباً متقطعاً. بزغ فجر الأحد عن طقس مظلم كئيب وسماء ملبدة بالغيوم تنذر بالرعود. ولقد كنت دوماً فاشلاً في إخفاء مشاعري، وقد لاحظ نيومن التغيير لديّ فقال: ما بالك يا وست؟ إنك كتلة من الأعصاب اليوم.

- لا أدري، ولكنّ لديّ شعوراً رهيباً بنذر سوء قادمة.

- إنه الطقس.

قلت: "نعم، ربما"، ولم أقل شيئاً غير ذلك. وعند العصر خرجنا في قارب نيومن ذي المحرك، ولكن المطر هطل بقوة جعلنا نسعد بالعودة إلى البر حيث استبدلنا بملابسنا المبللة أخرى جافة. وفي تلك الأمسية ازداد شعوري بعدم الارتياح. كانت العاصفة ترغي وتزبد في الخارج، ثم أخذت تهدأ عند الساعة العاشرة تقريباً.

نظر نيومن من النافذة وقال: الجو يصحو، لن أعجب إن صارت الليلة رائعة تماماً بعد نصف ساعة... وإن أصبحت كذلك فسأخرج في نزهة أمشي فيها.

تثاءبت وقلت: إنني شديد النعاس؛ إذ لم أنم كثيراً ليلة أمس. أظنني سأنام مبكراً هذه الليلة.

وهذا ما فعلته. ففي الليلة التي سبقت لم أنم إلاّ قليلاً، أما هذه الليلة فقد نمت بعمق. ومع ذلك لم يكن نومي مريحاً؛ إذ لم أزل أشعر بضيق وبنُذُر شرٍ فظيعة. ولقد رأيت أحلاماً رهيبة حلمت فيها

بهاويات مخيفة ووديان سحيقة كنت أمشي فيها وأنا مدرك أن أية زلة قدم تعني الموت. استيقظت لأجد عقارب ساعتي تشير إلى الثامنة، وكان لدي صداع مؤلم، وأهوال أحلامي ما زالت تعكر مزاجي.

كانت تلك المشاعر من القوة بحيث أنني -عندما ذهبت إلى النافذة وفتحتها - جفلت عائداً إلى الوراء بشعور جديد من الرعب، لأن أول ما رأيته (أو ظننت أنني رأيته) كان رجلاً يحفر قبراً. وقد احتجت إلى بضع لحظات حتى أتمالك نفسي، وعندها أدركت أن حفار القبور لم يكن إلاّ بستاني نيومن، ولم يكن القبر سوى حفرة لوضع ثلاثٍ من أشجار الورد التي كانت ملقاة بجانبه تنتظر غرسها بإحكام في الأرض.

رفع البستاني عينيه فرآني، فلمس قبعته وقال: صباح الخير يا سيدي. إنه صباح جميل، أليس كذلك؟

قلت بارتياب وأنا غير قادر على نبذ اكتئاب روحي كلياً: أحسبه كذلك بالفعل.

ولكن الصباح كان بالتأكيد -كما قال البستاني- صباحاً جميلاً. كانت الشمس مشرقة والسماء زرقاء صافية تَعِدُ بطقس جميل لهذا اليوم. نزلت لتناول طعام الإفطار وأنا أصفر لحناً، ولم تكن تقيم في البيت لدى نيومن خادمات، بل كانت شقيقتان في أواسط عمريهما تعيشان في بيت ريفي قريب وتأتيانه يومياً لقضاء حاجاته البسيطة. كانت إحداهما تضع إبريق القهوة على المائدة عندما دخلتُ الغرفة.

- صباح الخير يا إليزابيث، ألم ينزل السيد نيومن بعد؟

- لعله خرج مبكراً جداً يا سيدي؛ إذ لم يكن في البيت عند وصولنا.

عاودني فوراً عدم الارتياح. كان نيومن قد نزل إلى الإفطار خلال اليومين السابقين متأخراً قليلاً، ولم أتخيله في أي وقت ممن ينهضون باكراً. ركضت وقد استبدت بي تلك النذر إلى غرفة نومه في الطابق العلوي فوجدتها فارغة، والأنكى من ذلك أن سريره كان مرتباً لم ينم فيه أحد. وقد أظهر لي بحث سريع قمت به لغرفته أمرين آخرين، فإن كان نيومن قد خرج في نزهة فلا بد أنه خرج في ثياب النوم، إذ لم تكن تلك الثياب موجودة.

تأكدت الآن أن ما أحسست به من نذر الشر كان مبرراً. لقد ذهب نيومن في نزهة كما قال، ولسبب ما لم يعد، لماذا؟ هل أصابه حادث ما؟ هل سقط عن الصخور؟ لا بد من القيام ببحث فوراً.

وخلال بضع ساعات جمعت عدداً ممن تطوعوا للمساعدة، وبحثنا معاً في كل الاتجاهات على طول المنحدرات الصخرية وعند الصخور في الأسفل، ولكننا لم نجد أثراً لنيومن.

وبعدما يئست في النهاية سعيت إلى المفتش بادغويرث الذي غدا وجهه في غاية التجهم حين أخبرته بالأمر وقال: يبدو لي وكأن في الأمر شراً. إن في هذه المنطقة بعضاً ممن لا وازع لديهم. هل رأيت كيلفن، صاحب مقهى ثري آنكورز؟

قلت له إنني رأيته فقال: أتدري أنه أمضى فترة في السجن قبل أربع سنوات؟ بتهمة الاعتداء والضرب.

- هذا لا يدهشني.

- يبدو أن الرأي العام في هذه المنطقة هو أن صديقك مغرم بدس أنفه في أمور لا تعنيه. أرجو أن لا يكون قد لحق به أذى بالغ.

استمر البحث بقوة مضاعفة. ولم تسفر جهودنا عن نتيجة إلاّ في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم. وجدنا نيومن في حفرة عميقة في إحدى زوايا أرضه نفسها. كانت يداه وقدماه مربطة بإحكام بحبل، وقد حُشر منديل في فمه وأُغلق عليه بحيث لا يستطيع الصراخ.كان منهكاً إلى أبعد حدٍّ، متألماً أشد الألم، ولكن بعد فرك رسغيه وكاحليه، وبعد شرب الكثير من العصائر، استطاع أن يروي لنا ما حدث.

فبعد أن صحا الجو، خرج في نحو الحادية عشرة في نزهته. وقد قاده الطريق إلى مكان بعيد نسبياً على طول الجرف الصخري حتى وصل إلى نقطة تُعرف عامة بمأوى المهربين، وذلك بسبب كثرة ما يوجد فيها من كهوف. وهناك لاحظ بعض الرجال يُنزلون حمولةً ما من أحد القوارب الصغيرة، فمشى نازلاً ليرى ما الذي يجري. وبدا له أن الحمولة -كائناً ما كان نوعها- كانت ثقيلة جداً، وكانت تؤخذ إلى واحدٍ من آخر الكهوف في المنطقة.

ورغم أن نيومن لم يشكّ في وجود مشكلة في الأمر، إلاّ أنه تعجب. كان قد اقترب كثيراً منهم دون أن يلحظوا وجوده، وفجأة انطلقت صيحة تحذير، وهاجمه على الفور بحاران قويان حتى أُغمي عليه. وعندما استرد وعيه ثانية وجد نفسه ممدداً في سيارة من نوعٍ ما وهي تمشي بكثير من الهزات والخبطات في اتجاه حزره على أنه

الطريق الترابي الذي يصل الساحل بالقرية. ولدهشته البالغة انعطفت الشاحنة هناك ودخلت بوابة بيته. وهناك، وبعد حديث هامس بين الرجال، أخذوه أخيراً وقذفوا به في حفرة في مكان عميق يجعل من الصعب اكتشاف المكان قبل مضي وقت طويل. ولم يستطع إعطاء أوصاف الذين اعتدوا عليه باستثناء أنهم كانوا بحارة بالتأكيد، وأنهم -كما تدل لهجتهم- من أهالي كورنوول.

اهتم المفتش بادغويرث كثيراً للأمر وصاح قائلاً: من المؤكد أنه المكان الذي أخفوا فيه الذهب. لقد تم انتشاله بطريقة أو بأخرى من حطام السفينة وخُزن في أحد الكهوف المنعزلة في مكان ما. من المعروف أننا فتشنا كل الكهوف في مأوى المهربين، وأننا ماضون الآن في تفتيش الكهوف الأبعد، ويبدو واضحاً أنهم كانوا ينقلون الحمولة ليلاً إلى أحد الكهوف التي سبق وفتشناها ولم يعد من المرجح إعادة تفتيشها. المؤسف أنهم حصلوا على ثماني عشرة ساعة على الأقل لكي يتخلصوا من الحمولة. إن كانوا قد أمسكوا بالسيد نيومن الليلة الماضية فإنني أشك في إمكانية عثورنا على شيء من الحمولة هناك الآن.

ثم سارع المفتش ليقوم ببحث جديد. وقد وجد دليلاً قاطعاً على أن الذهب قد تم تخزينه بالطريقة التي افترضها، ولكن الذهب نُقل مرة أخرى، ولم يكن من مؤشر على مخبئه الجديد. ولكن وُجد في الواقع مؤشر واحد ذكره لي المفتش صباح اليوم التالي، إذ قال: ذلك الطريق الزراعي قليل الاستخدام من قبل السيارات، وقد عثرنا في بعض الأماكن على آثار الإطارات بكل وضوح؛ إذ إن قطعة مثلثة منزوعة من أحد الإطارات تترك أثراً لا يمكن أن تخطئه

العين. وتظهر آثار ذلك الإطار وهو ذاهب إلى البوابة، ثم تظهر بشكل خفيف هنا وهناك وهو خارج من البوابة الأخرى، ولذلك لا يوجد شك كبير بأن هذه المركبة هي ما نبحث عنه. فلماذا تخرج السيارة من البوابة البعيدة الأخرى؟ يبدو واضحاً تماماً بالنسبة لي أن تلك الشاحنة قد جاءت من القرية.. ولا يمتلك أكثر من اثنين أو ثلاثة في أبعد تقدير شاحنة في القرية. وكيلفن، صاحب مقهى ثري آنكورز، يمتلك واحدة.

سأل نيومن: ما هي مهنة كيلفن الأصلية؟

أجاب المفتش: غريب أن تسألني ذلك يا سيد نيومن، فقد كان كيلفن في شبابه غطاساً محترفاً.

تبادلنا أنا ونيومن النظرات. بدا وكأن خيوط اللغز قد بدأت تتجمع واحداً واحداً، وسأله المفتش: ألم تميز كيلفن كواحد من الرجال على الشاطئ؟

هز نيومن رأسه بالنفي وقال بأسف: أخشى أن لا أستطيع الجزم في هذا الأمر؛ لم يُتح لي في الواقع الوقت لأرى شيئاً.

تلطف المفتش وسمح لي بمرافقته إلى مقهى ثري آنكورز. كان موقف السيارات التابع للمقهى في شارع جانبي، وكانت أبوابه الرئيسية مغلقة، ولكننا وجدنا في ممر جانبي ضيق باباً صغيراً يفضي إلى الموقف، وكان الباب مفتوحاً. قام المفتش بفحص سريع جداً للإطارات كان كافياً لإقناعه، إذ هتف قائلاً: لقد نلنا منه والله! ها هي

العلامة واضحة على الإطار الأيسر. والآن يا سيد كيلفن.. لا أظنك من الذكاء بحيث تفلت من هذا الدليل.

توقف ريموند وست عن سرد قصته، فقالت جويس: حسناً، وماذا بعد؟ لا أرى حتى الآن من مشكلة... إلاّ إذا كانوا قد فشلوا في العثور على الذهب.

أجابها ريموند: لم يجدوا الذهب بالتأكيد، ولكنهم لم ينالوا من كيلفن أيضاً. أظنه كان أذكى من أن يستطيعوا النيل منه، ولكنني لا أدري تماماً كيف تدبر أمر ذلك. لقد قاموا باعتقاله حسب الأصول بسبب دليل الإطار، ولكن برزت عقبة غريبة جداً. ففي الطرف المقابل تماماً لباب الموقف الرئيسي كان يوجد بيت استأجرته فنانة لقضاء فترة الصيف.

قالت جويس ضاحكة: يا لهؤلاء الفنانات!

- نعم، كما تقولين، "يالهؤلاء الفنانات!". هذه الفنانة تحديداً كانت مريضة منذ عدة أسابيع، وكانت لديها ممرضتان تسهران عليها. وكانت الممرضة المناوبة ليلاً قد وضعت كرسيها أمام النافذة في تلك الليلة، وقد صرحت بأنه لم يكن من الممكن أن تخرج الشاحنة من الموقف المقابل للنافذة دون أن تراها، وقد أقسَمَتْ أن الشاحنة لم تغادر أبداً في تلك الليلة.

جويس: لا أرى في ذلك مشكلة كبرى... لا بد أن الممرضة نامت، فهذا دأب الممرضات.

تدخل السيد بيثيريك قائلاً كمن يُصدر حكماً: الحقيقة أن مثل

ذلك من الممرضات أمر معروف. ولكن يبدو لي أننا نتقبل الحقائق دون تمحيص كافٍ، فقبل أن نتقبل شهادة الممرضة ينبغي أن نتحرى بدقة وضعها وأوراقها؛ لأن شهادات التبرئة التي تأتي بمثل هذه السرعة والجاهزية تثير الشكوك في عقل المرء.

ريموند وست: توجد أيضاً شهادة الفنانة نفسها. إذ قالت إنها كانت موجعة ولم تنم معظم الليل، وإنها كانت ستسمع بالتأكيد صوت الشاحنة باعتباره صوتاً غير طبيعي، وباعتبار الهدوء الذي أعقب العاصفة في تلك الليلة.

همهم الكاهن وقال: هذه بالتأكيد حقيقة إضافية. وهل كان لدى كيلفن شخصياً أي عذر غياب عن مسرح الأحداث؟

ريموند: صرح بأنه كان في منزله نائماً منذ الساعة العاشرة، ولكنه لم يستطع تقديم شهود يؤكدون هذه الأقوال.

قالت جويس: لقد غلب النوم الممرضة، وغلب المريضة أيضاً. المرضى يظنون دوماً أنهم لم يناموا لحظة واحدة من الليل.

نظر ريموند وست متسائلاً إلى الدكتور بيندر فقال الأخير: إنني أحس بشفقة شديدة على ذلك الرجل كيلفن؛ فصاحب السابقة سرعان ما يتهمه الناس، وقد كان مسجوناً. فإذا ما استثنينا تلك العلامة في الإطار -وهي تبدو بالتأكيد أبرز من أن تُعتبر مصادفة- لا نرى غير ذلك الكثير مما يؤخذ عليه باستثناء ماضيه البائس.

ريموند: وأنت يا سير هنري؟

هز السير هنري رأسه وقال وهو يبتسم: الحقيقة أنني أعرف شيئاً عن هذه القضية، وهكذا فلا ينبغي لي الكلام كما اتفقنا.

ريموند: حسناً، هيا يا خالتي جين، أليس لديك ما تقولينه؟

قالت الآنسة ماربل: لحظة يا عزيزي، أخشى أنني أسأت عدّ الغرزات. غرزتان التفافيتان فثلاث عادية ثم نترك فراغاً... نعم، هذا صحيح. ما الذي قلتَه يا عزيزي؟

- ما هو رأيك؟

- لن يعجبك رأيي يا عزيزي؛ فقد لاحظت أن الشباب لا تعجبهم آراؤنا أبداً. من الأفضل أن لا أقول شيئاً.

- هراء يا خالة جين، هيا قولي رأيك.

وضعت الآنسة ماربل الصوف الذي تحوكه ونظرت إلى ابن أختها وقالت: حسناً يا ريموند. أظن حقاً أن عليك أن تكون أكثر حرصاً في كيفية اختيار أصدقائك؛ فأنت سريع التصديق بالغ السذاجة يسهل خداعك، وأظن ذلك بسبب كونك كاتباً وامتلاكك للكثير من الخيال. ما بال كل تلك القصة عن السفينة الإسبانية! لو كنتَ أكبر سناً وأكثر تجربة لكنتَ احترستَ في الحالَ. خاصة وأنك لم تعرف الرجل إلاّ من بضعة أسابيع أيضاً!

أطلق السير هنري -فجأة- ضحكة هائلة مدوية وصفق على ركبته وقال: لقد غَلَبَتْك هذه المرة يا ريموند. أنت رائعة يا آنسة ماربل! إن لصاحبكَ نيومن -يا بني- اسماً آخر... بل عدة أسماء أخرى في الحقيقة، وهو ليس في كورنوول في الوقت الحاضر بل

في ديفونشير، وفي دارتمور على وجه الدقة، سجين في سجن برينستاون. ونحن لم نعتقله بسبب قضية سبائك الذهب ولكن بسبب سرقته للغرفة المحصنة لأحد مصارف لندن، وعندها بحثنا في سوابقه فوجدنا جزءاً كبيراً من الذهب المسروق مدفوناً في حديقة بيته. كانت فكرة ذكية نوعاً ما؛ فعلى طول ذلك الساحل في كورنوول تنتشر قصص السفن التي تحطمت ممتلئة بالذهب، وهذه القصص تبرر وجود غطاس، ومن شأنها لاحقاً تبرير وجود الذهب. ولكن كانت الحاجة لكبش فداء ماسّة، وكان كيلفن مثالياً لهذا الغرض. وقد لعب نيومن دوره بشكل جيد جداً، وجاء صديقنا ريموند -بشهرته كاتباً- ليقف لصالحه شاهداً لا يمكن التشكيك فيه.

اعترضت جويس قائلة: ولكن ماذا عن آثار الإطار؟

الآنسة ماربل: آه، لقد أدركتُ ذلك على الفور يا عزيزتي رغم أنني لا أعرف شيئاً عن الشاحنات؛ فالناس يبدلون الإطارات... لطالما شاهدتهم يبدلونها، وكان ممكناً -بالطبع- نزع أحد الإطارات عن شاحنة كيلفن وإخراجه من الباب الصغير إلى الزقاق الجانبي، ومن ثم تركيبه على شاحنة السيد نيومن وإخراجها من إحدى بوابات بيته والذهاب بها إلى الشاطئ، وهناك يمكن تحميلها بالذهب وإدخالها ثانية من بوابة أخرى، وبعدها لا شك أنهم أعادوا الإطار وركّبوه على شاحنة كيلفن بينما كان أحدهم -فيما أظن- يوثق السيد نيومن في حفرة. لا شك أن ذلك كان مزعجاً بالنسبة له، واستغرق العثور عليه فترة أطول مما توقع. وأظن أن الرجل الذي سمّى نفسه بستانياً هو الذي تولى ذلك الجانب من الموضوع.

سألها ريموند وست بفضول: لماذا تقولين «سمّى نفسه بستانياً» يا خالة جين؟

- لأنه لا يمكن أن يكون بستانياً حقيقياً، ألا ترى ذلك؟ فالبستاني الحقيقي لا يعمل أيام الآحاد. كلنا نعرف ذلك.

ثم ابتسمت ولفّت حياكتها ونظرت إلى ريموند قائلة: كانت تلك هي الحقيقة الصغيرة التي وضعت قدمي على أول الطريق. عندما تصبح رب أسرة يا عزيزي وتكون لك حديقتك الخاصة... ستعرف عندها هذه الأمور الصغيرة.



الفصل الرابع
الرصيف الملطّخ بالدماء

قالت جويس: أمر غريب، ولكني لا أكاد أحب أن أقص عليكم قصتي. لقد حدثت قبل وقت طويل... قبل خمس سنوات على وجه التحديد، ولكنني بقيت مسكونة بهاجسها منذ ذلك الحين. الجزء الأول الزاهي من القصة... والفظاعة الخفية فيما دون ذلك. والأمر الغريب هو أن اللوحة التي رسمتها آنذاك قد اصطبغت بنفس ذلك الجو؛ فعندما تنظر إليها للوهلة الأولى تراها مجرد تخطيط عام لشارع صغير شديد الانحدار من شوارع كورنوول تغطيه أشعة الشمس. ولكن إذا ما أمعنت النظر بها طويلاً يبدأ شيء شرير ما في الظهور. لم أبعها أبداً، ولكنني لم أنظر إليها أبداً أيضاً. فهي ملقاة في المرسم عند إحدى الزوايا ووجهها للحائط.

كان اسم المكان راثول، وهي قرية صغيرة غريبة من قرى كورنوول تعيش على صيد السمك ذات مناظر جميلة، بل ربما كانت أكثر جمالاً من المعتاد. كان في القرية جو يوحي بالعالم القديم الرائع، وفيها محلات تعمل فيها فتيات ذوات شعور قصيرة

يرتدين تلك الأثواب الفضفاضة ويرسمن شعارات وجملاً مأثورة على الجلود المدبوغة. قرية جميلة وفريدة.

دمدم ريموند وست موافقاً: نعم، أعرف. يذكرني ذلك بلعنة تلك العرباتْ القديمة، فبغض النظر عن حال الطرق التي تنحدر إلى تلك القرى الجميلة، إلاّ أن أياً منها لا يكون الوصول إليه آمناً.

أومأت جويس برأسها قائلة: كانت الطرق الترابية التي تنحدر إلى راثول ضيقة شديدة الانحدار، أشبه بأسطح المنازل المائلة. ولكن دعني أكمل قصتي.. كنت قد ذهبت إلى كورنوول لقضاء أسبوعين لرسم المناظر الطبيعية. وهناك في راثول نُزُل قديم يُدعى بولهارويذ آرمز. ويُفترض أن هذا النزل هو البيت الوحيد الذي بقي قائماً بعد أن أمطر الإسبان القرية بالقذائف في نحو عام ألف وخمسمئة.

قاطعها ريموند وست متجهماً: لم يمطروها بالقذائف، حاولي أن تكوني دقيقة تاريخياً يا جويس.

- حسناً، لقد أنزلوا مدافع في مكان ما على طول الشاطئ وأطلقوها فسقطت البيوت. ليس هذا بيت القصيد على أية حال. كان النزل بيتاً قديماً رائعاً أمامه شيء أشبه بالرواق الذي بني على أربعة أعمدة. أخذت لنفسي موقعاً رائعاً، وكنت قد بدأت لتوي أستعد للعمل عندما جاءت سيارة تزحف وتلتف منحدرة من أعلى الهضبة. كانت ستقف بالطبع أمام النزل، في مكان كان مفسداً تماماً للمنظر الذي أردت رسمه. خرج راكبا السيارة، وكانا رجلاً وامرأة. لم ألاحظهما بشكل خاص، وكانت المرأة ترتدي ثوباً بنفسجياً وقبعة بنفسجية أيضاً.

وسرعان ما خرج الرجل ثانية وقاد السيارة -مع امتناني- إلى الزقاق أسفل منا وتركها هناك، ثم عاد ماشياً ليجتازني باتجاه النزل. وفي تلك اللحظة بالذات جاءت سيارة مزعجة أخرى تلتف نزولاً، وخرجت منها امرأة تلبس ثوباً ذا لون قرمزي صارخ لم أرَ أبداً مثله، وكانت تضع واحدة من تلك القبعات الضخمة المحلية المصنوعة من القش... ولونها قرمزي فاقع أيضاً.

لم تقف هذه المرأة أمام النزل، بل قادت السيارة نزولاً حتى أوقفتها قرب السيارة الأخرى. ثم خرجت من السيارة، ورآها الرجل فأطلق صيحة دهشة قائلاً: "كارول! يا لها من مفاجأة غريبة أن ألتقيك في هذه البقعة المعزولة. لم أرك منذ سنوات. مرحباً، تلك هي مارغري... زوجتي. ينبغي أن تأتي لتتعرفي عليها".

ثم صعدا الطريق نحو النزل وهما يمشيان معاً، ورأيت المرأة الأخرى تخرج لتوها من النزل وتتجه إليهما. كنت قد لمحت المرأة المسماة كارول لمحة بسيطة وهي تعبر أمامي، وكانت لمحة تكفي لرؤية ذقن شديد البياض تعلوه المساحيق وفم تلون بالحمرة القرمزية. وعجبتُ وتساءلت... تساءلت فقط إن كانت مارغري ستُسر كثيراً بالتعرف إلى هذه المرأة. لم أكن قد رأيت مارغري عن قرب، ولكنها بدت عن بعد متأنقة شديدة الدقة، بالغة الحشمة والاحترام.

لم يكن الأمر يعنيني بالطبع، ولكن المرء تأتيه أحياناً ومضات للحياة غريبة جداً، ولا يملك إلاّ أن يتأمل فيها. ومن حيث كان الثلاثة يقفون كنت أستطيع سماع مقاطع من حديثهم الذي تناهى إليّ. كانوا يتحدثون عن النزول إلى البحر، وأراد الزوج -الذي بدا

أن اسمه دينيس- أن يأخذوا قارباً ويجدفوا به حول الشاطئ؛ إذ كان هناك -كما قال- كهف شهير على بعد نحو ميل يستحق المشاهدة. وقد أرادت كارول أيضاً رؤية الكهف ولكنها اقترحت عليهم السير بمحاذاة الجرف الصخري ورؤية الكهف من جانب البر؛ وقالت إنها تكره القوارب. وفي النهاية اتفقوا على أن تذهب كارول براً بمحاذاة الجرف الصخري ويأخذ دينيس ومارغري القارب بحيث يلتقون جميعاً هناك عند الكهف.

جعلني حديثهم عن النزول إلى البحر أرغب أنا أيضاً بالنزول؛ فقد كان الصباح شديد الحرارة، ولم أكن أقوم بعمل مميز في الرسم، كما أنني تخيلت أن أشعة شمس العصر ستكون أكثر روعة بكثير. وهكذا جمعت حاجياتي وذهبت إلى جزء صغير من الشاطئ أعرفه، بل يكاد يكون أحد اكتشافاتي... وكان في الجانب المقابل تماماً للكهف. مارست قليلاً من السباحة الممتعة هناك، ثم تغذيت بعض المعلبات، وعدت عصراً وأنا ممتلئة ثقة وحماسةً للمضي في رسمي.

بدت قرية راثول كلها نائمة. وقد كنت محقة فيما يخص أشعة شمس العصر، فقد كانت الظلال أكثر إيحاءً بكثير. كان نزل بولهارويذ آرمز النقطة الرئيسية في لوحتي، وقد جاء شعاع من ضوء الشمس ليسقط بشكل مائل على الأرض أمام النزل تاركاً تأثيراً غريباً. وأدركت أن المجموعة التي نزلت البحر قد عادت بسلام، لأن ثوبين من ثياب السباحة كانا معلقين على الشرفة ليجفا في الشمس، أحدهما قرمزي والآخر أزرق غامق.

حدث خطأ في إحدى زوايا لوحتي فانكببت عليها بضع دقائق

لأصلح ما فسد منها، وعندما رفعت نظري ثانية رأيت رجلاً يتكئ على أحد الأعمدة أمام النزل وكأنه ظهر هناك من عدم. كان ذا لحية طويلة سوداء ويرتدي زياً بحرياً كأنه صياد سمك، ولو أنني كنت أبحث عن نموذج لقبطان إسباني شرير لما استطعت تخيل رجل أقرب منه لذلك. شرعت بالرسم بسرعة محمومة خشية أن يذهب، مع أن موقفه كان يوحي بأنه مستعد تماماً لإسناد تلك الأعمدة إلى الأبد.

وقد تحرك بالفعل، ولكنه لم يتحرك -لحسن الحظ- إلاّ بعدما حصلت على ما أريد. جاء إليّ وبدأ يتكلم، ويا للطريقة التي تكلم بها ذلك الرجل. قال: إن راثول مكان مثير جداً.

كنت أعرف ذلك بالفعل، ورغم أنني قلت له ذلك إلاّ أن قولي لم ينقذني من حديثه. سرد عليّ التاريخ الكامل لقصف القرية، أعني تدميرها... وكيف أن مالك ذلك النزل كان آخر من قُتل، إذ طعنه قبطان إسباني بسيفه على عتبة النزل، وكيف تدفق دمه على الرصيف ولم يستطع أحد غسل بقعة الدم وإزالتها لمدة مئة عام.

كان ذلك كله يتناسب تماماً مع الشعور الكسول الناعس لهذا الوقت من العصر. كان صوت الرجل بالغ الهدوء والأدب، ومع ذلك كان في طيات صوته -في نفس الوقت- شيء مخيف ما. ورغم ما اتسم به سلوكه من خنوع فقد شعرت أنه قاسٍ من الداخل. جعلني الرجل أفهم محاكم التفتيش والفظائع التي ارتكبها الإسبان أفضل مما فهمتها من قبل.

وطوال حديثه كنت ماضية في الرسم، وفجأة أدركت بأنني وضعت في لوحتي -في غمرة انفعالي بالإصغاء إلى قصته- شيئاً لم

يكن هناك. فعلى ذلك المربع الأبيض من الرصيف حيث أسقطت الشمس أشعتها أمام عتبة باب النزل وضعتُ في لوحتي بقع دماء. بدا من الغريب جداً أن يمارس العقل مثل هذه الحيل مع اليد، ولكن عندما نظرت باتجاه النزل مرة أخرى تلقيت صدمة؛ إذ أن يدي لم ترسم إلاّ ما وقعت عليه عيناي... قطرات من الدم على الرصيف الأبيض!

حدقت بضع لحظات، ثم أغلقت عيني وقلت لنفسي: "لا تكوني بمثل هذا السخف، فما من شيء هنا في الواقع". ثم فتحتهما ثانية، ولكن بقع الدم كانت باقية هناك.

شعرت فجأة بأنني لا أستطيع تحمل ذلك، فقطعت استرسال صياد السمك في حديثه قائلة: أخبرني من فضلك، فنظري ليس بتلك القوة. أتلك بقع دم على ذلك الرصيف هناك؟

نظر إليّ بمحبة ولطف وقال: لا توجد بقع دم في هذه الأيام يا سيدتي. إن ما أخبرك عنه حدث قبل نحو خمسمئة سنة.

قلت له: "نعم، ولكني أقصد الآن... على ذلك الرصيف". ثم تلاشت الكلمات في حنجرتي. عرفت... عرفت أنه لن يرى ما كنت أراه. نهضت وأخذت أجمع حاجياتي بيدين مرتجفتين. وبينما كنت أقوم بذلك خرج من باب النزل ذلك الشاب الذي سبق له أن أتى بالسيارة في ذلك الصباح، ثم نظر يمنة ويسرة إلى الشارع بِحيرة، وعلى الشرفة فوقه خرجت زوجته وجمعت ثياب السباحة. مشى باتجاه السيارة ثم التفت فجأة وجاء إلى الصياد وقال له: أخبرني أيها الرجل، ألا تدري إن كانت المرأة التي أتت في السيارة الأخرى هناك قد عادت؟

- المرأة التي ترتدي ثوباً كله نقوش أزهار؟ كلا يا سيدي، لم أرها. ذهبت بمحاذاة الجرف الصخري إلى ذلك الكهف صباح اليوم.

- أعرف، أعرف. لقد سبحنا هناك معاً، ثم تركتنا لتعود مشياً إلى النزل ولم أرها منذ ذلك الحين. لا يمكن أن يستغرق الطريق كل هذا الوقت. لا أحسب الصخور خطيرة في هذه المنطقة، أليس كذلك؟

- هذا يعتمد يا سيدي على الطريق الذي تسلكه. الأفضل أن يصحب المرء معه رجلاً يعرف المنطقة.

كان واضحاً أنه يعني نفسه، وقد أوشك أن يسترسل في هذا الموضوع ولكن الشاب قاطعه دون كبير احتفاء وهرع باتجاه النزل وهو ينادي زوجته على الشرفة قائلاً: كارول لم تعد بعد يا مارغري. أمر غريب، أليس كذلك؟

لم أسمع جواب مارغري، ولكن زوجها مضى قائلاً: حسناً، لا نستطيع الانتظار أكثر من ذلك؛ فعلينا أن نواصل سيرنا إلى بينريثار. هل أنت جاهزة؟ سأشغل السيارة.

ثم قام بتشغيل السيارة، وسرعان ما انطلق الاثنان فيها معاً. في تلك الأثناء كنت أشجع نفسي على إثبات مدى سخف تخيلاتي. وعندما غادرت السيارة ذهبتُ إلى النزل وتفحصت الرصيف بدقة، ولم تكن عليه بالطبع بقع دم. كلا، كان ذلك كله نتيجة خيالي. ومع ذلك بدا الأمر وكأنه يجعل المسألة أكثر إثارة للخوف. وبينما كنت واقفة هناك جاءني صوت الصياد (وكان ينظر إليّ بشكل غريب): لقد ظننتِ أنك رأيت هنا بقع دمٍ يا سيدتي، أليس كذلك؟

أومأت برأسي بالإيجاب فقال: هذا غريب جداً، غريب جداً. إن لدينا خرافة هنا يا سيدتي؛ إذا ما رأى أحد بقع الدم تلك...

ثم توقف فقلت له: نعم، ماذا يحدث؟

تابع بصوته الرقيق الذي تدل نبرته على أنه من كورنوول، ولكن في لفظه -لاشعورياً- انسيابية وأرستقراطية تخلو تماماً من القفلات الكلامية لأهل كورنوول: يقولون يا سيدتي إنه لو قُدِّر لأحدٍ أن يرى تلك البقع من الدم هناك فسوف يقع موتٌ خلال أربع وعشرين ساعة.

يا له من أمر مرعب! لقد أثار فيّ خوفاً تغلغل في داخلي. ولكنه تابع يقول بإقناع: يوجد -يا سيدتي- حجر قديم مثير جداً في الكنيسة يحكي قصة موت...

قاطعته بشكل حاسم قائلة: كلا، شكراً.

ثم التفتُّ بحدة وعدت أدراجي إلى البيت الصغير الذي أقيم فيه. وعندما وصلت هناك رأيت عن بعد المرأة المسماة كارول آتية من ناحية الجرف الصخري. وعلى خلفية الصخور الرمادية بدت المرأة أشبه بزهرة قرمزية سامة، كانت قبعتها بلون الدم.

نفضت عن نفسي تلك الأفكار. لا بد أن في عقلي دماً يطالعني أينما نظرت. سمعت لاحقاً صوت سيارتها، وتساءلتُ إن كانت هي الأخرى ذاهبة إلى بينريثار، ولكنها استقلت الطريق الأيسر في الاتجاه المعاكس. راقبت السيارة وهي تزحف صاعدةً التلة ثم تختفي، ولأمرٍ ما تنفست بشكل أكثر راحة، فقد عادت

قرية راثول لتبدو على حقيقتها الهادئة الناعسة مرة أخرى.

توقفت جويس عن سرد القصة فقال ريموند وست: إن كان هذا كل شيء فسأعطيك حكمي فوراً؛ فقد كنت تعانين من سوء هضم، إذ تتخيل العين رؤية بقع بعد الطعام.

- لم أكمل قصتي بعد. عليك أن تسمع بقيتها؛ فقد قرأتها في الصحف بعد يومين من ذلك تحت عنوان «مأساة تسبّبها السباحة». ويشرح الخبر كيف غرقت السيدة داكر، زوجة الكابتن دينيس داكر، بشكل مؤسف في منطقة لانديز كوف، على بعد بسيط منا. كان الزوجان يقيمان وقتها في الفندق هناك، وقد أعربا عن نيتهما الذهاب للسباحة، ولكن ريحاً باردة هبت. وقد أعلن الكابتن داكر أن الجو أصبح بارداً، وهكذا ذهب مع بعض المقيمين في الفندق إلى ملاعب الغولف القريبة. أما السيدة داكر فقد قالت إن الجو ليس بارداً جداً بالنسبة إليها وذهبت بمفردها إلى البحر. وحين لم تعد قلق زوجها وذهب برفقة أصدقائه إلى الشاطئ، فوجدوا ملابسها قرب إحدى الصخور، ولكنهم لم يجدوا أثراً للمرأة المسكينة. ولم يتم العثور على جثتها إلاّ بعد مضي نحو أسبوع بعد أن جرفها الماء إلى الشاطئ في نقطة تبعد قليلاً عن المكان الذي وُجدت فيه ملابسها. وقد كانت في رأسها ضربة بالغة حدثت قبل الوفاة، وكان تبرير ذلك أنها قفزت -دون شك- إلى الماء فارتطم رأسها بصخرة. ووفقاً لما استطعت تخمينه فإن موتها قد حدث بعد أربع وعشرين ساعة تماماً من رؤيتي لبقع الدم.

هتف السير هنري قائلاً: إنني أحتج، فهذه ليست لغزاً، بل

قصة أشباح. لا بد أن الآنسة ليمبرييه وسيطة روحية.

أطلق السيد بيثيريك نحنحته الاستهلالية المعتادة وقال: نقطة واحدة لفتت انتباهي، وهي تلك الضربة على الرأس. علينا -طبعاً- أن لا نستبعد حدوث اعتداء ما.. ولكنني لا أرى لدينا أية معلومات ننطلق منها. إن ما رأته الآنسة ليمبرييه -هلوسةً كان أو خيالاً- هو أمرٌ يستحق الاهتمام بالتأكيد، ولكنني لا أرى بوضوح النقطة التي تريد منا جويس إصدار حكم عليها.

ريموند: إنه سوء الهضم والمصادفة، وأنتِ لا تستطيعين الجزم -على أية حال- بأنهما كانا نفس الزوجين. وفوق ذلك فإن اللعنة المزعومة في رؤية الدم ما كانت لتنطبق إلاّ على السكان الفعليين لقرية راثول.

السير هنري: أشعر أن لذلك الصياد الشرير علاقة بهذه القضية. ولكنني أتفق مع السيد بيثيريك، فالآنسة ليمبرييه لم تعطنا إلاّ القليل من المعلومات.

التفتت جويس إلى الدكتور بيندر الذي هز رأسه وقال: إنها قصة ممتعة جداً، ولكنني أميل للاتفاق مع السير هنري والسيد بيثيريك بأنه ليس لدينا إلاّ القليل من المعلومات التي يمكن الانطلاق منها.

نظرت جويس أخيراً بفضول إلى الآنسة ماربل التي ابتسمت لها وقالت: أنا -أيضاً- أظن أنك كنت غير منصفة قليلاً يا عزيزتي جويس. الأمر مختلف طبعاً بالنسبة إلي؛ أعني أننا -كوننا نساء- نقدّر مسألة الملابس، ولكني لا أظن من الإنصاف طرح لغز كهذا

على الرجال. لا بد أن الأمر انطوى على الكثير من التبديل السريع للملابس. يا لتلك المرأة الشريرة! وكذلك الرجل الأكثر شراً.

حدقت جويس إليها وقالت: خالة جين! أعني... آنسة ماربل... أظن... أظن حقاً أنك تعرفين الحقيقة.

الآنسة ماربل: حسناً يا عزيزتي، إن ذلك أسهل عليّ بكثير ممّا كان عليك أنت، وأنا التي أجلس بهدوء هنا... ولأنك -كونك فنانة- أكثر تأثراً بالأجواء الخيالية، أليس كذلك؟ لا شك أن جلوسي هنا مع حياكتي يجعلني لا أرى إلاّ الحقائق المجردة فحسب. لقد تساقطت قطرات الدم على الرصيف من ثياب السباحة المعلقة فوقه، وبما أن ثوب السباحة نفسه كان أحمر فإن المجرمَيْن لم يدركا أنه ملطخ بالدم. مسكينة تلك الفتاة، يا لها من مسكينة!

قال السير هنري: اعذريني يا آنسة ماربل، ولكنك تعرفين أنني ما زلت لا أفهم شيئاً. يبدو أنك والآنسة ليمبرييه تعلمان ما الذي تتحدثان عنه، ولكننا -نحن الرجال- ما نزال في حيرة من أمرنا.

جويس: سأخبركم بنهاية القصة الآن، وقد كان ذلك بعد سنة من تجربتي تلك. كنت في مصيف صغير على الساحل الشرقي، وكنت أرسم عندما انتابني ذلك الشعور الغريب الذي يحسه المرء إذ يرى أن شيئاً ما قد حدث له من قبل. كان أمامي شخصان، رجل وامرأة، على الرصيف، وكانا يحييان امرأة أخرى ترتدي ثوباً قرمزياً فاقعاً، وسمعت: "كارول، يا لها من مفاجأة غريبة أن ألتقيك بعد كل هذه السنين! ألا تعرفين زوجتي؟ أقدم لك -يا جوان- واحدة من صديقاتي القديمات، الآنسة هاردينغ".

ميزتُ الرجل على الفور؛ كان نفس الرجل المدعو دينيس الذي قابلته في راثول. أما الزوجة فكانت مختلفة... أي أنها كانت جوان بدلاً من مارغري، ولكنها كانت من نفس النوع، صغيرة السن متأنقة لا تلفت الأنظار. ظننت -للحظةٍ- أنني بدأت أُجن، ثم بدؤوا بالحديث عن الذهاب للسباحة. وسأقول لكم ما فعلت. ذهبت فوراً إلى مركز الشرطة، ولقد ظننت أنهم سيحسبونني مجنونة ولكني لم أهتم لذلك. والحقيقة أن كل شيء مضى بشكل جيد. كان في المركز رجل من سكوتلانديارد وقد حضر إلى هناك لنفس هذا الأمر. آه، من الفظيع الحديث في هذا الأمر، ولكن يبدو أن الشكوك كانت تخامر الشرطة بشأن دينيس داكر. ولم يكن ذلك هو اسمه الحقيقي؛ فقد كان ينتحل أسماء تختلف باختلاف المناسبات. كان يعمد للتعرف إلى فتيات هادئات لا يلفتن الأنظار ليس لديهن الكثير من الأقارب أو الأصدقاء، ثم يتزوجهن ويؤمّن على حياتهن بمبالغ ضخمة، وبعد ذلك... آه، أمر فظيع! كانت المرأة المسمّاة «كارول» زوجتَه الحقيقية، وكان ينفّذ دوماً نفس الخطة. وهذا ما سبّب إلقاء القبض عليه؛ إذ بدأت شركات التأمين بالارتياب. كان يأتي إلى مصيف ساحلي هادئ مع زوجته الجديدة ثم تظهر المرأة الأخرى ويذهب الجميع للسباحة معاً، وبعد ذلك تُقتل الزوجة الجديدة وترتدي كارول ثيابها وتعود معه في الزورق، وأخيراً يغادران المكان بعد الاستفسار عن كارول المفترَضة. وعندما يصبحان خارج القرية تعود كارول لتلبس بسرعة ثيابها الأصلية الملفتة للنظر وتضع مساحيق وجهها الصارخة وتعود ثانية إلى البلدة، ثم تركب سيارتها الخاصة وتنطلق بها. وكانا يتأكدان من الاتجاه الذي يسلكه تيار المياه بحيث تحدث الوفاة المفترضة في موقع السباحة التالي على الشاطئ (تبريراً

لانجراف الجثة). وتلعب كارول دور الزوجة وتذهب إلى مكان منعزل على الشاطئ فتضع ملابس الزوجة هناك قرب صخرة ما ثم تغادر المكان بثيابها الملونة الزاهية منتظرةً بهدوء حتى يستطيع زوجها الانضمام إليها. وأحسب أن بعض الدماء قد أصابت ثوب سباحة كارول عندما قتلا مارغري المسكينة، ولأن الثوب أحمر لم ينتبها للأمر كما قالت الآنسة ماربل، ولكن عندما علّقا الثوب أمام الشرفة نزلت منه بعض النقاط.

وأنهت جويس وهي ترتعد: آه! ما زال بوسعي رؤية المنظر!

قال السير هنري: آه، بالطبع. تذكرت الآن جيداً. كان الاسم الحقيقي للرجل هو ديفيس. لقد غاب عن ذاكرتي أن أحد أسمائه المنتحَلة الكثيرة كان اسم داكر. كانا زوجين في غاية المكر والدهاء ولطالما دُهشت لأن أحداً لم يستطع تمييز التغير في شخصية المرأة، وأحسب -كما قالت الآنسة ماربل- بأن تعرّف المرء إلى الملابس أسهل من تعرفه إلى الوجوه، ولكن خطتهما كانت في غاية الذكاء. فرغم أننا شككنا بديفيس إلاّ أنه لم يكن من السهل إثبات التهمة عليه إذ كان لديه دوماً عذر غياب عن مسرح الجريمة لا يمكن دحضه.

نظر ريموند إلى الآنسة ماربل باستغراب وقال: خالة جين... كيف حزرت ذلك؟ لقد عشتِ حياة هادئة جداً، ومع ذلك لا يبدو أن شيئاً يمكن أن يدهشك.

قالت الآنسة ماربل: "إنني أرى دوماً تشابهاً بين أمر وآخر في هذه الدنيا. وقد سبق لي أن خبرت قصة السيدة غرين التي دفنت خمسة أبناء، وكانت حياتهم جميعاً مؤمَّناً عليها. من الطبيعي والحالة

هذه أن يبدأ المرء بالشك". ثم هزّت رأسها أسفاً وقالت: إن في حياة القرى الكثير من الشر، وإنني لأرجو أن لا تدركوا أبداً -يا معشر الشباب الأعزاء- مقدار الشر في هذا العالم.

* * *

الفصل الخامس
الدافع مقابل الفرصة

تنحنح السيد بيثيريك بشكل يوحي بأهمية أكثر من المعتاد وقال كالمعتذر: أخشى أن تكون قصتي الصغيرة باهتة في أعينكم بعض الشيء بعد القصص المثيرة التي سمعناها. ليس في قصتي سفك دماء، ولكنها تبدو لي لغزاً مثيراً ينطوي على شيء من العبقرية، وأنا -لحسن الحظ- في موقع العارف لحل هذا اللغز.

قالت جويس ليمبرييه: أرجو أن لا تكون قصةً مغرقة في قانونيتها؛ مليئة بالتعابير القانونية التي لا يفهمها سوى أصحاب المهنة.

ابتسم لها السيد بيثيريك استحساناً من فوق نظارته وقال: لا، لا يا سيدتي الشابة. لا حاجة لأن تخافي من هذه الناحية؛ فالقصة التي سأحكيها بسيطة ومباشرة تماماً، ويمكن لأي رجل بسيط أن يتابعها.

قالت الآنسة ماربل وهي تهز صنارة الحياكة أمامه متوعدة: يُمنع اللعب بالألفاظ القانونية.

السيد بيثيريك: بالتأكيد، بالتأكيد.

الآنسة ماربل: حسناً، ولو أنني لست واثقة تماماً من ذلك. ولكن لنسمع القصة.

السيد بيثيريك: القصة تخص أحد زبائني السابقين، وسأسميه السيد كلود... سايمون كلود. كان رجلاً ذا ثروة هائلة يعيش في بيت ضخم غير بعيد من هنا. وقد كان له ولد قُتل في الحرب تاركاً خلفه طفلة صغيرة. كانت والدة الطفلة قد توفيت أثناء ولادتها، وعندما قُتل أبوها جاءت لتعيش مع جدها الذي تعلق بها فوراً. كان بوسع الطفلة كريستوبيل أن تفعل بجدها ما تشاء، وأنا لم أرَ قطّ رجلاً يتعلق بطفلة إلى هذا الحد من قبل، ولا يمكنني أن أصف لكم مقدار حزنه ويأسه عندما أصيبت الفتاة وهي في الحادية عشرة من عمرها بذات الرئة وتوفيت.

لقد جزع المسكين سايمون كلود تماماً. وكان أخ له قد توفي مؤخراً في ظروف سيئة، فقام سايمون كلود -كرماً- بتوفير السكن لأبناء أخيه، وكانوا بنتين، غريس وماري، وصبياً اسمه جورج. ولكن بالرغم من لطف السيد كلود وكرمه إزاء أبناء أخيه إلاّ أنه لم يبذل لهم من الحب وشدة التعلق ما بذله لحفيدته الصغيرة. تم العثور على عمل لجورج في مصرف قريب، وتزوجت غريس شاباً ذكياً يعمل في بحوث الكيمياء اسمه فيليب غارود. أما ماري -التي كانت فتاة هادئة انطوائية بعض الشيء- فقد عاشت في المنزل واعتنت بعمها، وأظنها كانت تحبه بطريقتها الخاصة الهادئة وغير الاستعراضية. وقد مضت الأمور ظاهرياً بهدوء وسلام. وربما كان عليّ أن أذكر أن سايمون

كلود قد جاءني بعد وفاة حفيدته الصغيرة كريستوبيل وطلب مني وضع وصية جديدة له. وبموجب هذه الوصية كانت ثروته الهائلة ستقسم بشكل متساوٍ بين أبناء أخيه، بواقع الثلث لكل منهم.

ومر زمن إلى أن قابلت جورج كلود مصادفة في أحد الأيام وسألته عن عمه الذي لم أكن قد رأيته منذ وقت طويل. وقد أدهشني أن وجه جورج تجهم ثم قال باكتئاب: ليتك تستطيع إعادة بعض العقل لعمي سايمون.

بدت الحيرة والقلق على سحنته الصادقة التي تفتقر إلى حدة الذكاء، ثم قال: إن مسألة الأرواح هذه تزداد سوءاً يوماً بعد يوم.

سألته وقد دهشت كثيراً: أي مسألة أرواح؟

وعندها أخبرني جورج بالقصة كلها. كيف تزايد تدريجياً اهتمام السيد كلود بموضوع الأرواح، وكيف صدف -وهو في قمة اهتمامه هذا- أن قابل وسيطة روحانية أمريكية تدعى السيدة سبراغ. وقد استطاعت تلك المرأة (التي لم يتردد جورج في وصفها بأنها محتالة من الطراز الأول) أن تمارس سيطرة هائلة على سايمون كلود. كانت عملياً تسكن البيت بشكل شبه دائم، وقد عُقدت الكثير من جلسات تحضير الأرواح التي كانت تتجلى فيها روح كريستوبيل للجد الذي بلغ تعلقه حد الخرف.

ولا يسعني إلاّ أن أقول هنا إنني لا أنتمي إلى أولئك الذين ينظرون إلى موضوع الروحانيات بسخرية وازدراء؛ فأنا -كما قلت لكم- أؤمن بالأدلة، وأظن أننا لو قيمنا الأدلة التي تؤيد ذلك الأمر

بعقل منصف لوجدنا فيها الكثير مما لا يمكن أن يُنحَّى جانباً أو يُعزا إلى الدجل والاحتيال. أنا لست من الذين ينكرون هذه الأمور ولكنني لست -أيضاً- من المؤمنين بها؛ فمن الأدلة ما لا يسع المرء معارضته.

ولكن الروحانيات -من جانب آخر- تفسح المجال سهلاً واسعاً أمام الدجل والادعاء، ومن كل ما قاله لي جورج عن تلك السيدة الأمريكية شعرتُ بقناعة متزايدة بأن سايمون كلود واقع في أيدٍ سيئة، وأن السيدة سبراغ ربما كانت من أسوأ الدجالين. فبالرغم من فطنة الرجل العجوز في المسائل العملية إلاّ أنه يمكن خداعه بسهولة عند تعلق الأمر بحبه لحفيدته الميتة.

وعندما قلّبتُ الأمر في ذهني كان عدم ارتياحي يتفاقم باضطراد. كنت أحب شباب العائلة، وقد أدركت أن هذه السيدة بتأثيرها على عمهم قد تفضي إلى المشكلات في المستقبل. وفي أقرب فرصة سنحت لي اختلقت عذراً لزيارة سايمون كلود. وجدتُ السيدة سبراغ مزروعة هناك كضيف معزز مكرم، وفور رؤيتي لها تعززت أسوأ مخاوفي. كانت امرأة بدينة في أواسط عمرها في ثيابها شيء من المباهاة الصارخة، وكانت لا تفتأ تذكر عبارات من قبيل «أحبّتنا الذين مضوا» وما شابه ذلك.

كان زوجها أيضاً، السيد أبسالوم سبراغ، مقيماً في البيت، وهو رجل طويل نحيل ظاهر الاكتئاب ذو عينين مراوغتين إلى أبعد الحدود. وقد اختليت بسايمون بأسرع ما استطعت وحاولت بلباقة أخذ رأيه بالموضوع. كان في غاية الحماسة، وقال إن السيدة سبراغ

رائعة! لقد أرسلتْها له العناية الإلهية استجابة لدعوة دعاها! وهي لا تهتم أبداً بالمال، تكفيها فرحة مساعدة قلب مبتلى، وهي تحس إحساس الأم تماماً بالنسبة لكريستوبيل. كان الرجل على وشك أن يعتبرها ابنة له. ثم تابع ليعطيني تفصيلات أخرى... كيف أنه سمع صوت كريستوبيل يتكلم، وكيف أنها سعيدة وفي أحسن حال مع أبويها. وتابع ليشرح عواطف أخرى عبرت الطفلة عنها وبدت لي -مما أتذكره عنها- مستهجنة تماماً. وقد ركزت الطفلة على حقيقة أن أمها وأباها «أحبا السيدة العزيزة سبراغ».

ثم توقف الرجل وقال لي: ولكنك تسخر مني طبعاً يا بيثيريك.

أجبته: لا، لا أسخر منك. أنا أبعد ما أكون عن ذلك. إن بعضاً ممن كتبوا عن هذا الموضوع رجال من شأني أن أقبل شهادتهم دون تردد، وسوف أمنح أي وسيط روحاني يزكونه هم كل الاحترام والثقة. أيمكن الافتراض أن السيدة سبراغ مضمونة تماماً؟

شرع سايمون في خطبة حماسية بشأن السيدة سبراغ. فقد أرسلتها له العناية الإلهية، وقد قابلها -بالمصادفة- في مصيف ساحلي كان يقضي فيه شهرين في الصيف. كان لقاء عارضاً، ويا للنتائج الرائعة التي نتجت عنه!

غادرت بيته وأنا غير راضٍ أبداً؛ فقد تحققت أسوأ مخاوفي. ولكنني لم أستطع رؤية شيء يمكنني فعله. وبعد كثير من التفكير وتقليب الأمور كتبت رسالة إلى فيليب غارود (الذي كان قد تزوج غريس، أكبر بنات أخِ سايمون... كما أسلفت). عرضت له القضية، وقد فعلت ذلك -طَبعاً- بلغةٍ بالغة الحرص. أشرت إلى الخطر

الذي تمثله سيطرة امرأة كهذه على عقل العجوز. واقترحت -إن كان بالإمكان- إقامة اتصال بين السيد كلود وبعض الدوائر الروحانية المشهورة التي تلقى احتراماً. وظننت أن ترتيب أمر هذه المسألة لن يكون صعباً على فيليب غارود.

كان غارود سريعاً في تصرفه، فقد أدرك أمراً لم أدركه أنا، وهو أن صحة سايمون كانت في حال لا يؤمن جانبها، وبما أنه كان رجلاً عملياً فإنه لم يحب أن تُحرم زوجته أو أخواها من التركة التي هي حق لهم. جاء إلى بيت عم زوجته في الأسبوع التالي مصطحباً معه ضيفاً لم يكن سوى البروفسور الشهير لونغمان. كان لونغمان عالماً من الطراز الأول، وكانت علاقته بالروحانيات تجبر الناس على التعامل مع ذلك الموضوع باحترام. وهو لم يكن عالماً فذاً فحسب، بل رجلاً ذا استقامة ونزاهة شديدتين.

كانت نتيجة الزيارة مؤسفة جداً؛ إذ يبدو أن لونغمان لم يقل إلاّ القليل وهو هناك. وقد عُقدت جلستان لتحضير الأرواح... في ظروف لا أعرفها. لم يُفهم من كلام لونغمان أي شيء محدد طوال وجوده هناك، ولكنه كتب بعد مغادرته رسالة لفيليب غارود. وقد اعترف في الرسالة بأنه لم يستطع كشف احتيال لدى السيدة سبراغ، ومع ذلك فقد كان رأيه الخاص أن الظواهر الروحانية لم تكن حقيقية أصيلة. وقال إن للسيد غارود الحرية في إطلاع عمه على هذه الرسالة إذا رأى ذلك مناسباً، كما اقترح أن يقوم هو نفسه بتعريف السيد كلود على وسيطة روحانية تتمتع بكامل الاستقامة.

وقد أخذ فيليب غارود هذه الرسالة مباشرة إلى عمه، ولكن

النتيجة لم تكن كما توقعها. فقد استشاط العجوز غضباً، وقال إن الأمر كله كان مؤامرة للتشكيك بالسيدة سبراغ التي كانت قديسة أُسيء إليها! وقد أخبرته هي أساساً بمقدار الحسد المرير الذي يكنه لها البعض في هذا البلد. وأشار إلى أن لونغمان قد اضطر للاعتراف بأنه لم يكتشف احتيالاً، وقد جاءته السيدة سبراغ في أحلك ساعات حياته فأعطته العون والراحة، وهو مستعد لتبني قضيتها حتى لو كان ذلك يعني تشاجره مع كل فرد من أفراد أسرته؛ فهي تعني له أكثر مما يعني له اي شخص آخر في الدنيا.

وقد طُرد فيليب غارود من البيت بأقل قدر ممكن من الحفاوة، ولكن صحة العجوز كلود أخذت منحنى مفاجئاً إلى الأسوأ نتيجة غضبه. وقد لزم فراشه بشكل مستمر تقريباً طوال الشهر الأخير، وظهر -عند ذلك- احتمال كبير بأن يصبح مقعداً طريح الفراش بانتظار أن يدركه الموت. وبعد يومين من مغادرة فيليب تلقيت استدعاء عاجلاً من العجوز وذهبت إليه بسرعة.

كان كلود في فراشه، وبدا مريضاً جداً بالفعل حتى بالنسبة لي أنا الشخص العادي؛ فقد كان يلهث لالتقاط أنفاسه. قال لي: هذه نهايتي، إنني أشعر بها. لا تجادلني يا بيثيريك. ولكنني -قبل موتي- سأقوم بواجبي للإنسانة الوحيدة التي فعلت من أجلي أكثر مما فعله أي شخص آخر في العالم. أريد أن أضع وصية جديدة.

- بالتأكيد، لو أعطيتني تعليماتك الآن فسوف أصوغ وصية وأرسلها لك.

- لن ينفع ذلك. ألا ترى -يا رجل- أنني قد لا أعيش لأكمل

ليلتي هذه. لقد كتبت ما أريده هنا، ويمكنك أن تخبرني إن كان ذلك صحيحاً.

ثم بحث بيده المضطربة تحت وسادته وأخرج ورقةً كُتبت عليها بقلم رصاص بضع كلمات بخط كبير سيء. كان المكتوب واضحاً بسيطاً؛ فقد ترك خمسة آلاف جنيه لكل واحد من أبناء أخيه، وترك ما تبقى من ثروته الهائلة صراحة للسيدة سبراغ «عرفاناً وإعجاباً».

لم يعجبني ذلك، ولكنه كان أمراً واقعاً. ولم يكن من مجالٍ لأي ادعاءٍ بضعف عقلي، فقد كان العجوز عاقلاً كأي عاقل. قرع الجرس طالباً اثنين من الخدم، وسرعان ما جاءت الخادمة إيما غونت، وهي امرأة طويلة القامة في أواسط عمرها أمضت سنوات طويلة في خدمة العائلة وسهرت على راحة سايمون كلود بإخلاص. وقد جاءت معها الطباخة، وهي امراة نشيطة في الثلاثين من عمرها. حدق سايمون كلود إليهما من تحت حاجبيه الكثين وقال: أريدكما أن تشهدا على وصيتي. أعطني قلم الحبر يا إيما.

ذهبت إيما طائعة إلى المكتب فناداها العجوز بانزعاج: كلا، ليس في ذلك الدرج الأيسر يا بنت. ألا تعلمين أنه في الدرج الأيمن؟

قالت إيما: لا، إنه هنا.

ثم أخرجت القلم فقال العجوز متذمراً: إذن لا بد أنك وضعتِه في المكان الخطأ في المرة الماضية. لا أطيق وضع الأشياء في غير أماكنها الصحيحة.

ثم أخذ القلم منها وهو لا يزال يتذمر ونسخ ما كان قد كتبه من قبل على ورقة جديدة مع تصليحاتي عليه، ثم وقّع باسمه ووقعت الخادمتان بعده. طويت الوصية ووضعتها في مغلف أزرق طويل. وكانت قد كُتبت بالضرورة -كما قد تلاحظون- على ورقة عادية.

وفيما كانت الخادمتان تغادران الغرفة ألقى كلود بنفسه إلى الخلف على وسادته مع شهقة ووجه متألم. انحنيت فوقه متلهفاً وعادت إيما غونت بسرعة، ولكن العجوز استعاد طبيعته وابتسم بوهن قائلاً: لا بأس بي يا بيثيريك، لا تقلق. وأنا -على كل حال- سأجد الموت سهلاً الآن وقد أنجزتُ ما أردته.

نظرت إيما غونت إليّ باستفهام كما لو كانت تريد سؤالي إن كان بإمكانها مغادرة الغرفة. أومأت لها مُطَمْئِناً فخرجت، ولكنها توقفت قبل خروجها لتلتقط المغلف الأزرق الذي سقط مني على الأرض في لحظة انفعالي. أعطته لي فدسسته في جيب معطفي، وعندها خرجت الخادمة. قال سايمون كلود: أنت منزعج يا بيثيريك، فأنت متحامل كالآخرين جميعاً.

- المسألة ليست مسألة تحامل. ربما كانت السيدة سبراغ صادقة في كل ما تدعيه. وما كنت لأرى مانعاً لو تركتَ لها مبلغاً بسيطاً من باب العرفان، ولكني أقول لك -بصراحة- إن من الخطأ أن تحرم من الإرث من هم من لحمك ودمك لصالح امرأة غريبة.

وبعد قولي هذا استدرت لأغادر، فقد فعلت ما أمكنني وعبّرت عن احتجاجي. خرجت ماري كلود من غرفة الجلوس والتقتني في الصالة قائلة: هل لك في تناول الشاي قبل ذهابك؟ تفضل من هنا.

قادتني إلى غرفة الجلوس حيث كانت النار مشتعلة في الموقد وبدت الغرفة بهيجة حميمية. ساعدتني ماري في نزع معطفي في نفس الوقت الذي دخل فيه شقيقها جورج الغرفة. أخذ منها المعطف ووضعه على كرسي في الجانب الآخر من الغرفة، ثم عاد إلى قرب الموقد حيث شربنا الشاي. وأثناء شربنا للشاي طُرحت نقطة الأراضي المحيطة بالبيت، وكان سايمون كلود قد قال إنه لا يريد إزعاج نفسه بهذه النقطة فتركها لتقدير جورج. وكان جورج مرتبكاً بعض الشيء نتيجة هذه الثقة التي وُضعت في حكمه. وبناء على اقتراحٍ مني انتقلنا إلى المكتب وقمت أنا بمراجعة الأوراق ذات العلاقة، وقد رافقتنا ماري كلود إلى المكتب.

بعد ربع ساعة من ذلك تأهبت للمغادرة، ثم تذكرت أنني تركت معطفي في غرفة الجلوس فذهبت لإحضاره. لم يكن في الغرفة سوى السيدة سبراغ التي كانت تجثو قرب الكرسي الذي وُضع عليه المعطف. بدا وكأنها تقوم بتعديل غير ضروري على الغطاء المُنجَّد للكرسي، ونهضت عند دخولنا وقد علت وجهها الحمرة الشديدة وقالت: هذا الغطاء لا يستوي أبداً.. حتى أنا كنت أستطيع تنجيده بشكل أفضل.

أخذت معطفي ولبسته. ولاحظت وأنا أقوم بذلك أن المغلف الذي يحتوي على الوصية كان قد وقع من الجيب، وكان ملقى على الأرض. أعدته إلى جيبي وودعتهم وغادرت.

وسأصف لكم تصرفاتي التي تلت ذلك بدقة. فبعد وصولي إلى المكتب نزعت معطفي وأخذت المغلف من جيبه، وقد دخل علي موظف المكتب وأنا واقف قرب المكتب وبيدي المغلف. كان أحدهم

يريد مكالمتي بالهاتف، وكان الخط الفرعي الذي يوصل المكالمات إلى مكتبي عاطلاً، ولذلك رافقت الموظف إلى المكتب الخارجي وبقيت هناك نحواً من خمس دقائق مشغولاً بالمكالمة الهاتفية.

وعندما خرجت من المكتب الخارجي وجدت موظفي بانتظاري قائلاً: "لقد جاء السيد سبراغ لرؤيتك يا سيدي فأدخلته إلى مكتبك". دخلت لأرى السيد سبراغ جالساً قرب المكتب. نهض وحيّاني بأسلوب فيه شيء من التملق، ثم شرع في حديث طويل لا ينظمه ناظم. وبدا حديثه -عموماً- تبريراً مضطرباً لنفسه ولزوجته. كان يخشى أقاويل الناس، وأكد أن زوجته كانت معروفة منذ طفولتها بنقاء قلبها وسلامة دوافعها... ومثل هذا الكلام. وأخشى أنني كنت بارداً مقتضباً معه، وأظنه أدرك في النهاية أن زيارته لم تكن ناجحة فغادر بشكل مفاجئ تقريباً. عندها تذكرت أنني تركت المغلف ملقى على المكتب. أخذته فأغلقته وختمته وكتبت عليه ثم ألقيته في خزنتي.

وها أنا أصل الآن إلى لب الموضوع، فبعد شهرين من ذلك توفي السيد سايمون كلود. ولن أدخل في حديث طويل، بل سأكتفي بذكر الحقائق المجردة. عندما فُتح المغلف المختوم الذي يحوي الوصية وجدنا أنه يحتوي على ورقة بيضاء فقط.

سكت السيد بيثيريك وهو ينظر إلى دائرة الوجوه المهتمة حوله، ثم ابتسم بشيء من الفرح وقال: لعلكم تقدرون النقطة بالطبع؟ لقد بقي المغلف المختوم لمدة شهرين في خزنتي، ولا يمكن أن يكون أحد عبث به خلال تلك الفترة. فما بين لحظة توقيع الوصية وإقفالي

للخزنة عليها من الذي سنحت له فرصة تغيير الورقة، ولمصلحة مَن يتم هذا التغيير؟

سأعيد ذكر الحقائق الحيوية باختصار شديد: لقد وقّع السيد كلود الوصية، ووضعتها أنا في مغلف... الأمور على ما يرام حتى الآن. بعدها وضعت المغلف في جيب معطفي. وقد نزعت ماري عني ذلك المعطف وأعطته لجورج الذي كان تحت نظري تماماً طوال إمساكه بالمعطف. وخلال الوقت الذي كنت فيه في المكتب كان من شأن السيدة سبراغ أن تملك كثيراً من الوقت لتخرج المغلف من جيب المعطف وتقرأ محتوياته، والحقيقة أن عثوري على المغلف على الأرض وليس في الجيب يشير إلى احتمال قيامها بذلك. ولكننا نصل هنا إلى نقطة غريبة: كانت لديها الفرصة لإبدال الورقة البيضاء بالوصية، ولكن ما من دافع لديها لذلك؛ فقد كانت الوصية لصالحها، وهي إذا صنعت ذلك تكون قد حرمت نفسها من إرث كانت شديدة الحرص على الفوز به. والأمر نفسه ينطبق على السيد سبراغ. لقد توفرت له الفرصة هو الآخر؛ فقد تُرك وحيداً مع الوصية لمدة دقيقتين أو ثلاث دقائق في مكتبي. ولكن القيام بذلك لم يكن لصالحه مرة أخرى. إذن فنحن نواجه هذه المشكلة الغريبة: الشخصان اللذان توفرت لهما الفرصة لاستبدال الوصية لم يكن لديهما دافع للقيام بذلك، والشخصان اللذان يتوفر لهما دافع لم تتوفر لهما الفرصة. وبالمناسبة، فأنا لا أستثني الخادمة إيما غونت من الشكوك؛ فقد كانت مخلصة لسيدها وسيدتها جورج وماري، وكانت تمقت سبراغ وزوجها. وأكاد أشعر -واثقاً- بأنها كانت مستعدة لمحاولة الاستبدال لو أنها فكرت بها. ولكن رغم أنها أمسكت عملياً بالمغلف

عندما أخذته عن الأرض وأعطته لي، إلاّ أنها لم تحظَ -بالتأكيد- بفرصة للعبث بمحتوياته، ولا يمكن أن تكون قد أعطتني مغلفاً آخر بشيء من خفة اليد (وهو ما لا يمكن أن تتقنه على كل حال) لأنني أنا الذي أحضر المغلف المذكور إلى البيت ولا يحتمل أن يكون لدى أحد هناك نسخة شبيهة به.

نظر حوله وهو يبتسم للمجتمعين ثم قال: هذا هو لغزي الصغير. أرجو أن أكون قد طرحته بوضوح، وكلي اهتمام بسماع آرائكم.

ومما أدهش الجميع أن الآنسة ماربل أطلقت قهقهة طويلة، وبدا أن شيئاً ما قد سرها كثيراً. قال ريموند: ما الأمر يا خالة جين؟ ألا يمكن أن تشركينا في النكتة؟

قالت الآنسة ماربل: كنت أفكر بذلك الصبي الصغير، تومي سايموندز. كان صبياً لعوباً، ولكنه كان يثير الضحك دائماً. كان من أولئك الصبية ذوي الوجوه الطفولية البريئة الذين تجدهم يخططون دوماً لحيلةٍ ما. كنت أفكر كيف قال لمعلمته في الأسبوع الماضي: "هل نقول «إن صفار البيض أبيضٌ» أم «إن صفار البيض أبيضاً»؟ وشرحت له المعلمة أن عليه أن يقول: «إن صفار البيض أبيضُ»، وعندها قال تومي: أظن أن علينا أن نقول إن صفار البيض أصفر!". حيلة مزعجة بالطبع، ولكنها قديمة... أعرفها منذ أن كنت طفلة.

قال ريموند بلطف: هذا ممتع جداً يا خالتي العزيزة، ولكن المؤكد أن لا علاقة له بالقصة المثيرة التي كان السيد بيثيريك يرويها لنا.

الآنسة ماربل: بل لها علاقة. إن بها حيلة خادعة! وكذلك قصة السيد بيثيريك حيلة خادعة. هذا دأب المحامين. آه يا صديقي القديم!

ثم هزت رأسها بشيء من التأنيب باتجاه بيثيريك، الذي قال وهو يرمش بجفونه: أتساءل إن كنت تعرفين الحل حقاً.

كتبت الآنسة ماربل بضع كلمات على ورقة صغيرة وطوتها ومررتها للسيد بيثيريك. فتح المحامي الورقة وقرأ ما كتب فيها ثم نظر إلى الآنسة ماربل بإعجاب وقال: يا صديقتي العزيزة، هل يوجد شيء لا تعرفينه؟

قالت الآنسة ماربل: كنت أعرف ذلك وأنا طفلة، وقد كنا نلعب هذه اللعبة أيضاً.

السير هنري: أشعر وكأنني خارج هذا الموضوع. لا بد أن السيد بيثيريك يخفي تحت إبطه حيلة قانونية ذكية من نوع ما.

السيد بيثيريك: أبداً، أبداً. بل هي قصة حقيقية بسيطة لا خداع فيها. عليك أن لا تلقي بالاً لما تقوله الآنسة ماربل، فلديها طريقتها الخاصة في النظر إلى الأمور.

قال ريموند بشيء من الانزعاج: لا بد أن نستطيع الوصول إلى الحقيقة، فالحقائق تبدو واضحة بالتأكيد. خمسة أشخاص هم الذين لمسوا ذلك المغلف عملياً. ويبدو واضحاً أنه كان بوسع الزوجين سبراغ أن يعبثا به، ولكن الواضح أيضاً أنهما لم يفعلا ذلك. يبقى الثلاثة الباقون. وعندما يتذكر المرء الطرق العجيبة التي يتبعها الحواة

وأصحاب الألعاب السحرية في القيام بحركاتهم أمام نظر المرء فإنه يبدو لي أن الورقة ربما تم استبدالها من قبل جورج عندما كان يحمل المعطف إلى الطرف الآخر من الغرفة.

جويس ليمبرييه: أظن أن الفتاة هي التي قامت بذلك. وأحسب أن الخادمة هرعت إليها لتخبرها بما كان يحدث فاستطاعت تأمين مغلف أزرق آخر واستبدلت مغلفاً بمغلف.

هز السير هنري رأسه حيرة ثم قال ببطء: إنني أختلف معكما أنتما الاثنين. مثل هذه الأمور لا يقوم بها إلاّ الحواة والسحرة، وهم يقومون بها على المسارح وفي القصص، ولكنني أظن أن القيام بها في الحياة الواقعية مستحيل، وخصوصاً أمام رجل ذكي كصديقنا السيد بيثيريك. ولكن عندي فكرة، وهي مجرد فكرة لا أكثر. نحن نعرف أن البروفسور لونغمان كان قد زار البيت قبل فترة قصيرة ولم يقل الكثير. ومن المعقول أن نفترض أن الزوجين سبراغ كانا شديدي الحرص على معرفة نتائج تلك الزيارة. فإن لم يكن سايمون كلود قد ائتمنهما على سره -وهو أمر محتمل تماماً- فربما نظرا إلى إرساله في طلب السيد بيثيريك من زاوية مختلفة تماماً. ربما كانا يظنان أنه سبق لسايمون كلود أن وضع وصية تستفيد منها السيدة سبراغ، وأنه أرسل في طلب محاميه الآن لغرض وحيد هو صياغة وصية جديدة تُستبعد فيها السيدة سبراغ نتيجة ما كشفه له البروفسور لونغمان. أو أن يكون فيليب غارود قد أقنع عمه بمطالب أبناء أخيه. وفي تلك الحالة لنفترض أن السيدة سبراغ استعدت للقيام بعملية استبدال للوصية، وهذا ما قامت به، ولكن مجيء السيد بيثيريك في لحظة غير مناسبة

لم يتح لها من الوقت ما تقرأ به الوصية الحقيقية فسارعت إلى حرقها خشية أن يكتشف المحامي فقدانها.

هزت جويس رأسها بقوة معترضةً وقالت: ما كانت لتحرق الوصية دون قراءتها.

السير هنري: أعترف أن هذا الحل ضعيف بعض الشيء. لا بد أنه كان للسيد بيثيريك دور في هذا الأمر.

كانت تلك العبارة على سبيل المزاح، ولكن المحامي انتفض كمن جُرحت كرامته وقال: هذا تلميح غير مقبول أبداً.

السير هنري: ما الذي يقوله الدكتور بيندر؟

الدكتور بيندر: لا أستطيع الزعم بأن لديّ أفكاراً واضحة عن الأمر. أظن أن استبدال الوصية قد تم من قبل السيدة سبراغ أو زوجها، وربما للدوافع التي ذكرها السير هنري. فإن كانت لم تقرأ الوصية إلاّ بعد مغادرة السيد بيثيريك فإنها ستكون عندها في ورطة كبيرة، طالما أنها لا تستطيع الاعتراف صراحة بما فعلته. ربما لجأت عندها إلى وضع الوصية بين أوراق السيد كلود ظانة أنها ستظهر بعد موته، ولكني لا أدري لماذا لم تظهر. وإذا كان لي أن أخمن لقلت إن إيما غونت قد عثرت على الوصية فأتلفتها نتيجة إخلاصها لمستخدميها.

جويس ليمبرييه: أظن أن حل الدكتور بيندر هو أفضل الحلول. أهو صحيح يا سيد بيثيريك؟

هز المحامي رأسه بالنفي وقال: سأمضي في القصة من حيث

توقفت. فقد ذهلت ووقعت في حيرة من أمري كما أنتم الآن. ولا أظنني كنت قادراً أبداً على معرفة الحقيقة، ولكن جاء من هداني إليها، وبذكاء أيضاً.

بعد نحو شهر من ذلك تناولت الغداء مع فيليب غارود، وفي معرض حديثنا بعد الغداء ذكر لي قضية مثيرة علم بها مؤخراً قائلاً: أحب أن أخبرك بها يا بيثيريك، ولكن بيني وبينك بالطبع.

- بالتأكيد.

- لي صديق كان ينتظر إرثاً من أحد أقربائه، وقد جزع إذ وجد أن قريبه يفكر في نفع شخص آخر سيء جداً. وأظن أن صديقي كان قليل الوازع في وسائله. وكانت في البيت خادمة شديدة الإخلاص لمصالح من يمكن لي تسميتهم بالطرف الشرعي. وقد أعطاها صاحبي تعليمات بسيطة جداً. أعطاها قلم حبر مملوءاً حبراً، وطلب منها أن تضع القلم في درج المكتب في غرفة سيدها، ولكن ليس في الدرج المعتاد الذي يوضع فيه القلم عادة. وإذا ما طلب منها سيدها أن تشهد على توقيعه على أية وثيقة وطلب منها أن تحضر له قلمه فإن عليها أن لا تحضر له قلمه الحقيقي بل القلم الآخر الذي كان نسخة طبق الأصل عنه. هذا هو كل ما عليها أن تفعله، ولم يعطها أي معلومات أخرى، وقد كانت شديدة الإخلاص ونفذت تعليماته بأمانة.

ثم توقف فيليب غارود وقال: أرجو أنني لا أضجرك يا بيثيريك.

قلت: أبداً، إنني مستمتع بشدة.

ثم التقت عينانا وقال لي: أنت لا تعرف صديقي بالطبع.

- بالطبع لا أعرفه.

- هذا حسن إذن.

توقف بيثيريك قليلاً ثم قال وهو يبتسم: أعرفتم المغزى؟ لقد كان القلم مملوءاً بما يعرف بالحبر الزائل، وهو محلول النشا في الماء تُضاف له بضع نقاط من اليود. وهذا ما ينتج عنه سائل أزرق غامق، ولكن الكتابة تختفي تماماً في غضون أربعة أيام أو خمسة.

ضحكت الآنسة ماربل وقالت: "الحبر الخفي... كثيراً ما لعبت به وأنا طفلة". ثم ابتسمت لهم جميعاً، وتوقفت لتهز إصبع تأنيب في وجه المحامي مرة أخرى وتقول: ولكن -مع كل ذلك- فإن قصتك تقوم على خدعة يا سيد بيثيريك. تماماً كما هو دأب المحامين!

* * *

الفصل السادس
كَوْمَة السّمك

قال ريموند وست: والآن جاء دورك يا خالة جين.

وأضافت جويس: نعم يا خالة جين، إننا ننتظر منك قصة مثيرة حقاً.

قالت الآنسة ماربل ببساطة: أنتم تضحكون في سرّكم مني يا أعزائي. تظنون أنني -وقد عشت كل حياتي في بقعة معزولة- لا يُرجَّح أن تكون لدي أي تجارب مثيرة.

أجابها ريموند متحمساً: لا يسعني أن أعتبر حياة القرية هادئة تخلو من الأحداث؛ ليس بعد كل الاكتشافات الفظيعة التي سمعناها منك! إن مجتمع المدينة يبدو مكاناً هادئاً مسالماً إذا ما قورن بقرية سينت ميري ميد.

الآنسة ماربل: يا عزيزي، إن الطبيعة البشرية واحدة أينما كانت، وبالطبع فإن للمرء فرصاً لمراقبتها عن كثب في القرية.

جويس: أنت حقاً فريدة يا خالة جين. أرجو أن لا يكون لديك مانع إن ناديتك «خالة جين»؟ لا أدري لماذا أستخدمُ هذه الصيغة.

- ألا تعلمين لماذا يا عزيزتي؟

ثم نظرت لبضع لحظات إلى الفتاة وفي عينيها شيء من التساؤل، مما جعل وجه الفتاة يتورد، وتململ ريموند وتنحنح كمن أحس بالحرج. نظرت الآنسة ماربل إلى الاثنين وابتسمت ثانية، ثم عادت لتصرف انتباهها إلى حياكتها مجدداً قائلة: صحيح طبعاً أنني عشت حياة قليلة الأحداث، ولكن لدي الكثير من الخبرة في حل العديد من الألغاز الصغيرة المختلفة التي كانت تنشأ. وكان بعض تلك الألغاز شديد التعقيد حقاً، ولكن لا فائدة من سردها عليكم لأنها تدور حول أمور لا أهمية لها مما لن يمتعكم سماعه. كانت مجرد أحداث من قبيل: من الذي قطع شبكة حقيبة السيدة جونز؟ ولماذا لم تلبس السيدة سيمز معطف فروها الجديد إلاّ مرة واحدة؟ كانت أموراً مثيرة حقاً لأي دارس لشؤون الطبيعة البشرية. إن التجربة الوحيدة التي يمكنني تذكرها ويمكن أن تثير اهتمامكم هي تلك الخاصة بذلك المسكين زوج ابنة أخي مابل.

حدث ذلك منذ عشر سنين أو خمس عشرة سنة، وقد مضى ذلك كله وانقضى لحسن الحظ ونسي الجميع الأمر. إن ذاكرة الناس قصيرة جداً، وهو ما أظنه دوماً أمراً جيداً.

كانت مابل ابنة أخي. كانت فتاة لطيفة جداً في الواقع، ولكن كانت فيها ذرة مما يمكنكم تسميته سذاجة أو سخفاً. كانت مغرمة بالإثارة والتهويل وقول أكثر مما تعنيه حقاً كلما كانت منزعجة.

تزوجت رجلاً يدعى السيد دينمان عندما كانت في الثانية والعشرين من عمرها، ولعله لم يكن زواجاً سعيداً جداً. وكنت قد تمنيت أن لا ينتهي تعلقهما الواحد بالآخر إلى أي نتيجة، إذ كان السيد دينمان ذا مزاج عنيف جداً، ولم يكن ممن يمكنهم الصبر على شطحات مابل، كما أنني علمت أن في عائلته جنوناً. ولكن الفتيات كن وقتها عنيدات كما هن اليوم، وكما سيبقين دوماً. وهكذا تزوجته مابل.

لم أرها كثيراً بعد زواجها. جاءت لتنزل في ضيافتي مرة أو مرتين، كما أنهما قاما بدعوتي عدة مرات إلى بيتهما، ولكن الحقيقة أنني لا أحب كثيراً الإقامة في بيوت الآخرين، وقد استطعت دوماً الخروج بعذر ما. كان قد مر على زواجهما عشر سنين عندما توفي السيد دينمان فجأة. لم يكن لديهما أطفال، وقد ترك لها كل ماله. وقد كتبتُ لها طبعاً أعرض عليها القدوم إن كانت تريدني، ولكنها كتبت رسالة جوابية في منتهى التعقل، وفهمت أن الحزن لم يكن قد سيطر عليها. وظننت أن ذلك مسألة طبيعية لأنني كنت أعرف أنهما لم يكونا على انسجام لفترة طويلة. وما كادت تمر ثلاثة أشهر حتى استلمت من مابل رسالة في منتهى الهستيرية تتوسل إليّ فيها الحضور إليها قائلة إن الأمور تسير من سيء إلى أسوأ وإنها لم تعد تحتمل.

وهكذا قمت بإعطاء إجازة بأجور مخفضة لخادمتي كلارا، وأرسلت الطبق والإبريق الأثري الذي يعود إلى عهد الملك تشارلز الأول إلى البنك لحفظهما فيه، ثم ذهبت إليها على الفور لأجدها في حالة عصبية شديدة. كان منزلها ضخماً، وقد فُرش بشكل مريح جداً. وكانت في البيت طباخة وخادمة وممرضة تقوم على خدمة السيد دينمان العجوز والد زوجها الذي كان يوصف بأنه «ليس

على ما يرام عقلياً»، ورغم أنه مسالم تماماً وحسن السلوك، إلاّ أن تصرفاته كانت أحياناً غريبة الأطوار تماماً. لقد كان في العائلة -كما قلت- عرق جنون.

ولقد صُدمت إذ رأيت مدى التغيير الذي طرأ على مابل، فقد كانت كتلة أعصاب، شديدة التوتر، ووجدت صعوبة بالغة في حملها على إعلامي بالمشكلة. ولكنني استطعت الوصول إلى معرفة الأمر بشكل غير مباشر، كما هي عادة المرء في الوصول إلى مثل هذه الأمور. سألتها عن بعض أصدقائها الذين اعتادت ذكرهم في رسائلها إلي، وأعني أسرة غالاغار. وقد أدهشني قولها إنها لا تكاد تراهم في هذه الأيام. ثم سألتها عن أصدقاء آخرين فلم ألقَ منها إلاّ نفس الإجابة.

وعندها تحدثت معها عن حماقة عزلها لنفسها وترك المعاناة تعتمل في صدرها، وتحدثتُ خاصة عن سخف قطعها لعلاقاتها مع الأصدقاء. فانفجرت -عند ذلك- بقول الحقيقة: هذا ليس مني أنا، بل منهم. ما من أحد في المنطقة يرغب في الحديث إليّ الآن. حين أمر في الشارع العام فإنهم يبتعدون جميعاً حتى لا يضطروا للقاء بي والحديث معي. إنني أشبه بشخص مجذوم، وهو أمر فظيع جداً لم أعد أستطيع تحمله. سأضطر إلى بيع المنزل والسفر للخارج. ولكن لماذا عساي أُدفع دفعاً للخروج من منزل كهذا؟ أنا لم أفعل شيئاً.

ولا أستطيع إخباركم بمدى انزعاجي وقتها. كنت في ذلك الوقت أحوك وشاحاً للسيدة هيي العجوز، وبسبب اضطرابي أغفلت غرزتين لم أنتبه لهما إلاّ بعد وقت طويل من ذلك. قلت لها: يا عزيزتي مابل، إنك تدهشينني. ما سبب كل ذلك؟

لقد كان التعامل مع مابل صعباً حتى عندما كانت طفلة. وقد وجدت صعوبة بالغة في حملها على إعطائي جواباً مباشراً عن سؤالي. كان من شأنها أن تطرح عبارات غائمة عن أقاويل شريرة وأناس لا عمل لهم إلاّ القيل والقال وأناس يضعون في أذهان الآخرين أفكاراً معينة. قلت لها: هذا كله واضح تماماً بالنسبة لي. من الواضح أن قصة يتم تداولها عنك، ولكن لا بد أنك تعرفين تلك القصة كما يعرفها الجميع، وسوف تخبرينني بها.

- إنها شريرة جداً.

- إنها شريرة بالطبع. لن يدهشني أو يفاجئني أي شيء يمكن أن تقوليه عن عقول الناس. والآن يا مابل، هل لك أن تخبريني بلغةٍ واضحة ما الذي يقوله عنك الناس؟

وعندها أفضت بكل شيء. ويبدو أن وفاة جيوفري دينمان، وقد كانت مفاجئة تماماً وغير متوقعة، قد فتحت المجال للعديد من الإشاعات. والحقيقة أن الناس -بلغة واضحة كالتي طلبتها منها- كانوا يقولون إنها سمَّت زوجها.

وأحسبكم تعلمون أنه ما من شيء أشدّ قسوة ولا أصعب مكافحة من الأقاويل. فعندما يقول الناس في غيابك أموراً معينة لا تملك الدحض أو الإنكار، وتمضي الشائعات في نمو مستمر دون أن يستطيع أحد إيقافها. كنت واثقة تماماً من أمر واحد: وهو أن مابل عاجزة تماماً عن تسميم أحد. ولم أرَ سبباً لتدمير حياتها وجعل بيتها مكاناً لا يطاق لمجرد أنها قامت -فيما غلب على ظني- بتصرف ساذج سخيف من نوع ما. قلت لها: لا دخان بلا نار. لا بد

لك الآن يا مابل من إخباري بذلك الشيء الذي دفع الناس لسلوك هذا الطريق. لا بد من وجود شيء.

كانت مابل شديدة الارتباك، وصرحت بعدم وجود شيء... أبداً، باستثناء أن وفاة جيوفري كانت مفاجئة جداً بالطبع. كان قد بدا على أحسن حال أثناء العشاء في تلك الليلة، ثم ما لبث أن أصابه مرض شديد في الليل. وقد طُلب الطبيب، ولكن المسكين توفي بعد بضع دقائق من وصول الطبيب. وقد ظُنّ أن الوفاة حدثت نتيجة تناول فطر سام.

قلت لمابل: حسناً، أحسب أن من شأن وفاة مفاجئة كهذه أن تحفّز الألسنة على الانطلاق، ولكن ليس دون بعض الحقائق الإضافية بالتأكيد. هل حدث بينك وبين جيوفري شجار أو شيء من هذا القبيل؟

اعترفت أنها تشاجرت معه صباح ذلك اليوم على مائدة الإفطار، فسألتها: وأحسب أن الخدم قد سمعوا المشاجرة دون شك، أليس كذلك؟

- لم يكونوا في الغرفة.

- نعم يا عزيزتي، ولكن ربما كانوا قريبين من الباب من الخارج.

إنني أعرف حق المعرفة القوة المدوية لصوت مابل ذي النبرة العالية، كما أن جيوفري دينمان أيضاً كان معتاداً على رفع صوته عالياً عندما يغضب. سألتها: علامَ تشاجرتما؟

- آه، الأسباب المعتادة. كانت نفس الأسباب تتكرر وتتكرر. نبدأ عادة بأمر بسيط، وسرعان ما يغدو جيوفري رجلاً لا يُطاق ويقول أشياء فظيعة، فأقوم أنا برد الصاع صاعين.

- كانت إذن مشاجرة عنيفة؟

- لم تكن الغلطة غلطتي.

- يا طفلتي العزيزة، ليس مهماً من الذي غلط؛ ليس هذا ما نناقشه. ففي بلدة كهذه تكون الشؤون الشخصية لكل امرئ مشاعاً بين الناس. لقد كنت أنت وزوجك في شجار دائم. وقد تشاجرتما مشاجرة عنيفة بشكل خاص في أحد الصباحات، وفي الليلة التي أعقبت ذلك الصباح مات زوجك فجأة وبشكل غامض. أهذا كل شيء، أم أن في الأمر شيئاً آخر؟

أجابت بشيء من النكد: لا أدري ما الذي تعنينه بشيء آخر.

- أعني ما قلتُه تماماً يا عزيزتي. فإن كنت قد قمت بأي تصرف أحمق فلا تكتميه الآن بالله عليك، فكل ما أريده هو أن أفعل ما أستطيعه لمساعدتك.

- ليس بوسع شيء أو أحد مساعدتي.

- فليكن لديك المزيد من الإيمان بالله يا عزيزتي. والآن يا مابل، إنني أعرف حق المعرفة أنه كان شيء آخر تكتمينه.

كنت أعرف دوماً، حتى وهي طفلة، متى كانت تمتنع عن قول كامل الحقيقة. وكان استنطاقها يأخذ مني وقتاً طويلاً، ولكنني كنت

أصل إلى الحقيقة في النهاية. كانت قد ذهبت إلى الصيدلي في ذلك الصباح واشترت بعض الزرنيخ، وكان عليها بالطبع أن توقّع على سجل الصيدلي بما يفيد شراءها لهذا السم. ومن الطبيعي أن الصيدلي قد تكلم. سألتها: من هو طبيبكم؟

- الدكتور رولينسن.

كنت أعرفه بالشكل، إذ كانت مابل قد دلتني عليه من بعيد قبل أيام. وحتى لا أطيل الوصف أو أعقّده فإنني أكتفي بالقول إنه كان عجوزاً يرتعد خرفاً. ولقد مر علي من التجارب في الحياة ما لا يجعلني أؤمن بعصمة الأطباء. بعضهم أذكياء وبعضهم غير ذلك، وكثيراً ما ترى أفضلهم علماً لا يعرف ما الذي أصابك. وأنا شخصياً أتجنب التعامل مع الأطباء ومع أدويتهم.

فكرتُ في الأمور ملياً، ثم ارتديت قبعتي وذهبت لزيارة الدكتور رولينسن. وكان كما حسبته تماماً؛ عجوزاً لطيفاً تعوزه الدقة وحدّة التفكير، ويعاني من قصر نظر يثير الشفقة مع ثقل في سمعه، وكان فوق ذلك حساساً إلى أبعد الحدود. وقد تحمس فوراً عندما ذكرتُ وفاة جيوفري دينمان، وتحدث مطولاً عن أنواع مختلفة من الفطريات، الصالحة منها للطعام وغير الصالحة. كان قد حقق مع الطباخة التي اعترفت بأن واحدة أو اثنتين من نباتات الفطر التي طُبخت كانتا «غريبتين قليلاً»، ولكن بما أن محل البقالة هو الذي أرسله فإنها رأت أن الفطر سليم دون شك. ولكن منذ ذلك الوقت كلما فكّرَتْ بأمر حبّات الفطر تلك ازدادت قناعة بأن منظرها لم يكن طبيعياً.

قلت له: هذا أمر طبيعي، فمنظر ذلك الفطر يكون في البداية

طبيعياً كغيره، ثم سرعان ما يميل لونه إلى البرتقالي مع بقع أرجوانية. إن طبقة الخدم هذه لا يفوتها تذكّر شيء إذا ما حاولت ذلك.

فهمت من زيارتي أن دينمان كان قد تجاوز مرحلة الكلام عند وصول الطبيب. لم يكن قادراً على بلع ريقه، ثم ما لبث أن توفي خلال دقائق معدودة. ويبدا أن الطبيب مقتنع تماماً بشهادة الوفاة التي أصدرها، ولكن السؤال الذي لم أستطع التأكد منه هو: كم من ذلك الموقف كان عناداً ومكابرة من جانب الطبيب وكم منه كان اعتقاداً صادقاً.

عدت إلى البيت مباشرة وسألت مابل بكل صراحة عن سبب شرائها للزرنيخ قائلة: لابد أن فكرةً ما كانت تدور في رأسك.

أجهشت مابل بالبكاء وقالت: أردت قتل نفسي. كنت في غاية التعاسة؛ ففكرت بأن أنهي الأمر كله.

- أما زلت تحتفظين بالزرنيخ؟

- لقد رميته في الواقع.

جلست هناك أقلب الأمور في عقلي مرة بعد مرة، ثم سألتها: ماذا حدث عندما شعر بالمرض؟ هل ناداك؟

- لا، بل قرع الجرس بقوة. لابد أنه قرعه عدة مرات، وأخيراً سمعته الخادمة دوروثي فأيقظت الطباخة ونزلا معاً. وعندما رأته دوروثي أحست بالرعب، فقد كان يتخبط ويغمغم بما يشبه الهلوسة. تركَت الطباخة معه وجاءت راكضة إليّ، فنهضت وذهبت إليه، وأدركت فوراً أنه يعاني من أمر خطير. ومن سوء الحظ أن بروستر،

الممرضة التي تعنى بالسيد دينمان العجوز، كانت مجازة تلك الليلة، ولذلك لم يكن في البيت من يعرف كيف يتصرف. أرسلتُ دوروثي لتحضر الطبيب وبقيت أنا والطباخة معه، ولكن بعد دقائق قليلة لم أعد أستطيع التحمل، فقد كان الأمر فظيعاً. ركضت عائدة إلى غرفتي وأقفلت الباب.

قلت: "تصرفك هذا أناني وقاسٍ جداً، وما من شك في أنه قد عقّد عليك الأمور منذ ذلك الحين. فلا بد أن تكون الطباخة قد رددته في كل مكان. آه، هذا أمر سيء". وبعد ذلك تحدثت مع الخدم. وقد أرادت الطباخة أن تحدثني عن الفطر، ولكنني أوقفتها، فقد سئمت من قصة الفطر تلك. وبدلاً من ذلك سألت الخادمتين بكل دقة عن حال سيدهما في تلك الليلة. وقد اتفقت الاثنتان على أنه كان يعاني من ألم عظيم، وأنه كان عاجزاً عن البلع، ولم يستطع الكلام إلاّ بصوت مخنوق، وعندما تكلم لم يعدُ كلامه أن يكون غمغمة لا معنى لها.

سألت بفضول: ماذا قال عندما كان يغمغم؟

- قال شيئاً ما عن نوعٍ من السمك، أليس كذلك؟

واستدارت تستعين بزميلتها فوافقتها دوروثي قائلة: كومة سمك... هراء من هذا القبيل. أدركت على الفور أن عقله لم يكن على حاله، المسكين.

لم يبدُ لي بالإمكان الحصول على أي شيء ذي معنى من هذا الكلام، ولذلك فقد ذهبت -كملجأ أخير- لرؤية بروستر الممرضة،

التي كانت امرأة نحيلة في نحو الخمسين من عمرها. قالت: من المؤسف أن لا أكون هنا في تلك الليلة، يبدو أن أحداً لم يحاول فعل شيء له حتى جاء الطبيب.

قلت بارتياب: أحسبه كان يهلوس، ولكن ذلك ليس من أعراض التسمم الغذائي، أليس كذلك؟

- هذا يعتمد على عوامل عديدة.

سألتها عن صحة العجوز دينمان فهزت رأسها بأسف وقالت: حاله سيء جداً.

- أهو ضعيف؟

- آه، لا. إنه قوي من الناحية الجسدية. كل ما فيه على ما يرام باستثناء نظره الذي يتدهور بشدة. يمكن أن يعيش أكثر منا جميعاً، ولكن عقله بدأ يتدهور بسرعة الآن. لقد سبق لي أن أبلغت السيد والسيدة دينمان بأنه يجب أن يوضع في مصحة عقلية، ولكن السيدة دينمان ترفض ذلك رفضاً باتاً.

من واجبي الإشارة إلى أن مابل كانت دوماً طيبة القلب. كان ذلك هو حال الأمور. ولقد فكرت وفكرت بالأمر من جميع جوانبه، ثم قررت أخيراً بأنه لا يوجد إلاّ إجراء واحد ينبغي اللجوء إليه. فنظراً للشائعات التي كانت تدور، ينبغي التقدم بطلب لاستخراج الجثة وإجراء تشريح مناسب لها لإخراس الألسن الكاذبة مرة وإلى الأبد. وقد أثارت مابل بالطبع ضجة حول هذا الأمر لأسباب عاطفية في غالبيتها، من قبيل إقلاق راحة الرجل في قبره... إلى آخر هذه الاعتبارات، ولكنني كنت حاسمة في موقفي.

ولن أطيل في هذا الجزء من القصة. فقد حصلنا على الإذن المطلوب، وجرت عملية التشريح، ولكن النتيجة لم تكن مقنعة كما ينبغي؛ لم يجدوا أثراً للزرنيخ، وكانت تلك نقطة جيدة، ولكن الكلمات الفعلية التي وردت في التقرير كانت تقول: «لا يوجد ما يُظهر الأسباب التي أدت إلى الوفاة».

وهكذا، لم يُفضِ بنا ذلك إلى الخروج من المشكلة واستمر الناس في الأقاويل... حول سموم نادرة عصيّة على الكشف، إلى آخر تلك المعزوفة السخيفة. ولقد رأيت الطبيب الذي قام بعملية التشريح، وسألته أسئلة عديدة حاول جاهداً التملص من الإجابة عن معظمها، ولكنني انتزعت منه ما يفيد بأنه يستبعد كثيراً أن يكون الفطر السام هو سبب الوفاة. كانت تجول في خاطري فكرة، فسألته إن كان يوجد سم معين يمكن أن يؤدي إلى تلك النتيجة. قدم لي شرحاً مسهباً أعترف بأنني لم أتابع معظمه، ولكن خلاصته كانت ما يلي: تلك الوفاة ربما حدثت بسبب مادة قلوية نباتية من نوع ما.

كانت الفكرة التي في ذهني هي التالية: لنفترض أن عرق الجنون كان يسري في دم جيوفري دينمان أيضاً، أليس من الممكن أن يكون قد انتحر؟ لقد سبق له أن درس الطب في إحدى مراحل حياته، ولا شك أن لديه معرفة جيدة بالسموم وتأثيراتها.

لم أكن أرى ذلك أمراً مرجَّحاً، ولكنه كان الاحتمال الوحيد الذي استطعت التفكير فيه. ولعل من الإنصاف أن أخبركم أنني كنت في يأس مطبق. ولعلكم -معشرَ الشباب المعاصر- تضحكون مما سأقوله، ولكنني عندما أقع في مشكلة عويصة تؤرقني أقوم عادة بالاستغراق

بالتأمل مع نفسي... وأقوم بذلك في أي مكان، سواء كنت أسير في شارع أو في سوق. وعادة ما أحصل على الإجابة. ربما جاء ذلك على شكل أمر تافه لا يلفت النظر ولا علاقة واضحة بينه وبين موضوع المشكلة، ولكن هذا ما يحدث. وفي صباح ذلك اليوم الذي نتحدث عنه كنت أسير في الشارع العام، وكنت غارقة في تأملاتي. أغمضت عينيّ، وعندما فتحتهما ماذا تظنونني رأيت أول ما رأيت؟

انشدّت خمسة وجوه إلى الآنسة ماربل بدرجات متفاوتة من الإهتمام. ولكن يمكن الافتراض بأن أحداً من الحاضرين ما كان له أن يحزر الإجابة على ذلك السؤال. قالت الآنسة ماربل بشكل مؤثر: **رأيت واجهة العرض في دكان بائع السمك**. وكان فيها شيء واحد فقط، **سمكة طازجة من سمك الحدوق**.

ثم نظرت حولها بشيء من الزهو فقال ريموند: يا إلهي، ألم تأتِ الاستجابة لتأملاتك إلاّ بسمكة حدوق طازجة!

قالت الآنسة ماربل بحدة: بلى يا ريموند، ولا حاجة لهذا الاستهزاء؛ إن قدرة الله تتجلى في كل مكان.

زفر السير هنري تململاً وربتت جويس على شفتها، ومضت الآنسة ماربل قائلة: والآن ما هو ذلك الشيء الذي أدركته من ذلك؟ كانت الطباخة والخادمة قد ذكرتا أن السمك كان أحد الأشياء التي قالها الرجل المحتضر. وقد كنت مقتنعة أشد الاقتناع بأن حل هذا اللغز يكمن في تلك الكلمات، فذهبت إلى البيت وأنا مصممة على الوصول إلى حقيقة الأمر.

توقفت العجوز قليلاً ثم مضت قائلة: هل سبق لكم أن فكّرتم

بالمدى الذي نعتمد فيه على ما يسمى سياقاً؟ وأعني بذلك سياق الكلام لا حرفياته. سأضرب لكم مثلاً لتوضيح فكرتي: يوجد مكان في منطقة دارتمور يسمى «غري ويذرز» (وهو يعني بلغتنا «الطقس الكئيب» كما تعلمون). فإن كنت تتحدث مع فلاح من أهل المنطقة هناك وذكرت «غري وذرز» فربما استنتج بأنك تتحدث عن المكان المسمّى بذلك، رغم أنك ربما كنتَ تتحدث فعلاً عن حالة الجو. وبالمقابل، فإذا كنت تقصد بكلامك المكان نفسه وسمع شخص غريب نتفاً من حديثك فربما ظن أنك تتحدث عن الطقس. وهكذا فإننا -عندما نكرر حديثاً- لا نعيد الكلمات ذاتها بالضبط، بل ربما استعملنا بعض المترادفات التي تعبر عن المعنى المقصود.

وهكذا عدت وقابلت الطباخة والخادمة كلاً على انفراد. سألت الطباخة إن كانت متأكدة تماماً من أن سيدها قد ذكر حقاً «كومة سمك» فقالت إنها متأكدة تماماً. سألتها: أكانت تلك كلماته بالضبط أم أنه ذكر نوعاً محدداً من السمك؟

- بل ذكر نوعاً محدداً لا أستطيع تذكره الآن. كومة من... ماذا كان اسمه؟ ليس من تلك الأنواع الشائعة التي تقدم على المائدة. أكان ذلك سمك الفرخ أم الكراكي؟ لا، لم يكن أياً من هذين.

تذكرت دوروثي أيضاً أن سيدها قد ذكر نوعاً معيناً من السمك، وقالت إنه كان سمكاً نهرياً من نوع ما. وتساءلَتْ: كومة من... من ماذا؟ هذا ما أريد تذكره.

حسناً؛ هما تحدثَتا عن «كومة» من السمك، وكما تعلمون نحن نستخدم في اللغة الإنكليزية كلمتين للدلالة على معنى الكومة:

الأولى «بَايْل» (pile) والثانية «هيب» (heap). سألتها أيّهما استعمل فقالت: أظنه استعمل كلمة «بايل»، ولكنني لا أستطيع الجزم تماماً... من الصعب تذكر الكلمات الدقيقة، أليس كذلك يا سيدتي؟ خاصة عندما لا يبدو لها معنى. ولكنني -وأنا أفكر بالأمر الآن- أصبحت متأكدة تماماً أنه استخدم كلمة «بايل»، أما السمك الذي ذكره فيبدأ اسمه بحرف الكاف، ولكنه ليس سمك الكد.

سكتت الآنسة ماربل لحظة ثم مضت قائلة: الخطوة التالية هي التي أشعرتني بالفخر بنفسي حقاً. أنا لا أعرف شيئاً عن العقاقير بالطبع، وأسميها مواد خطيرة. لقد تركت لي جدتي وصفةً لأعشاب الشفاء تساوي كل أدويتكم الحديثة، ولكنني كنت أعرف أن في البيت العديد من الكتب الطبية، وكان في أحدها فهرس بالأدوية والعقاقير. كانت فكرتي -كما ترون- أن جيوفري قد تناول سماً معيناً وكان يحاول النطق باسمه.

ذهبت إلى الفهرس وبدأت البحث في حرف الهاء لعلّه استخدم كلمة «هيب» بمعنى الكومة، فلم أجد ما يمكن أن يكون قريباً من ذلك. ثم قلت لنفسي: "لعله استخدم الكلمة الأخرى؛ «بايل»". فبدأت البحث في حرف الباء، وسرعان ما وصلت إلى... إلى ماذا برأيكم؟

ثم نظرت حولها وهي تؤجل لحظة انتصارها إلى أن قالت: إلى كلمة بايلوكاربين! هل بوسعكم فهم رجل لا يكاد يستطيع الكلام وهو يحاول جاهداً إخراج هذه الكلمة؟ كيف كان من شأن طباخة لم تسمع الكلمة من قبل أن تفهمها؟ ألن تعطيها انطباعاً بأنه يقول شيئاً من قبيل «بايْل أُفْ كارْب» (pile of carp)، أي: «كومة من سمك الشبوط»؟!

هتف السير هنري: يا إلهي!

السيد بيندر: ما كنت لأصل إلى مثل هذا التخمين أبداً.

السيد بيثيريك: أمر مثير جداً، مثير جداً بالفعل.

أكملت الآنسة ماربل: فتحت الكتاب فوراً على الصفحة التي ذكرها الفهرس، ثم قرأت عن البايلوكاربين وتأثيراته على العين، بالإضافة لأشياء أخرى لا علاقة لها بالقضية، ولكنني -في النهاية- وصلت إلى عبارة شديدة الأهمية والمغزى: **«وقد جُرِّب بنجاح كترياق ضد التسمم بالأتروبين»**.

لا يمكنني أن أصف لكم مقدار الوعي الذي نزل بي وقتها؛ إذ لم أكن أرى إقدام جيوفري دينمان على الانتحار أمراً محتملاً. نعم، إن هذا الحل الجديد لم يكن ممكناً فحسب بل كنت واثقة تماماً أنه الحل الصحيح؛ لأن كل التفصيلات أخذت مكانها الصحيح فيه بشكل منطقي.

قال ريموند: لن أحاول التخمين. استمري -يا خالة جين- وأخبرينا بذلك الشيء الذي بدا لك واضحاً تماماً.

الآنسة ماربل: أنا لا أعرف شيئاً عن الأدوية بالطبع، ولكنني كنت أعرف -بالمصادفة- أن نظري عندما كان يضعف أمرني الطبيب بأن أقطر في عيني قطرات من سولفات الأتروبين. وهكذا... ذهبت مباشرة إلى السيد دينمان العجوز وقلت له دون أية مقدمات: سيد دينمان، إنني أعرف كل شيء. لماذا سَمَمْتَ ابنك؟

نظر إليّ للحظات ثم انفجر ضاحكاً، وكانت ضحكته واحدة

من أكثر الضحكات التي سمعتها في حياتي شراً. وأؤكد لكم أن تلك الضحكة أشعرتني بالرعب؛ لم أكن قد سمعت ما يشبهها باستثناء مرة واحدة عندما فقدت السيدة المسكينة جونز عقلها.

ثم ما لبث العجوز أن قال: نعم، لقد اقتصصت من جيوفري. كنت أذكى منه بكثير! كان يسعى لإبعادي، أليس كذلك؟ يريد أن يحجر عليّ في مصحة عقلية؟ لقد سمعتهما يتحدثان بذلك. كانت مابل فتاة طيبة ودافعت عني، ولكني كنت أعرف أنها لن تستطيع الصمود أمام جيوفري؛ ففي النهاية سينفذ ما في رأسه، كان دوماً ينفذ ما عزم عليه. ولكنني تخلصت منه... تخلصت من ابني اللطيف المحب! ها ها ها! تسللت في الليل، كان الأمر سهلاً تماماً. كانت بروستر غائبة في إجازة، وكان ابني العزيز نائماً، وإلى جانب سريره كأس من الماء اعتاد أن يضعه وينهض ليلاً فيشربه. أفرغت الكأس من الماء... ها ها! وأفرغت زجاجة قطرة العين في الكأس. وبذلك سيستيقظ ويشرب القطرة قبل أن يدرك ما هي. لم يكن في الزجاجة إلاّ ما يملأ ملعقة كبيرة، ولكنها كمية كافية تماماً. وهذا ما حدث! جاؤوا إلي صباحاً وأفضوا إليّ بالخبر بكل لطف وحذر؛ إذ خافوا أن يؤثر عليّ العلم بالأمر. ها! ها! ها!

سكتت الآنسة ماربل قليلاً ثم قالت: حسناً، كانت تلك نهاية القصة. وقد وُضع العجوز المسكين في مصحة عقلية بالطبع؛ إذ لم يكن مسؤولاً حقاً عما فعله، وقد عُرفت الحقيقة وشعر الجميع بالأسف على مابل، وحاولوا جهدهم تعويضها عن الشكوك الظالمة التي عاملوها من خلالها. ولكن... لو لم يدرك جيوفري حقيقة المادة التي ابتلعها ولم يحاول دفع الجميع إلى إحضار الترياق الذي يبطل

مفعولها دون إبطاء، لولا ذلك لما عُرفت الحقيقة أبداً. أظن أن أعراضاً محددة تماماً تظهر على من يتناول الأتروبين، كاتساع بؤبؤ العين وغير ذلك، ولكن الدكتور رولينسن كان -كما قلت- يعاني من قصر نظر شديد. وفي نفس الكتاب الطبي الذي مضيت في قراءته -وكان بعضه مثيراً جداً- شرح لأعراض التسمم الغذائي ولأعراض الأتروبين، وهي أعراض بينها تشابه كثير. ثقوا أنني لم أرَ -من بعدُ- كوم سمك إلاّ تذكرت القصة!

ساد صمت طويل جداً، ثم قال السيد بيثيريك: يا صديقتي العزيزة، أنت حقاً مدهشة.

السير هنري: سأوصي سكوتلانديارد بطلب النصيحة منك.

ريموند: حسناً، يوجد -على كل حال- شيء واحد لا تعرفينه يا خالة جين.

الآنسة ماربل: آه، لا، بل أعرفه تماماً يا عزيزي. وقد حدث قبل العشاء تماماً، أليس كذلك؟ عندما أخرجتَ جويس للتمتع بمنظر الغروب. ذلك المكان مفضل تماماً، هناك بالقرب من سياج الياسمين. ذلك هو المكان الذي أعلن فيه بائع الحليب خطوبته على آني.

ريموند: بالله عليك يا خالتي، لا تفسدي رومانسية علاقتنا، فأنا وجويس لسنا كبائع الحليب وخطيبته آني.

الآنسة ماربل: هذا هو الخطأ في منطقك يا عزيزي؛ فالجميع متشابهون كثيراً في الواقع، ولكن ربما كان من حسن الحظ أنهم لا يدركون ذلك.

* * *

الفصل السابع
الزهرة الزرقاء

قال السير هنري: "عندما كنت هنا في العام الماضي..."، ثم سكت، فنظرت إليه مضيفته السيدة بانتري بفضول.

كان السير هنري، رئيس شرطة سكوتلانديارد السابق، يحل ضيفاً على صديقين قديمين له هما الكولونيل بانتري وزوجته اللذان يعيشان قرب قرية سينت ميري ميد. كانت السيدة بانتري، والقلم بيدها، قد طلبت لتوها نصيحته بشأن الشخص الذي تنبغي دعوته ليصبح الضيف السادس على العشاء في ذلك اليوم. قالت له على سبيل التشجيع: نعم، عندما كنتَ هنا في العام الماضي؟

السير هنري: أخبريني، أتعرفين سيدة تدعى الآنسة ماربل؟

دهشت السيدة بانتري، فقد كانَ ذلك آخر ما توقعته. قالت: أعرف الآنسة ماربل؟ ومن لا يعرفها! الصورة النموذجية للعجوز كما تصورها القصص. إنها محبوبة تماماً، ولكنها قديمة تخطاها الزمن. أتعني أنك تريد مني دعوتها للعشاء؟

- أأنت مدهوشة لذلك؟

- أعترف أنني مدهوشة قليلاً، ما كنت لأظن أنك... ولكن ربما كان لديك تفسير، أليس كذلك؟

- التفسير بسيط تماماً. عندما كنت هنا في القرية في العام الماضي اعتدنا أن نناقش ألغازاً لم يجرِ حلها. كنا خمسة أو ستة، وابتدأ الأمر على يد ريموند وست الروائي، وقد روى كلٌّ منا قصةً كان يعرف حلها وحده دون غيره. كان المفترض أن يكون ذلك تمريناً لملَكة التحري عند كلٍّ منا لنرى من منا يستطيع الاقتراب من الحقيقة أكثر من غيره.

- نعم، وبعد ذلك؟

- وكما يحدث في القصص... لم نكَدْ نشعر أنها سوف تشاركنا اللعبة، ولكننا أشركناها أدباً إذ لم نُرِد جرح مشاعر العجوز العزيزة. ولكن المهم في الموضوع أن العجوز فاقتنا جميعاً في كل مرة!

- ماذا؟!

- أؤكد لك أنها كانت تصل إلى الحقيقة مباشرة كما تصل الحمامة إلى عشها دون عناء.

- ما أغرب ذلك! إن العجوز العزيزة لم تكد تغادر قرية سينت ميري ميد في حياتها.

- آه، ولكنها تقول إن ذلك قد منحها فرصة لا حدود لها لمراقبة الطبيعة البشرية... كما لو كانت تراقبها تحت المجهر.

- أحسب أن في ذلك بعض الصحة. من شأن المرء على الأقل أن يعرف الجانب اليومي التافه من حياة الناس. ولكن لا أظن أن لدينا مجرمين مثيرين حقاً هنا بيننا. أحسب أن علينا أن نجربها في قصة شبح آرثر بعد العشاء. سأكون ممتنّة لها إن وجدَتْ حلاً لتلك المسألة.

- لم أكن أعرف أن آرثر يؤمن بالأشباح.

- آه! إنه لا يؤمن بها، وهذا ما يؤرقه كثيراً. وقد حدث الأمر مع صديق له يدعى جورج بريتشارد، وهو شخص عادي تماماً. والأمر مأساوي حقاً بالنسبة لجورج المسكين. إما أن تكون هذه القصة الغريبة صحيحة، أو أنها...

- أو أنها ماذا؟

لم تجب السيدة بانتري. وبعد لحظات قالت بشكل لا علاقة له بالموضوع: أتدري؟ الجميع يحبون جورج. لا يمكن للمرء أن يصدق أنه... ولكن الناس يقومون أحياناً بمثل هذه الأمور الغريبة.

أومأ السير هنري برأسه موافقاً. فقد كان يعرف أكثر من السيدة بانتري الأشياء التي يقوم بها الناس.

وهكذا حدث أن السيدة بانتري نظرت في ذلك المساء حول طاولة طعامها (وهي ترتجف قليلاً لأن غرفة الطعام كانت باردة جداً كشأن أغلب غرف الطعام الإنكليزية) ثم ركزت نظرتها على العجوز التي تجلس منتصبة الظهر إلى يمين السيد بانتري. كانت الآنسة ماربل تلبس قفازاً أسود مطرزاً، وتضع شالاً عتيقاً أسود حول كتفيها ومنديلاً يغطي شعرها الأبيض. كانت تتحدث بحيوية مع الطبيب

الكهل الدكتور لويد حول مأوى الفقراء وحول العيوب والنقائص التي يُشَك بوجودها في الممرضة الجوالة للمنطقة.

ولقد تعجبت السيدة بانتري مجدداً، بل إنها تساءلت فيما إذا كان السير هنري قد قصد المزاح عامداً في حديثه عن قدرات الآنسة ماربل... ولكن لم يبدُ هدف يدفعه لذلك. أمر عجيب أن يكون ما قاله صحيحاً.

انتقلت نظرتها لتستقر بمحبة على زوجها ذي الوجه الأحمر الذي جلس يحدّث جين هيلر، الممثلة الشهيرة الجميلة، عن الخيول. وكانت جين (التي هي أكثر جمالاً في حقيقتها مما تبدو على خشبة المسرح) تفتح عينيها الزرقاوين الواسعتين وتتمتم بين حين وآخر: "حقاً؟"، "آه، هكذا!"، "ما أغرب ذلك!". لم تعرف عن الخيول شيئاً، بل إن اهتمامها بالموضوع كان أقل من معرفتها به.

قالت السيدة بانتري: آرثر، أنت تثير ملل المسكينة جين بحيث شرد ذهنها. دعك من الخيول وأخبرها بقصة الشبح بدلاً من ذلك. أعني قصة جورج بريتشارد.

أجابها زوجها: ماذا يا دولي؟ آه! لا أدري إن كان...

- السير هنري يريد سماعها أيضاً. كنت أُخبره بأمرها صباح اليوم. سيكون ممتعاً أن نسمع رأي كل واحد بهذه القصة.

قالت جين: آه، اروها لنا! إنني أحب قصص الأشباح.

تردد الكولونيل بانتري ثم قال: حسناً، أنا لا أؤمن بالخوارق كثيراً. أما هذه... لا أظن أن أياً منكم يعرف جورج بريتشارد. إنه

من أفضل الناس. أما زوجته، وهي ميتة الآن، فسأكتفي بالقول إنها لم تتركه يشعر بالراحة أبداً عندما كانت على قيد الحياة. كانت شبه مُقعَدة تقريباً وأظنها كانت حقاً مصابة بشيء ما، ولكنها استغلت مرضها -كائناً ما كان نوعه- أبشع استغلال. كانت مزاجية كثيرة الشكوى غير معقولة. كانت تشكو صباح مساء، وتتوقع من جورج أن يقوم على رأسها خادماً بكل طاقته، وكل ما يفعله خطأ يستحق عليه التوبيخ. أنا مقتنع تماماً أنه كان من شأن معظم الرجال أن يضربوا رأسها بالبلطة منذ أمد طويل. ما رأيك يا دولي، ألم يكن الأمر كذلك؟

قالت السيدة بانتري بكثير من الاقتناع: كانت امرأة فظيعة. ولو أن جورج بريتشارد ضربها ببلطة وكان في هيئة محلفي المحكمة أي امرأة لبُرئت ساحته بالتأكيد.

تابع السيد بانتري قائلاً: لا أدري تماماً كيف بدأ هذا الأمر، إذ لم يكن جورج واضحاً تماماً فيما يخص ذلك. فهمت أنه كان لدى السيدة بريتشارد دوماً ميل إلى المنجمين بجميع أنواعهم، من قراء الكف إلى المستبصرين إلى آخر تلك الطائفة. ولم يكن جورج يرى في ذلك بأساً، فإن كانت تجد فيه تسلية فليكن، ولكنه كان يرفض الذهاب إلى تلك الجلسات، وكان ذلك مصدر شكوى أخرى لزوجته.

وقد جرت العادة أن تتعاقب العديد من الممرضات على العمل في البيت، إذ اعتادت السيدة بريتشارد أن تفقد قناعتها بكل ممرضة بعد بضعة أسابيع من عملها. ولكن واحدة من الممرضات الشابات كانت شديدة التعلق باستعراضات التنجيم تلك، فتعلقت السيدة

بها كثيراً لفترة من الوقت. ثم تشاجرت معها فجأة وأصرت على إخراجها، وأعادت ممرضة أخرى كانت قد خدَمَتْها من قبل، وكانت أكبر عمراً وذات خبرة ولباقة في التعامل مع مرضى الأعصاب. كانت الممرضة كوبلنغ -كما يقول جورج- من نوعية جيدة جداً وذات عقل راجح يجعل محادثتها ممتعة، وقد تكيفت مع نوبات السيدة بريتشارد العصبية بكل برود وعدم اهتمام.

اعتادت السيدة بريتشارد أن تتناول غداءها في الطابق العلوي، كما جرت العادة أن يقوم جورج والممرضة عند الغداء بوضع بعض الترتيبات لفترة ما بعد الظهر. كانت الممرضة تأخذ فرصة من العمل ما بين الساعة الثانية والرابعة من بعد الظهر، ولكن كان من شأنها أن تأخذ تلك الفرصة بعد موعد تناول الشاي -من باب التفضل كما يقال- إن أراد جورج أن يكون حراً في فترة بعد الظهر. وفي هذه المناسبة أشارت إلى أنها ذاهبة لرؤية أخت لها في غولدرز غرين وأنها ربما تأخرت قليلاً في العودة. وقد خاب لذلك أمله، إذ كان ينوي لعب جولة من الغولف. ولكن الممرضة كوبلنغ طمأنته قائلة: "لن يضيّع أيٌّ منا شيئاً يا سيد بريتشارد". ثم طرفت بعينها قليلاً وأضافت: ستكون للسيدة بريتشارد رفقة أكثر إمتاعاً من رفقتنا نحن.

سألها: "من تقصدين؟"، فطرفت عينا الممرضة أكثر من ذي قبل وقالت: لحظة، دعني أتذكر الاسم تماماً. ستكون عندها زاريدا، المستبصرة بالمستقبل.

زمجر جورج قائلاً: آه، يا إلهي! أهذه منجمة جديدة؟

- جديدة تماماً. أظن أن الممرضة التي سبقتني، كارستيرز،

هي التي أرسلتها. لم ترها السيدة بريتشارد بعد، إذ كانت قد طلبت مني أن أكتب لها رسالة لتحديد موعد بعد ظهر اليوم.

قال جورج: "حسناً، سيكون بوسعي لعب جولة من الغولف على كل حال". ثم خرج وهو يشعر بعظيم الامتنان لتلك العرافة زاريدا، قارئة المستقبل.

وعند عودته إلى البيت وجد زوجته في حالة من الهياج الشديد. كانت تتمدد كعادتها على أريكة العجزة الخاصة بها وفي يدها زجاجة عطوس تستنشق منها بين حين وآخر. هتفت قائلة: جورج، ماذا قلت لك بشأن هذا البيت؟ من لحظة وصولي إليه شعرتُ أن به شيئاً غير طبيعي! ألم أقل لك ذلك وقتها؟

كبت جورج رغبة بأن يجيبها: "هذا دوماً ما تقولينه" وقال بدل ذلك: أنا لا أذكر هذا الأمر.

- أنت لا تتذكر أي شيء له علاقة بي. الرجال جميعاً لا شعور لديهم أبداً، ولكني أرى فعلاً أنك أقل إحساساً من غالبيتهم!

- آه، على رسلك يا عزيزتي ماري، فهذا ليس إنصافاً.

- كما كنت أقول لك، لقد عرفَتْ هذه المرأة على الفور! حتى إنها تقبضت خوفاً عند دخولها من الباب إن كنتَ تدرك ما أعنيه، قالت: "يوجد شر هنا... شر وخطر. إنني أشعر بذلك".

ضحك جورج بشكل يفتقر إلى الحكمة وقال: حسناً، لقد حصلتِ -إذن- على مقابل لنقودك اليوم.

أغمضت زوجته عينيها وأخذت نشقة طويلة من زجاجة العطوس ثم قالت: لشدّما تكرهني! سوف تهزأ وتضحك لو كنت أموت.

احتجّ جورج، وبعد لحظات أكملت الزوجة تقول: بوسعك أن تضحك، ولكني سأخبرك بالأمر كله. إن هذا البيت خطير عليّ بالتأكيد... لقد قالت المرأة ذلك.

تغيرت مشاعر جورج الإيجابية السابقة تجاه زاريدا. كان يعلم أن زوجته قادرة تماماً على الإصرار على الانتقال إلى بيت جديد إن تملكتها النزوة؛ لذلك سألها: وماذا قالت أيضاً؟

- لم تستطع إخباري بالكثير. كانت منزعجة جداً، ولكنها قالت شيئاً واحداً. كانت بعض أزهار البنفسج الزرقاء موجودة في كأس، فأشارت إليها وصاحت: ألقِ هذه بعيداً! لا تضعي زهوراً زرقاء... لا تدخليها بيتك أبداً. الزهور الزرقاء قاتلة بالنسبة لك. . . تذكّري ذلك!

ثم مضت السيدة بريتشارد تقول: وأنت تعرف أنني كنت أخبرك دوماً بأنني أمقت اللون الأزرق... أشعر تجاهه بنوع من التحذير الغريزي الطبيعي.

وكان جورج أكثر حكمة من أن يقول لها إنه لم يسمعها تقول ذلك أبداً من قبل. وبدل ذلك سألها عن شكل تلك المرأة الغامضة زاريدا، فانخرطت في الوصف بكل حماسة: شعر أسود معقوص على شكل لفافات فوق أذنيها، وعينان نصف مغمضتين حولهما

دوائر كبيرة سوداء. وكانت تضع خماراً يغطي فمها وتتحدث بصوت أشبه بالغناء ذي لكنة أجنبية واضحة... أظنها لكنة إسبانية.

علق جورج بمرح: أي أن معها كل عدة النصب المعتادة.

أغلقت زوجته عينيها على الفور وقالت: أشعرُ أنني مريضة جداً. اقرعِ الجرس طلباً للممرضة؛ إن قلة اللطف تزعجني كما تعلم جيداً.

بعد يومين من ذلك جاءت الممرضة كوبلنغ إلى جورج متجهمة الوجه وقالت: هل لك أن تأتي إلى السيدة بريتشارد رجاء؟ لقد تلقت رسالة ضايقتها كثيراً.

وجد زوجته والرسالة في يدها. مدتها إليه وقالت: اقرأها.

قرأ جورج الرسالة. كانت مكتوبة على ورق يفوح منه العطر، وكانت الكتابة كبيرة الأحرف سوداء:

لقد رأيت المستقبل. احذري قبل أن يفوت الأوان. احذري اكتمال البدر. زهرة الربيع الزرقاء تعني التحذير، زهرة الخطمي الزرقاء تعني الخطر، زهرة إبرة الراعي الزرقاء تعني الموت...

وفيما كان جورج على وشك الانفجار ضحكاً لمح نظرة الممرضة التي قامت بإشارة تحذير سريعة، فقال بشكل مضطرب: ربما كانت المرأة تخيفك يا ماري. وليس لدينا هنا زهور ربيع أو إبر رعاة على أية حال.

ولكن السيدة بريتشارد بدأت تبكي وتقول إن أيامها معدودة.

خرجت الممرضة كوبلنغ مع جورج إلى استراحة الدرج في الخارج، فانفجر الرجل قائلاً: يا لهذا السخف المجنون!

- أظنه كذلك.

ولكن شيئاً في نبرة صوت الممرضة أثار انتباهه فحدق إليها مدهوشاً وقال: لا أظنك تؤمنين حقاً بهذا!

- نعم يا سيد بريتشارد؛ أنا لا أؤمن بقراءة المستقبل، فهذا سخف بالغ. إن ما يحيرني هو معنى هذا الأمر. فالعرافون يسعون عادة إلى ما يستطيعون الحصول عليه. ولكن الظاهر أن هذه المرأة تحاول إخافة السيدة بريتشارد دون أن يكون لها مصلحة في ذلك. لا أرى معنى لذلك. وأمرٌ آخر...

- ما هو؟

- تقول السيدة إن في زاريدا شيئاً بدا لها مألوفاً بعض الشيء.

- وماذا في ذلك؟

- أنا غير مرتاحة للأمر يا سيد بريتشارد، هذا كل شيء.

- لم أكن أعلم أنك تؤمنين بالخرافات أيتها الممرضة.

- لا أؤمن بالخرافات، ولكنني أعرف متى يوجد ما يبعث على الريبة.

بعد هذا الحديث بنحو أربعة أيام وقع أول حادث. وحتى أشرحه لكم لا بد لي من وصف غرفة السيدة بريتشارد...

قاطعته زوجته السيدة بانتري قائلة: الأفضل أن تترك ذلك لي. كانت الغرفة مغطاة بورق جدران من ذلك النوع الجديد الذي يضعون عليه أجمات من الشجيرات والزهور بحيث يعطي شكل سياج من الشجيرات المزهرة، ويكاد تأثيره يكون كالجلوس في حديقة... مع أن وضع الأزهار كله خطأ بالطبع. أعني أن تلك الأزهار لا يمكن تزهر كلها في وقت واحد.

قال زوجها: لا تدعي حبّك للبستنة يأخذك بعيداً يا دولي... كلنا نعرف حبك للحدائق وتنسيقها.

احتجت السيدة بانتري قائلة: ولكن ذلك سخيف فعلاً؛ أن تجمع في منظر واحد أزهار النرجس والترمس والخطمي والنجمية.

قال السير هنري: هذا أبعد ما يكون عن العلم، ولكن تابعي القصة.

- حسناً، كان بين تلك الأزهار الكثيفة الكثيرُ من زهرة الربيع، باقات صفراء وقرمزية من زهرة الربيع ثم... آه، أكمل أنت يا آرثر، فالقصة قصتك.

تابع الكولونيل بانتري القصة: قرعت السيدة بريتشارد جرسها بقوة صباح أحد الأيام، فجاء أهل البيت راكضين وقد ظنوها تنازع الموت. ولكن، أبداً! كانت في منتهى الانفعال وهي تشير إلى ورق الجدران، وهناك كانت زهرة ربيع واحدة في وسط باقي الزهور.

قالت الآنسة هيلر: آه! كم هو مرعب!

- كان السؤال هو: ألم تكن زهرة الربيع دائماً هناك؟ هذا ما طرحه جورج والممرضة، ولكن السيدة بريتشارد ما كانت لتقتنع

بأية طريقة، فقد أكدت أنها لم تر الزهرة أبداً حتى ذلك الصباح تحديداً، كما أن القمر كان بدراً في الليلة السابقة. وكانت في غاية الاضطراب بسبب ذلك.

قالت السيدة بانتري: قابلت جورج بريتشارد في ذلك اليوم نفسه وأخبرني بالقصة. ذهبت لأرى السيدة بريتشارد وأبذل جهدي في إقناعها بسخافة الأمر، ولكنني لم أنجح. وقد عدت وأنا مهمومة حقاً، وأتذكّر أنني قابلت جين إنستاو وأخبرتها بالأمر. وجين فتاة غريبة، فقد قالت: "أهي منزعجة جداً من ذلك إذن؟". أخبرتها بأن المرأة لديها القابلية التامة لأن تموت من الرعب؛ فقد كانت حقاً شديدة الاعتقاد بالخرافات.

وأذكر أن جين أجفلتني قليلاً بما قالته بعد ذلك. فقد قالت: "حسناً، ربما كان ذلك كله أفضل، أليس كذلك؟". وقد قالت ذلك بكل برود، وبنبرة واقعية جعلتني... جعلتني أُصدم بها. إنني أعرف طبعاً أن من الشائع في هذه الأيام أن يكون المرء قاسياً لا يتردد عن قول شيء، ولكنني لم أعتد ذلك أبداً. ابتسمت لي جين بشكل غريب نوعاً ما وقالت: "أنت لا تحبين قولي هذا... ولكنها الحقيقة. ما فائدة حياة السيدة بريتشارد لها؟ لا فائدة منها أبداً، وهي الجحيم بالنسبة لجورج بريتشارد. ولذلك فإن إخافتها حتى الموت سيكون أفضل ما يمكن أن يحدث له". قلت لها: "إن جورج في غاية الطيبة معها دوماً". فقالت: "نعم، وهو يستحق جائزة على ذلك، ذلك المسكين العزيز. إنه شخص جذاب جداً، وقد رأته الممرضة الأخيرة كذلك. تلك الممرضة الجميلة... ماذا كان اسمها؟ كارستيرز. كان ذلك هو سبب المشاجرة بينها وبين السيدة بريتشارد".

وختمت السيدة بانتري بقولها: لم يعجبني سماع جين وهي تقول ذلك. بالطبع كان المرء قد تساءل...

ثم سكتت سكوتاً ذا مغزى، فقالت الآنسة ماربل بهدوء: نعم يا عزيزتي، المرء يتساءل دوماً. هل الآنسة إنستاو فتاة جميلة؟ أظنها تلعب الغولف؟

- نعم، إنها ماهرة في كل الألعاب. وهي جميلة جذابة ذات بشرة بيضاء، ولها عينان زرقاوان جميلتان. لقد كنا نشعر دوماً أنها وجورج بريتشارد مناسبان تماماً بعضهما لبعض... أعني لو كانت الأمور مختلفة.

سألت الآنسة ماربل: وهل كانا صديقين؟

- آه، نعم؛ كانا صديقين حميمين.

شكا الكولونيل بانتري قائلاً: أتساءلُ -يا دولي- إن كنت ستسمحين لي بالاستمرار في قصتي؟

قالت السيدة بانتري طائعة: يريد آرثر العودة إلى موضوع أشباحه.

أكمل الكولونيل بانتري: بقية القصة سمعتها من جورج نفسه. لا شك أن السيدة بريتشارد خافت كثيراً عند نهاية الشهر التالي. وقد أشّرتْ على مفكرة لديها اليوم الذي يكتمل فيه البدر، وفي تلك الليلة استدعت إلى غرفتها الممرضة وزوجها وجعلتهما يتفحصان ورق الجدران جيداً. كانت عليه أزهار خطمي وردية وحمراء، ولكن لم

يكن بينها زهرة زرقاء. ثم قامت السيدة بريتشارد بإقفال باب الغرفة بعد خروج جورج.

قالت الآنسة هيلر بمرح: وفي الصباح كانت عليه -دون شك- زهرة خطمي زرقاء كبيرة.

- هذا صحيح تماماً، أو أنه صحيح تقريباً على أية حال. كانت إحدى زهرات الخطمي قد غدت زرقاء فوق رأس السيدة بريتشارد تماماً. وقد أذهل ذلك جورج، ولكنه بقدر ما ذهل للأمر بقي رافضاً النظر بجدية إليه. أصر على أن الأمر كله لا يعدو أن يكون طرفة من نوع ما، متجاهلاً حقيقة إقفال الباب، وقد تم التسليم بحقيقة أن السيدة بريتشارد قد اكتشفت التغيير قبل دخول أحد آخر، بما في ذلك الممرضة كوبلنغ.

احتار جورج في هذا الأمر الذي جعله لا يتصرف بعقلانية. أرادت زوجته مغادرة المنزل فلم يدعها تغادره. وقد مال -لأول مرة في حياته- إلى تصديق الخوارق، ولكنه لم يكن ليعترف بذلك. كان عادةً ما يذعن لزوجته، ولكنه رفض الإذعان هذه المرة. قال إن على ماري أن لا تجعل من نفسها أضحوكة، فالأمر كله هراء لا معنى له.

وهكذا انقضى الشهر التالي. وكانت احتجاجات السيدة بريتشارد أقل مما كان سيتصوره المرء. أظن أن إيمانها بالخرافات كان كبيراً بحيث آمنت بأنها لن تستطيع الهرب من قدرها. ظلت تكرّر مراراً: "زهرة الربيع الزرقاء... تحذير. زهرة الخطمي الزرقاء... خطر. زهرة إبرة الراعي الزرقاء... موت". وكانت تستلقي وتنظر

إلى مجموعة أزهار إبرة الراعي الوردية المائلة للحمرة على الحائط قرب سريرها.

كان الوضع كله حساساً مثيراً للأعصاب. وقد أصيبت الممرضة بالعدوى؛ فقد جاءت إلى جورج قبل اكتمال البدر بيومين وتوسلت إليه أن يأخذ السيدة بريتشارد بعيداً عن المنزل، ولكنه غضب وصاح قائلاً: لو أن كل الأزهار على ذلك الحائط التعس انقلبت شياطين زرقاً لما استطاعت قتل أحد!

- بل ربما استطاعت؛ لقد قتلت الصدمة أناساً من قبل.

- هراء.

لقد كان جورج دوماً عنيداً بعض الشيء، فلا يمكن لأحد أن يسيره. وأحسب أن فكرة خفية كانت لديه مفادها أن زوجته هي التي أجرت التغيير بنفسها وأن الأمر كله كان خطة جهنمية هستيرية من خططها. ثم جاءت الليلة المشؤومة، وأقفلت السيدة بريتشارد الباب كعادتها. كانت هادئة جداً، بل كانت في حالة ذهنية تكاد توحي بالجلال. وقد قلقت الممرضة لحالتها وأرادت إعطاءها دواء منشطاً؛ إبرة سترايكنين، ولكن السيدة بريتشارد رفضت ذلك. وأظنها كانت تستمتع بوضعها على نحو ما... هذا ما رآه جورج على الأقل.

قالت السيدة بانتري: أظن ذلك ممكناً تماماً!

- صباحَ اليوم التالي لم يُسمع قرعٌ عنيف للجرس. كانت السيدة بريتشارد تنهض عادة في نحو الثامنة، وعندما لم يبدر من غرفتها شيء حتى الثامنة والنصف دقت الممرضة باب الغرفة بقوة. وإذ لم

تلقَ جواباً ذهبت وأحضرت جورج وأصرت على كسر الباب. وقد كسر الإثنان الباب باستخدام إزميل.

كانت نظرة واحدة إلى الجسد الممدد في الفراش كافية بالنسبة للممرضة كوبلنغ. أرسلت جورج ليتصل بالطبيب، ولكن الوقت كان قد فات؛ إذ قال الطبيب إن السيدة بريتشارد قد مضى على موتها ثماني ساعات على الأقل. كانت زجاجة عطوسها ملقاة قرب يدها على السرير، وعلى الحائط قربها كانت إحدى زهرات إبرة الراعي الوردية المحمرة قد أصبحت زرقاء غامقة لامعة.

ارتعدت الآنسة هيلر قائلة: أمر رهيب!

سأل السير هنري وهو متجهم الوجه: أما من تفصيلات إضافية؟

هز الكولونيل بانتري رأسه بالنفي، ولكن السيدة بانتري تكلمت بسرعة قائلة: الغاز.

السير هنري: ماذا عن الغاز؟

الكولونيل بانتري: عندما وصل الطبيب إلى هناك شعر برائحة غاز بسيطة، ولدى البحث وجد أن صمام غاز الموقد غير محكم الإغلاق، ولكن ذلك كان قليلاً بحيث لا يمكن أن يكون له أثر.

السير هنري: ألم يلاحظ جورج والممرضة وجود تلك الرائحة عندما دخلا أول مرة؟

الكولونيل بانتري: قالت الممرضة إنها أحست بقليل من رائحة

الغاز. أما جورج فقد قال إنه لم يلاحظ ذلك، ولكن شيئاً ما قد جعله يشعر شعوراً غريباً وكأنه منهك لا حيلة له، وقد عزا ذلك إلى الصدمة... وربما كانت كذلك بالفعل. على كل حال لم تكن في الأمر مسألة تسمم بالغاز، ولم تكد الرائحة تكون ملحوظة.

السير هنري: أتلك هي نهاية القصة؟

الكولونيل بانتري: لا، ليست نهايتها. فبطريقة أو بأخرى جرى تداول كلام وأقاويل. كان الخدم قد سمعوا أموراً... سمعوا -مثلاً- السيدة بريتشارد وهي تقول لزوجها إنه يكرهها وإنه سيفرح لو رآها تنازع، كما سمعوا عبارات أخرى قيلت بعد ذلك. كانت قد قالت يوماً بخصوص رفضه مغادرة المنزل: "حسناً، عندما أموت، فإنني آمل أن يدرك الجميع أنك قتلتني". ومما زاد في سوء الطالع أنه كان يخلط قبل يوم من ذلك مادة قاتلة للأعشاب الضارة، وقد رآه أحد الخدم الشباب بعد ذلك وهو يأخذ كأساً من الحليب الحار لزوجته.

وقد انتشر الحديث وتنامى. كان الطبيب قد أصدر شهادة وفاة، ولا أدري بماذا بررها... بصدمة أو هبوط في الضغط أو أزمة قلبية، شيء من تلك المفردات الطبية التي لا تعني الكثير. ومع ذلك لم تكد السيدة المسكينة تستقر شهراً في قبرها حتى قُدّم التماس يطلب استخراج الجثة وتمت الموافقة عليه.

السير هنري: وأذكر أن نتيجة التشريح كانت سلبية، كانت تلك -في هذه المرة- حالة دخان بلا نار.

قالت السيدة بانتري: الأمر كله غريب جداً في الواقع. فتلك

المنجمة مثلاً... زاريدا، عندما ذهبوا إلى العنوان الذي يُفترض أنها تسكنه لم يجدوا أحداً قد سمع بامرأة كهذه!

الكولونيل بانتري: ظهرت مرة واحدة... فجأة من الفراغ، ثم اختفت تماماً.

السيدة بانتري: والأدهى أن الممرضة الشابة كارستيرز، التي كان يُفترض أنها هي التي أوصت السيدة بريتشارد بها لم تكن قد سمعت بتلك المنجمة أبداً.

تبادل الجميع النظرات، وقال الدكتور لويد: "إنها قصة غامضة. يمكن للمرء أن يخمن، ولكن مسألة التخمين..."، ثم هز رأسه بالرفض.

قالت الآنسة ماربل بصوت رقيق: وهل تزوج السيد بريتشارد الآنسة إنستاو؟

السير هنري: ولماذا تسألين ذلك؟

فتحت الآنسة ماربل عينيها الناعمتين الزرقاوين وقالت: يبدو لي ذلك مهماً جداً. هل تزوّجا؟

هز الكولونيل بانتري رأسه بالنفي وقال: لقد توقعنا شيئاً من هذا القبيل، ولكن ها قد مضى على ذلك سنة ونصف الآن. حتى إنني لا أظنهما يتقابلان كثيراً.

الآنسة ماربل: هذا أمر مهم، مهم جداً.

السيدة بانتري: إذن فأنت ترين نفس ما أراه. ترين أن...

قاطعها زوجها قائلاً: كفي يا دولي، إن ما تقولينه غير مبرَّر. لا يمكنك المضي في اتهام الناس دون أدنى دليل.

السيدة بانتري: لا تكن... لا تكن مثل كل الرجال يا آرثر. إنهم يخشون دوماً قول أي شيء، وما أقوله محصور بيننا على أية حال. إنها مجرد فكرة خيالية أتتني على غير هدى، وهي أن من الممكن، من الممكن فقط... أن تكون جين إنستاو قد تنكرت على شكل منجمة. ولكن تذكروا أنها ربما قامت بذلك على سبيل المزاح. لا أظن -لحظة واحدة- أنها كانت تقصد الأذى، ولكن إن كانت قد فعلتها، وإن كانت السيدة بريتشارد من الحماقة بحيث تموت رعباً... فهذا ما عنته الآنسة ماربل، أليس كذلك يا آنسة ماربل؟

الآنسة ماربل: ليس هذا بالضبط يا عزيزتي؛ فلو كنت سأقتل أحداً... وهو ما لا أحلم بفعله دقيقة واحدة بالطبع لأنه عمل شرير، كما أنني لا أحب القتل... ولا حتى قتل الزنابير، رغم معرفتي بأنها يجب أن تقتل، وأنا واثقة من أن البستاني يقوم بذلك بكل ما يستطيع من رقة وشفقة... ولكن ما الذي كنت أقوله؟

السير هنري: لو كنت تريدين قتل أحد...

الآنسة ماربل: آه، نعم. لو كنت كذلك لما قنعت أبداً بأن أَكِلَ ذلك للرعب. أعلمُ أن المرء يقرأ عن أناس يموتون من الرعب، ولكن تلك تبدو طريقة غير مؤكدة أبداً، فأكثر الناس عصبية يكونون أكثر شجاعة بكثير مما نظنهم. كان من شأني أن أختار طريقة أكثر تحديداً وتأكيداً وأن أضع لها خطة شاملة جيدة.

السير هنري: إنك تخيفينني يا آنسة ماربل. أرجو أن لا تتمني قتلي؛ إذ أن خططك ستكون محكمة جداً.

نظرت إليه الآنسة ماربل نظرة تأنيب وقالت: أظنني أوضحت أنني ما كنت لأفكر بمثل هذا العمل الشرير. كلا، كنت أحاول فقط وضع نفسي مكان... مكان شخص معين.

الكولونيل بانتري: أتعنين جورج بريتشارد؟ لن أصدق ذلك على جورج أبداً... رغم أن الممرضة نفسها ترى ذلك؛ فقد ذهبتُ ورأيتها بعد نحو شهر من ذلك، وقت استخراج الجثة. لم تكن تعرف كيف تم ذلك، والحقيقة أنها لم تشأ قول شيء أبداً... ولكن كان من الواضح تماماً أنها ترى أن جورج مسؤول بطريقة أو بأخرى عن موت زوجته، كانت مقتنعة بذلك.

الدكتور لويد: حسناً، ربما لم تكن مخطئة كثيراً. تذكّروا أن الممرضات يعرفن الأمور دائماً. لم يكن ممكناً لها أن تقول شيئاً، فهي لا تملك دليلاً، ولكنها تعرف.

انحنى السير هنري إلى الأمام وقال مخاطباً الآنسة ماربل بإقناع: هيا يا آنسة ماربل، لقد سرحتِ في أحلام اليقظة. ألن تخبرينا كل شيء عن الموضوع؟

جفلت الآنسة ماربل واحمر وجهها وقالت: إنني آسفة. كنت أفكر في ممرضة المقاطعة عندنا... مشكلة صعبة جداً.

- أكثر صعوبة من مشكلة زهرة إبرة الراعي الزرقاء؟

الآنسة ماربل: الأمر يعتمد على زهور الربيع. أعني أن السيدة بانتري قالت إن زهرات الربيع كانت صفراء ووردية، فإن كانت زهرة ربيع وردية هي التي انقلبت إلى اللون الأزرق فهذا يناسب القضية ويفسرها تماماً، ولكن إن صدف وكانت زهرة الربيع صفراء...

السيدة بانتري: بل كانت زهرة وردية اللون.

حدق الجميع إلى الآنسة ماربل فقالت: "هذا -إذن- ينهي الموضوع". ثم هزت رأسها بأسف وقالت: وهو موسم الزنابير وغير ذلك، بالإضافة إلى الغاز.

السير هنري: أحسب أن ذلك يذكّرك بما لا يحصى من مآسي القرية، أليس كذلك؟

الآنسة ماربل: ليست بالمآسي، كما أنها لم تكن أموراً جنائية بالتأكيد، ولكنها ذكرتني قليلاً بالمشكلة التي نعاني منها مع ممرضة القرية. فالممرضات بشر في نهاية الأمر، وبسبب اضطرارهن لأن يكنّ على درجة عالية من الدقة في سلوكهن، وإلى ارتداء تلك الياقات غير المريحة، وبسبب تعلقهن الزائد بالعائلة... هل يستغرب المرء بعد ذلك أن تحدث بعض الأمور؟

بدا وكأن السير هنري قد أتته فكرة ألمعية فقال: أتعنين الممرضة كارستيرز؟

ردّت الآنسة ماربل: آه، لا؛ لا أعني الممرضة كارستيرز بل الممرضة كوبلنغ. فقد كانت في المنزل من قبل، وكانت متعلقة بالسيد بريتشارد الذي تقولون إنه كان رجلاً وسيماً. أظنها فكّرت...

المسكينة! لا حاجة للخوض في ذلك. لا أظنها كانت تعلم بأمر الآنسة إنستاو، ولكن حين علمت بأمرها -بعد ذلك- انقلبت عليه وحاولت إيقاع كل ما تستطيعه من أذى. وبالطبع فإن الرسالة هي التي كشفت أمرها، أليس كذلك؟

- أي رسالة؟

- لقد كتبت إلى المنجّمة بناء على طلب من السيدة بريتشارد، وجاءت المنجمة جواباً على الرسالة ظاهرياً. ولكن تبين فيما بعد أن مثل هذا الشخص لم يعِش أبداً بذلك العنوان. وهذا يُظهر أن الممرضة كوبلنغ كانت ضالعة في الأمر. لقد اكتفت بالتظاهر بالكتابة، فما الذي يمكن أن يكون مرجحاً أكثر من كونها هي التي تقمصت دور المنجمة؟

السير هنري: أنا لم أنتبه أبداً لقضية الرسالة. تلك مسألة بالغة الأهمية بالطبع.

الآنسة ماربل: وهي خطوة لا تخلو من جرأة، لأنه كان بإمكان السيدة بريتشارد أن تكشف أمرها رغم التنكر... على أنها لو فعلت ذلك لاستطاعت الممرضة التظاهر بأنها تمزح مزاحاً لا غير.

السير هنري: ماذا قصدتِ عندما قلت بأنك لو كنت مكان شخص معين لما وكلت الأمر إلى الرعب وحده؟

الآنسة ماربل: "المرء لا يمكن أن يكون واثقاً من النتيجة بهذه الطريقة. لا، أظن أن التحذيرات والزهور الزرقاء كانت مجرد تمويه إن كان لي أن أستعير المفردات العسكرية"... ثم ضحكت.

السير هنري: وما هو الشيء الحقيقي؟

أجابت الآنسة ماربل باعتذار: أعرف أن ذهني مشغول بالزنابير. مسكينة تلك الحشرات؛ تُقتل بالألوف... وفي أيام الصيف الجميلة أيضاً. ولكنني أتذكر أنني فكرت -وأنا أنظر إلى البستاني وهو يرجّ سيانيد البوتاسيوم مع الماء في زجاجة- كيف بدا الخليط شبيهاً جداً بالعطوس. ولو أنه وُضع في زجاجة صغيرة استُبدلت بزجاجة العطوس الحقيقية لما أمكن كشفه. وقد كانت السيدة المسكينة معتادة على استخدام العطوس. وتقولون إن الزجاجة وُجدت عند يدها. إذن فلا شكّ أن الممرضة قد قامت -عندما ذهب السيد بريتشارد ليخابر الطبيب- بتبديل الزجاجة بالزجاجة الحقيقية، وفتح صمام الغاز قليلاً لتغطية أي رائحة لزيت اللوز قد تحمل -لو بقيت واضحة- أي امرئ على الاستغراب، كما أنني كثيراً ما سمعت بأن السيانيد لا يترك أي أثر إذا ما مضت عليه فترة طويلة. قد أكون مخطئة بالطبع، وربما كانت المادة المستخدمة في الزجاجة مختلفة تماماً، ولكن ذلك لا يهم في واقع الأمر، أليس كذلك؟

توقفت الآنسة ماربل قليلاً لتلتقط أنفاسها. انحنت جين هيلر إلى الأمام وقالت: ولكن ماذا عن الزهور الزرقاء؟

الآنسة ماربل: عادة ما يكون لدى الممرضات ورق صبغة عبّاد الشمس، أليس كذلك؟ أعني ذلك الذي يُستخدم لبعض الاختبارات الطبية. لقد مارستُ شيئاً من التمريض، وأعلم أنه في هذا الورق ينقلب الأزرق إلى أحمر عند وجود الأحماض، وينقلب الأحمر إلى الأزرق بوجود القلويات. من السهل تماماً دهن قليل من صبغة عباد

الشمس الحمراء فوق زهرة حمراء... قرب السرير طبعاً. وبعدها، عندما تستخدم السيدة المسكينة عطوسها فإن أبخرة النشادر القوية ستقلب اللون إلى الأزرق. حيلة شديدة البراعة حقاً. وبالطبع لم تكن زهرة إبرة الراعي زرقاء عندما دخلا الغرفة... لم يلاحظها أحد إلاّ لاحقاً. فعندما بدلت الممرضة الزجاجتين أظنها قامت بوضع العطوس النشادري أمام الزهرة على الحائط لمدة دقيقة.

السير هنري: تتحدثين وكأنك كنت هناك يا آنسة ماربل.

الآنسة ماربل: ما يقلقني هو السيد المسكين بريتشارد وتلك الفتاة اللطيفة، الآنسة إنستاو. ربما كان كل منهما يشك في الآخر ولذلك بقيا متباعدين... والحياة قصيرة جداً.

ثم هزت رأسها أسفاً، فقال السير هنري: لا حاجة للقلق. لقد تم -فيما مضى- اعتقال ممرضة بتهمة قتل مريض كهل كان قد ترك لها بعضاً من تَرِكته، وقد قامت بذلك باستخدام سيانيد البوتاسيوم الذي وضع مكان العطوس. ويبدو أن الممرضة كوبلنغ قد حاولت نفس الحيلة ثانية. لا حاجة بالسيد بريتشارد والآنسة إنستاو لأن يشكّا بحقيقة ما حدث.

الآنسة ماربل: أليس هذا رائعاً؟ لا أعني بذلك الجريمة الجديدة طبعاً؛ فهي مؤسفة تماماً، وهي تُظهر حجم الشرّ في هذا العالم، وأن المرء لو خضع له أو تنازل... وهذا يذكرني بضرورة استكمال حديثي مع الدكتور لويد عن ممرضة القرية.

* * *

الفصل الثامن

المُرافِقَة

قالت الآنسة هيلر: "والآن يا دكتور لويد، ألا تعرف أنت أي قصص مرعبة؟"، ثم ابتسمت تلك الابتسامة التي تسحر بها جمهور المسرح كل ليلة. كانت عيناها في تلك اللحظة مثبتتين بتوسل على الطبيب الكهل الذي غزا الشيب مفرقه، والذي تولى خلال السنوات الخمس الأخيرة معالجة أمراض قرية سينت ميري ميد.

شد الطبيب -بحركة غير واعية- صدريته إلى الأسفل (تلك الصدرية التي بدأت مؤخراً تضيق عليه) وحث عقله بسرعة بحيث لا يخيب أمل تلك المخلوقة الفاتنة التي خاطبته بمثل تلك الثقة.

عادت جين لتقول: أشعر أنني راغبة بالغرق في متعة الاستماع إلى الجرائم هذه الليلة.

قال مضيفها، الكولونيل بانتري: "رائع، رائع، رائع". ثم ضحك ضحكة عالية عسكرية من قلبه وأضاف: أليس كذلك يا دولي؟

بدا أن زوجته قد عادت بسرعة إلى مقتضيات الحياة الاجتماعية

(إذ كانت تخطط سياج حديقتها الربيعي) فوافقته بحماسة قائلة: بلى، ذلك رائع بالطبع، هذا ما كنت أراه دوماً.

قالت الآنسة ماربل وهي تطرف قليلاً بعينيها: أحقاً يا عزيزتي؟

الدكتور لويد: ليس لدينا في قرية سينت ميري ميد إلاّ القليل من قصص الرعب يا آنسة هيلر، والأقل منه أيضاً قصص الجرائم.

قال السير هنري: "إنك تدهشني"! ثم التفت إلى الآنسة ماربل قائلاً: لطالما فهمتُ من صديقتنا هنا أن سينت ميري ميد وكرٌ من أوكار الجريمة والرذيلة.

احتجت الآنسة ماربل وقد احمرّ وجهها قليلاً: آه! أنا واثقة من أنني لم أقل شيئاً كهذا أبداً يا سير هنري. الشيء الوحيد الذي قلته هو أن الطبيعة البشرية هي نفسها في القرية كما في أي مكان آخر، إلاّ أن للمرء فرصاً ووقتاً لملاحظتها في القرية عن قرب أكبر.

قالت جين هيلر وهي ما تزال تخاطب الدكتور لويد: ولكنكَ لم تعش هنا بشكل دائم؛ فقد تنقلت في مختلف الأماكن الغريبة في العالم... في أماكن تحدث فيها الأمور!

أجاب الطبيب وهو ما يزال يفكر جاهداً: هذا صحيح بالطبع. نعم، هذا صحيح، نعم. آه، وجدتها!

أسند ظهره إلى كرسيه بارتياح وقال: حدث ذلك منذ سنوات عديدة مضت، حتى كدت أنسى الأمر. ولكن الحقائق كانت غريبة حقاً... بل غريبة جداً في الواقع. والمصادفة الأخيرة التي وضعت

مفتاح اللغز بين يدي كانت غريبة هي الأخرى.

قربت الآنسة هيلر كرسيها قليلاً منه وانتظرت بلهفة، كما انصرف إليه الآخرون بوجوه شديدة الإهتمام. بدأ الطبيب بقوله: لا أدري إن كان أيٌّ منكم يعرف جزر الكناري؟

جين: لا بد أنها رائعة. إنها في البحر الجنوبي، أليس كذلك؟ أم أنها في المتوسط؟

الكولونيل بانتري: لقد زرت تلك الجزر في طريقي إلى جنوب إفريقيا. إن قمة تاناريف تشكل منظراً بهياً والشمس تغيب عنها.

الدكتور لويد: الحادث الذي أصفه حدث في جزيرة كناري الكبرى، وليس في تاناريف. كان ذلك قبل سنوات عديدة. كانت صحتي قد انهارت واضطررت إلى ترك عملي في إنكلترا والسفر إلى الخارج. وقد مارست الطب في لاس بالماس (وهي المدينة الأهم في جزيرة كناري الكبرى). وقد استمتعت كثيراً بالحياة هناك من عدة أوجه. كان الطقس معتدلاً والسماء مشمسة، وكانت لديّ فرصة رائعة للاستمتاع بأمواج الشاطئ (وأنا من محبي هذا الأمر)، كما أن الحياة البحرية للميناء جذبتني. كانت السفن تأتي من أنحاء الدنيا كلها لترسو في لاس بالماس، وقد اعتدت أن أمشي على طول الرصيف الساحلي كل صباح وأنا أشعر بمتعة أكبر بكثير من متعة أي أجنبي يمشي في شارع من محلات بيع القبعات.

كانت السفن -كما قلت- تأتي من كل أنحاء العالم إلى لاس بالماس، وكانت تبقى أحياناً لساعات فقط، وأحياناً تبقى يوماً أو يومين. وفي الفندق الكبير هناك -واسمه فندق متروبول- كنتَ ترى

أناساً من مختلف الأعراق والجنسيات... كانوا كالطيور المهاجرة. وحتى أولئك الذاهبون إلى تاناريف كانوا يذهبون هناك عادة ويبقون بضعة أيام قبل العبور إلى الجزيرة الأخرى.

وقصتي تبدأ هناك في فندق متروبول في ليلة أحد أيام الخميس في شهر كانون الثاني. كانت تُعقد هناك حفلة راقصة، وكنت أجلس مع صديق لي إلى طاولة صغيرة نراقب المشهد. كان من الراقصين عدد لا بأس به من الإنكليز وأصحاب الجنسيات الأخرى، ولكن معظمهم كانوا من الإسبان. وعندما عزفت الفرقة الموسيقية لحن التانغو لم يرقص سوى بضعة أزواج من الأسبان. وقد رقصوا جميعاً بشكل رائع، ولكن امرأة منهم -على وجه التحديد- أثارت إعجابنا الشديد. كانت طويلة القوام، جميلة متمايلة، تتحرك كأنها نَمِرة. كان فيها شيء خطير ما. وقد قلت ذلك لصاحبي فوافقني وقال: إن النساء من هذا النوع لا بد أن يكون لهن تاريخ، فالحياة لا تمر بهن مرور الكرام.

قلت: ربما كان الجمال خطيراً على من يملكه.

أصر صاحبي قائلاً: ليست المسألة مسألة الجمال وحده، بل يوجد شيء آخر. انظر إليها ثانية، لا بد أن تحدث لهذه المرأة أشياء، أو تحدث بسببها. فالحياة -كما قلت لك- لن تمر عليها مرور الكرام. ستحيط بها الأحداث الغريبة والمثيرة. ما عليك إلاّ أن تنظر إليها لترى ذلك بوضوح.

ثم سكت صاحبي قليلاً وعاد ليقول مبتسماً: وبالمقابل تماماً ما عليك إلاّ النظر إلى هاتين المرأتين هناك لتعرف أن ليس

من الممكن أن يحدث لأي منهما شيء خارج السياق الروتيني للأحداث... لقد خُلقتا لتعيشا حياة آمنة لا أحداث فيها!

نظرت حيث كان ينظر. كانت المرأتان اللتان ذكرهما مسافرتين وصلتا لتوهما... كان مركب يدعى هولاند لويد قد رسا في الميناء في ذلك المساء، وكان الركاب يتوافدون لتوّهم منه. وعندما نظرت إليهما أدركت فوراً ما عناه صاحبي. كانتا امرأتين إنكليزيتين من ذلك النوع الإنكليزي اللطيف الذي يقابله المرء في الخارج. وأحسبهما كانتا في نحو الأربعين من العمر. إحداهما بيضاء البشرة تنحو قليلاً، قليلاً فقط، نحو الامتلاء، والأخرى سمراء تنحو قليلاً، وقليلاً فقط أيضاً، نحو النحافة. لم يظهر عليهما التقدم بالسن، وكانتا ترتديان ثوبين صوفيين أنيقين يوحيان بالهدوء وعدم التظاهر، كما لم تستخدم أي منهما شيئاً من التبرج والمساحيق. كان في مظهرهما شيء يوحي بتلك الثقة الهادئة التي تميز النساء الإنكليزيات المتحدرات من عائلات محترمة. لم يكن في أي منهما ما يلفت النظر، شأنهن شأن الآلاف من أخواتهن. ولا شك أنهن كن سيرين كل ما ترغب الأخريات من طبقتهن برؤيته؛ يستعنّ على ذلك بقاموس بايديكر السياحي، ويغفلن كل ما عدا ذلك، ومن المرجح أن تكون إحداهما أو كلاهما من هواة الرسم. وكما قال صاحبي فإن من غير المحتمل أن يحصل لأي واحدة من أمثال هؤلاء النساء شيء مثير أو ملفت للنظر، رغم أنهن قد يجُلْنَ نصف العالم. نقلت نظري من المرأتين إلى صاحبتنا الإسبانية بعينيها المتقدتين نصف المغمضتين ثم ابتسمتُ.

قالت جين هيلر متنهدة: يا للمسكينتين!

قالت السيدة بانتري مخاطبة الدكتور لويد: أكمل قصتك، رجاءً. إنني أحب قصص الراقصات الإسبانيات المتمايلات؛ فذلك يجعلني أنسى مقدار كبري وسمنتي.

قال الدكتور لويد معتذراً: أنا آسف يا سيدة بانتري، ولكن الحقيقة أن قصتي هذه ليست عن المرأة الإسبانية.

- حقاً؟!

- نعم، لقد حدث أن كنا -أنا وصديقي- مخطئين؛ فلم يحدث أي شيء مثير لتلك الحسناء الإسبانية. لقد تزوجت موظفاً في مكتب للشحن، وما تركتُ الجزيرة إلاّ وقد أصبح لديها خمسة أطفال، وغدت سمينة جداً.

قالت الآنسة ماربل: كما حدث لتلك الفتاة من عائلة بيترز التي ذهبت للعمل في المسرح وأعطوها الدور الرئيسي في مسرحياتهم الإيمائية. قال الجميع إن حياتها لن تصلح أبداً، ولكنها تزوجت تاجراً متجولاً واستقرت كأفضل ما يكون الاستقرار.

تمتم السير هنري بلطف قائلاً: النظير الذي تجده الآنسة ماربل دوماً في القرية!

مضى الطبيب قائلاً: إن قصتي تتناول المرأتين الإنكليزيتين.

الآنسة هيلر: أوقد حدث شيء لهما؟

الدكتور لويد: حدث شيء... وفي اليوم التالي مباشرة أيضاً.

السيدة بانتري: وماهو؟

الدكتور لويد: عندما خرجت ذلك المساء نظرت -من باب الفضول فقط- إلى سجل نزلاء الفندق. وسرعان ما وجدت الاسمين بكل سهولة: الآنسة ماري بارتن والآنسة إيمي ديورانت من منطقة ليتل بادوكس في مقاطعة باكينغهامشير. ولم أفكر وقتها كثيراً بالسرعة التي سيقدر لي فيها أن أقابل صاحبتَيْ هذين الاسمين، ولا في الظروف المأساوية التي سيتم فيها هذا اللقاء.

كنت قد خططت للذهاب برحلة مع بعض الأصدقاء في اليوم التالي. كان يُفترض أن نركب سيارة تقلنا داخل الجزيرة آخذين معنا غداءنا إلى مكان يدعى لاس نيفيس (إن أسعفتني الذاكرة، فقد بَعُدَ العهد بذلك). وكان المكان خليجاً محمياً بشكل جيد نستطيع السباحة فيه إن رغبنا بذلك. وقد مضينا قدماً في هذا البرنامج، باستثناء بعض التأخير في الانطلاق، بحيث توقفنا في الطريق وتناولنا غداءنا ومضينا إلى لاس نيفيس للسباحة قليلاً قبل حلول موعد الشاي.

وما أن وصلنا الشاطئ حتى أدركنا على الفور وجود بلبلة كبرى هناك. وبدا أن سكان القرية الصغيرة جميعاً قد اجتمعوا هناك، وما أن رأونا حتى اندفعوا إلى السيارة وبدؤوا يشرحون الأمر بانفعال. وبما أن لغتنا الإسبانية لم تكن جيدة، فقد تطلب الأمر مني بضع دقائق حتى فهمته، ولكنني فهمته أخيراً.

كانت امرأتان إنكليزيتان مجنونتان قد نزلتا للسباحة، وتوغلت إحداهما مسافة بعيدة عن الشاطئ وبدأت تواجه المتاعب. وقد ذهبت الأخرى في إثرها وحاولت إعادتها إلى الشاطئ، ولكن قوتها خارت بدورها وكانت هي الأخرى على وشك الغرق لولا أن رجلاً جدّف

بقارب وأعاد المُنقِذة والمُنقَذة... وكانت الأخيرة في حالة لا أمل فيها.

وحالما فهمت الأمر شققت طريقي بين الحشد مسرعاً باتجاه الشاطئ. لم أميز المرأتين بداية، ولم تُظهِر المرأة -التي ارتدت ثوب سباحة أسود وقبعة سباحة مطاطية خضراء- أي أثر على تعرفها إليّ عندما نظرت إلى الأعلى بلهفة. كانت جاثية قرب جسد صديقتها وهي تؤدي حركات تنفس اصطناعي أقرب إلى حركات الهواة. وحين أخبرتها أنني طبيب تنهدت بارتياح، فأمرتها أن تذهب فوراً لتنشف نفسها وتلبس ثياباً جافة. وقد ذهبت معها إحدى السيدات ممن كن ضمن مجموعتي. أما أنا فقد أخذت أعالج جسد المرأة الغريقة دون فائدة. كان واضحاً أن الحياة قد فارقتها، وفي النهاية اضطررت كارهاً للاستسلام.

انضممت إلى الآخرين في كوخ صغير لأحد صيادي السمك، وهناك اضطررت لإعلان النبأ المؤسف. كانت المرأة الناجية قد ارتدت -عند ذلك- ثيابها الخاصة، فعرفتها فوراً باعتبارها إحدى المرأتين اللتين وصلتا الليلة الماضية. وقد استقبلت النبأ الحزين بقدر لا بأس به من الهدوء، وكان واضحاً أن فظاعة الأمر كله هي ما أثر فيها أكثر من أي عواطف شخصية كبرى. قالت: المسكينة إيمي... المسكينة إيمي! كانت تتطلع كثيراً إلى السباحة هنا، وكانت سباحة ماهرة أيضاً. لا أستطيع فهم الأمر! لماذا حدث ذلك يا دكتور؟

- ربما حدث لها تشنج عضلي. هل لك أن تخبريني بما حدث بدقة؟

- كنا نسبح منذ بعض الوقت، عشرين دقيقة تقريباً. ثم فكرتُ في الخروج للشاطئ، ولكن إيمي قالت إنها ستكمل السباحة. وقد فعلت ذلك، وفجأة سمعتُها تنادي، وأدركت أنها تصيح طلباً للنجدة. سبحت إليها بأسرع ما أستطيع. وكانت ما تزال طافية عندما وصلت إليها، ولكنها أمسكت بي بكل قوة فغرقنا كلانا تحت الماء. ولولا حضور ذلك الرجل بقاربه لكنت غرقت أنا أيضاً.

قلت لها: لقد حدث هذا كثيراً من قبل. إن إنقاذ شخص يغرق ليس بالمهمة السهلة.

مضت الآنسة بارتن تقول: يبدو ذلك في غاية الفظاعة، فلم نصل إلاّ بالأمس، وكنا فرحتين كثيراً بأشعة الشمس وبإجازتنا الصغيرة. وبعد ذلك تحدث هذه الـ... هذه المأساة الرهيبة.

طلبت منها -بعد ذلك- معلومات عن المرأة الميتة قائلاً إنني على استعداد لفعل كل ما أستطيعه من أجلها، ولكن السلطات الإسبانية ستطلب معلومات كاملة. وقد أعطتني تلك المعلومات بكل استعداد وطيب خاطر.

قالت إن المتوفاة، الآنسة إيمي ديورانت، كانت مرافقتَها، وقد التحقت بخدمتها قبل نحو خمسة أشهر. وقد انسجما كثيراً، ولكن الآنسة ديورانت لم تقل إلاّ القليل القليل عن عائلتها. كانت قد تُركت يتيمة في وقت مبكر من عمرها وقام على تربيتها خالٌ لها، وقد بدأت تكسب قوتها منذ بلغت الحادية والعشرين من عمرها.

ومضى الطبيب قائلاً: "إذن، فقد كان الأمر هكذا". ثم سكت

قليلاً وقال ثانية ولكن بلهجة من يقول شيئاً نهائياً لا رجعة فيه: هكذا كان الأمر.

قالت جين هيلر: إنني لا أفهم. أهذا كل شيء؟ أعني أن الحادث مأساوي تماماً كما أراه، ولكنه... ولكنه ليس مما يمكن وصفه بالمرعب.

السير هنري: أظن أن في القصة المزيد.

الدكتور لويد: نعم، فيها المزيد. في ذلك الوقت بدا شيء واحد غريباً. كنت قد استفسرت بالطبع من صيادي السمك وغيرهم عن حقيقة ما رأوه، فقد كانوا شهود عيان للحادث. ولكن امرأة واحدة روت شهادة غريبة بعض الشيء. ولم ألقِ لها بالاً في ذلك الحين، ولكن شهادتها عادت لتراودني فيما بعد. فقد أصرت تلك المرأة على أن الآنسة ديورانت لم تكن تعاني أي مصاعب في السباحة عندما نادت، وقد سبحت المرأة الأخرى إليها وأنزلت رأسها عمداً تحت الماء كما قالت الشاهدة. ولم ألقِ بالاً للأمر وقتها كما قلت، فقد كانت تلك قصة غريبة خيالية، ومثل هذه الأمور تبدو بشكل مختلف تماماً من الشاطئ. ربما كانت الآنسة بارتن قد حاولت أن تُفقد زميلتها وعيها بعد أن أدركت أن تشبث الأخيرة بها بهذا الشكل المذعور من شأنه أن يُغرق الاثنتين معاً. وكما ترون، فقد بدا من شهادة المرأة الإسبانية كما لو أن... كما لو أن الآنسة بارتن كانت تحاول عامدة إغراق مرافقتها.

كما قلت، لم أنتبه كثيراً لهذه القصة، ولكنها عاودتني لاحقاً. كانت صعوبتنا الكبرى تكمن في العثور على أية معلومات عن الغريقة

إيمي ديورانت. لم يبدُ أن لها أي أقارب، وقد فتشنا أنا والآنسة بارتن حاجياتها فوجدنا عنواناً واحداً وراسلناه فتبين أنه مجرد غرفة استأجرتها المرأة لتبقي فيها حاجياتها. ولم تكن صاحبة الغرفة تعلم شيئاً، إذ لم ترَ المرأةَ إلاّ عند استئجارها للغرفة. وقد علّقت الآنسة ديورانت وقتها بأنها تحب دوماً أن يكون لها مكان خاص بها تستطيع العودة إليه في أي وقت. كان في الغرفة قطعة أو قطعتان من الأثاث القديم، وبعض الرسومات التي جُمعت في مجلد خاص، وصندوق مليء بالأشياء التي تُشترى في مواسم التنزيلات والمزادات، ولكن لم يكن فيه حاجيات خاصة بها. كانت قد ذكرت لصاحبة الغرفة أن أباها وأمها قد توفيا في الهند وهي طفلة، وأنها نشأت في عهدة خالٍ لها كان رجل دين، ولأننا لم نكن نعرف اسم أمها لم يكن ممكناً الاستدلال على الخال.

لم يكن الأمر لغزاً بالمعنى الدقيق للكلمة، ولكنه كان أمراً غير مقنع ولا يبعث على الرضا. وكان بين حاجياتها في لاس بالماس صورتان قديمتان باهتتان، وقد تم قصهما حتى يناسبا الإطار الذي وضعتا فيه بحيث لا يجد المرء اسم المصوّر عليهما، كما وُجدت صورة التقطت بطريقة الألواح الفضية القديمة، ربما كانت لأمها أو حتى لجدتها.

وكانت الآنسة بارتن قد تلقت تزكية للآنسة ديورانت من مستخدِمَيْن سابقين لها، أحدهما نسيته الآنسة بارتن والثاني تذكّرته بعد جهد. وقد تبين أن هذا المستخدِم الأخير امرأة كانت في ذلك الوقت مسافرة إلى أستراليا. وقد كتبنا لها، ولكن تأخر جوابها كثيراً قبل أن يصلنا ونجد أنه لم يكن فيه ما يفيد كثيراً؛ فقد قالت إن

الآنسة ديورانت قد عملت لديها كمرافقة، وكانت في غاية الكفاءة، وكانت امرأة رائعة جداً، ولكنها لا تعرف شيئاً عن شؤونها الخاصة أو علاقاتها.

تلك هي النقطة التي وصلنا إليها إذن... لم يكن في الأمر شيء غير طبيعي في الواقع. فقط هذان الشيئان اللذان اقترنا معاً وأثارا فيّ عدم الارتياح. هذه المرأة، إيمي ديورانت، التي لا يعرف أحد شيئاً عنها، والشهادة الغريبة التي أدلت بها المرأة الإسبانية. نعم، وسوف أضيف عاملاً ثالثاً أيضاً: فعندما انكببت لأول مرة على جسد الغريقة وكانت الآنسة بارتن تبتعد باتجاه أكواخ الصيادين التفتَتْ إليّ. التفتت إلي وعلى وجهها تعبير لا أستطيع وصفه إلاّ بأنه تعبير قلق حاد... نوع من عدم اليقين المعذِّب الذي انطبع في عقلي.

لم أر وقتها في هذا الأمر شيئاً غير عادي؛ فقد عزوته لحالة الأسى العميق الذي تحس به على صديقتها. ولكنني أدركت فيما بعد بأن المرأتين لم يكونا على هذه الدرجة من الحميمية. لم يكن بينهما تعلق شديد، ولا حزن بالغ. كل ما في الأمر أن الآنسة بارتن كانت تحب إيمي ديورانت وقد صُدمت بموتها.

ولكن، إذا كان الأمر كذلك، فلماذا ذلك القلق الحاد الفظيع الذي رأيته على وجهها يومذاك؟ كان هذا هو السؤال الذي ما انفك يراودني. لم أكن مخطئاً فيما يخص تلك النظرة. وبشكل يكاد يكون رغماً عن إرادتي بدأت إجابةٌ تتشكل في ذهني عن ذلك السؤال. فلنفترض أن رواية المرأة الإسبانية كانت صحيحة، ولنفترض أن ماري بارتن قد حاولت إغراق إيمي ديورانت بملء إرادتها وبأعصاب

باردة. لقد نجحت في إبقائها تحت الماء وهي تحاول التظاهر بإنقاذها، ثم يتم إنقاذها بقارب. وهما على شاطئ منعزل بعيد عن كل شيء. وفجأة أظهر أنا... آخر ما كانت تتوقعه، طبيب! وطبيب إنكليزي أيضاً! وهي تعلم جيداً أن الإسعاف بالتنفس الاصطناعي قد أنقذ أناساً قضوا تحت الماء فترة أطول من تلك التي بقيتها إيمي ديورانت. ولكن كان عليها أن تمثل دورها... وأن تذهب وتتركني وحيداً مع ضحيتها. وعندما التفتت لإلقاء نظرة أخيرة ظهر في وجهها قلق حاد فظيع. هل ستعود إيمي ديورانت للحياة وتخبر الجميع بما تعرفه؟

صاحت جين هيلر: آه! لقد أثرتَ متعتي الآن.

وأكمل الطبيب قصته: حين نظرت إلى القضية من هذه الزاوية بدا الأمر كله أكثر إنذاراً بالشر، وأصبحت شخصية إيمي ديورانت أكثر غموضاً. من كانت إيمي ديورانت؟ ولماذا تقتلها مخدومتها وهي امرأة لا أهمية لها تعمل مرافقةً بأجر؟ وما هي القصة الكامنة خلف رحلة السباحة القاتلة تلك؟ لم تكن قد دخلت في خدمة الآنسة بارتن إلاّ قبل بضعة أشهر من ذلك. وقد أخرجتها ماري بارتن معها إلى الخارج، وفي اليوم التالي لوصولهما تماماً وقعت المأساة. وقد كانت المرأتان كلاهما إنكليزيتين لطيفتين عاديتين مهذبتين! كان الأمر كله خيالياً، وقد قلت ذلك لنفسي. لا شك أنني كنت أشطح بخيالي بعيداً.

جين هيلر: ألم تفعل شيئاً إذن؟

الدكتور لويد: ما الذي كان بوسعي أن أفعله؟ لم يكن لديّ

دليل، وأغلبية الشهود أدلوا برواية كرواية الآنسة بارتن. كنت قد بنيت شكوكي الخاصة على تعبير عابر رأيته على وجه المرأة وربما كنت قد تخيلته تخيلاً. الأمر الوحيد الذي كان بوسعي فعله -وقد فعلته- هو إجراء أوسع التحريات الممكنة عن علاقات إيمي ديورانت وأقاربها. وفي إحدى المرات التي عدت فيها إلى انكلترا بلغ بي الأمر أن ذهبت ورأيت صاحبة الغرفة التي استأجرتها، وكانت النتيجة هي ما أخبرتكم عنه.

الآنسة ماربل: ولكنك شعرت بأن في الأمر شيئاً غير طبيعي.

أومأ الدكتور لويد برأسه موافقاً وقال: كنت في كثير من الأحيان أشعر بالخجل من نفسي لتفكيري بذلك. فمَن أكون أنا حتى أمضي في الارتياب بهذه السيدة الإنكليزية اللطيفة المهذبة، وبارتكابها لجريمة فظيعة بدم بارد؟ بذلت كل جهدي لأكون ودياً معها قدر استطاعتي خلال الوقت القصير الذي قضته في الجزيرة. ساعدتها مع السلطات الإسبانية، وقمت بكل ما من شأن رجل إنكليزي أن يقوم به لمساعدة مواطنةٍ له في بلد أجنبي، ومع ذلك فإنني مقتنع أنها عرفت أنني أشك بها وأكرهها.

الآنسة ماربل: وكم بقيَتْ الآنسة بارتن هناك؟

- أظنها بقيت نحو أسبوعين. فقد دُفنت الآنسة ديورانت هناك، وبعد نحو عشرة أيام استقلت الآنسة بارتن قارباً للعودة إلى إنكلترا. قالت إن الصدمة أزعجتها كثيراً إلى الحد الذي لن تستطيع معه قضاء الشتاء هناك كما كانت تخطط.

الآنسة ماربل: وهل بدا أن الأمر قد أزعجها بالفعل؟

تردد الطبيب ثم قال بحذر: لا أظنه قد أثر على مظهرها أبداً.

الآنسة ماربل: ألم تسمن مثلاً؟

الدكتور لويد: أتعلمين... غريب أن تقولي ذلك. أعتقد الآن -وأنا أعيد التفكير بالأمر- أنك على صواب. إنها... بلى، إنها بدت بالفعل وكأنها تسمن قليلاً.

قالت جين هيلر وهي ترتعد: ما أفظع ذلك! إنه أشبه... أشبه بمن يسمن على دماء ضحاياه!

الدكتور لويد: ومع ذلك فربما كنت أظلمها. من المؤكد أنها قالت شيئاً قبل سفرها يشير إلى اتجاه مختلف تماماً. ربما كانت توجد -بل توجد بالفعل- ضمائر تعمل بشكل بطيء جداً وتأخذ بعض الوقت حتى تستيقظ على هول فعلتها.

كان ذلك في الليلة التي سبقت مغادرتها لجزر الكناري. كانت قد طلبت مني الحضور لرؤيتها، وشكرتني بكل حرارة على كل ما فعلته من أجلها. ولقد هوّنتُ الأمر بالطبع وقلت إنني لم أقم إلاّ بما هو طبيعي في مثل تلك الظروف... إلى آخر ذلك. وقد ساد الصمت قليلاً بعد ذلك، ثم سألتني فجأة سؤالاً: هل ترى من المبرر للمرء بأي شكل أن يعمد إلى تنفيذ القانون بيديه؟

أجبتها بأن هذا السؤال صعب، ولكنني -عموماً- لا أرى ذلك مبرراً. فالقانون هو القانون، وعلينا أن نلتزم به.

- حتى عندما لا يكون للقانون حول ولا طول؟

- لا أفهم تماماً ما تقصدينه.

- من الصعب تفسير ذلك، ولكن قد يعمد المرء إلى تصرف يُعتبر خاطئاً بالتأكيد... بل يُعتبر جريمة، ولكن لسبب وجيه ومقنع.

أجبتها ببرود قائلاً إن العديد من المجرمين ربما رأوا ذلك في زمانهم، فانكَمَشَتْ ثم تمتمت قائلة: ولكن ذلك رهيب... رهيب!

ثم طلبت مني بنبرة مختلفة أن أعطيها شيئاً يجعلها تنام، قائلة إنها لم تستطع النوم بشكل جيد منذ... (وترددت قليلاً) منذ تلك الصدمة الفظيعة.

- أأنت واثقة أن ذلك هو السبب؟ ألا يوجد ما يقلقك؟ أليس في عقلك شيء؟

أجابت بحدة قائلة: في عقلي؟ وما عساه يكون في عقلي؟

قلت دون تركيز: القلق يكون أحياناً سبباً للأرق.

بدا أن الفكرة تعتمل في ذهنها للحظة ثم قالت: أتعني القلق حول المستقبل أم حول الماضي الذي لا يمكن تغييره؟

- أيٌّ منهما.

- ليس من المفيد أبداً القلق حول الماضي. أنت لا تستطيع إعادة... آه! ما الفائدة! على المرء أن لا يفكر. عليه أن لا يفكر.

وصفت لها حبوباً منومة معتدلة القوة واعتذرت مغادراً. ولقد

تساءلت كثيراً في طريق عودتي عن مغزى الكلمات التي قالتها. "أنت لا تستطيع إعادة...". إعادة ماذا؟ أو مَن؟

وأظن أن مقابلتي الأخيرة تلك لها قد هيّأتني -بشكلٍ ما- لما سيطرأ لاحقاً. لم أكن أتوقع ذلك بالطبع، ولكنني لم أفاجأ عندما حدث. فقد كان انطباعي دوماً عن ماري بارتن أنها امرأة ذات ضمير حي... وليست ممن يقودهم الضعف إلى الخطيئة، رأيت فيها امرأة ذات قناعات من شأنها أن تتصرف على هديها، ومن شأنها أن لا تتهاون طالما أنها ما تزال تؤمن بتلك القناعات. وقد خُيل إلي أنها -في آخر حديث بيننا- كانت قد بدأت تشك في قناعاتها الخاصة. وأعلم أن كلماتها قد أوحت إلي بأنها كانت تشعر بتلك البدايات الضعيفة الأولى للندم... ذلك الشعور الذي يضني الروح.

حدث ذلك الشيء في إنكلترا، وتحديداً في كورنوول، في مصيف صغير على البحركان مهجوراً بعض الشيء في ذلك الوقت من السنة. لا بد أن الوقت كان... أواخر آذار، إن أسعفتني الذاكرة. وقد قرأت عن ذلك في الصحف. إذ قيل إن امرأة تدعى الآنسة بارتن تقيم في فندق صغير هناك، وتتصرف بشكل بالغ الغرابة. وقد لاحظ الجميع ذلك. كانت تذرع غرفتها جيئة وذهاباً في الليل وهي تدمدم مع نفسها مما لا يسمح لجيران غرفتها في كلا الاتجاهين بالنوم. كانت قد زارت الكاهن يوماً وأخبرته أن لديها أمراً في غاية الخطورة تريد قوله له. قالت إنها ارتكبت جريمة. وبعد ذلك نهضت فجأة دون أن تتابع اعترافها وقالت إنها ستعود مرة أخرى. وقد عزا الكاهن تصرفها إلى اضطراب عقلي، ولم يأخذ اتهامها لنفسها على محمل الجد.

في صباح اليوم التالي تماماً تبين أنها مفقودة من غرفتها، وعُثر على رسالة متروكة موجهة إلى المحقق العدلي. تقول الرسالة:

لقد حاولت أن أتحدث مع الكاهن بالأمس، وأن أعترف بكل شيء، ولكن لم يُسمَح لي بذلك؛ هي لم تَدَعني أفعله. لا يسعني إصلاح ما فعلتُ إلاّ بطريقة واحدة... حياة مقابل حياة، وينبغي أن تذهب حياتي بنفس الطريقة التي ذهبت بها حياتها. أنا أيضاً يجب أن أغرق في البحر العميق. لقد اعتقدتُ أن لي مبرراتي، وإنني أرى الآن أن الأمر لم يكن كذلك. ولئن كان علي أن أرغب بغفران إيمي لي فعليّ أن أذهب إليها. لا يلامنّ أحدٌ على موتي...

ماري بارتن

عُثر على ملابسها على الشاطئ قرب خليج منعزل قريب، وبدا واضحاً أنها تركتها هناك وسبحت بكل تصميم إلى عرض البحر حيث يوجد يوجد تيار كان معروفاً بخطورته يجرف المرء بعيداً عن الشاطئ.

لم يُعثر على الجثة، ولكن بعد مضي بعض الوقت تم السماح باعتبارها ميتة. كانت امرأة غنية، وقد تم تقييم عقاراتها بنحو مئة ألف جنيه، وبما أنها ماتت دون كتابة وصية فقد ذهبت ثروتها كلها إلى أقاربها... وكان هؤلاء عائلة من أبناء عمومتها في أستراليا. وقد أشارت الوثائق بشكل متكتم إلى المأساة التي وقعت في جزر الكناري، مقدمة نظرية مفادها أن وفاة الآنسة ديورانت قد جعلت عقل صديقتها يختل. وفي التحقيق تم إصدار الحكم المعتاد الذي ينص على: انتحار تحت ظرف جنون مؤقت.

وهكذا يسدل الستار على مأساة إيمي ديورانت وماري بارتن.

ساد صمت طويل، ثم شهقت جين هيلر بشدة وقالت: آه، ولكن عليك أن لا تقف هنا، عند أكثر المراحل تشويقاً. استمر.

قال الدكتور لويد: ولكن ألا ترين يا آنسة هيلر أن هذه ليست قصة تروى على حلقات. هذه هي الحياة الحقيقية، والحياة الحقيقية تقف حيث تريد الوقوف.

جين هيلر: ولكنني لا أريدها أن تقف... أريد أن أعرف.

السير هنري: هنا ينبغي علينا استعمال عقولنا يا آنسة هيلر. لماذا قتلت ماري بارتن مرافقتها؟ ذلك هو اللغز الذي طرحه علينا الدكتور لويد.

جين: آه، حسناً، ربما كانت قد قتلتها لأسباب كثيرة جداً. أعني... آه، لا أدري. ربما كانت قد أثارت أعصابها، أو أنها غارت منها، مع أن الدكتور لويد لم يذكر وجود أي رجل، ولكن مع ذلك، وجودهما في مركب مسافر... تعلمون ما يقوله الجميع عن المراكب والرحلات البحرية.

توقفت الآنسة هيلر توقفاً أقرب لالتقاط الأنفاس، وأدرك كل الحضور أن ما هو خارج الرأس الجميل لها كان يتفوق كثيراً على ما هو بداخله.

السيدة بانتري: أحب لو تعطى لي فرصة تقديم أكثر من تخمين، ولكنني أحسب أن عليّ الاقتصار على تخمين واحد.

حسناً، أظن أن والد الآنسة بارتن قد جمع كل ثروته على حساب تدمير والد إيمي ديورانت، وهكذا قررت إيمي الانتقام... آه، كلا، الأمر معكوس هكذا! أمر متعب جداً. لماذا تقتل المرأة الغنية مرافقتها المتواضعة؟ لقد وجدتها. كان للآنسة بارتن أخ شاب انتحر بسبب حبه لإيمي، وقد انتظرت الآنسة بارتن فرصتها. تدهورت الأوضاع المعيشية لإيمي ديورانت، فشغلتها الآنسة بارتن كمرافقة لها وأخذتها إلى جزر الكناري ثم انتقمت لأخيها. ما رأيكم بذلك؟

السير هنري: رائع، لولا أننا لم نعرف للآنسة بارتن أخاً شاباً أبداً.

السيدة بانتري: إننا نستنتج ذلك. لا يوجد دافع ما لم يوجد أخ شاب، ولذلك لا بد أن يكون لها أخٌ شاب. ما رأيك يا واطسن؟

قال زوجها: هذا كله رائع جداً يا دولي، ولكنه تخمين فقط.

السيدة بانتري: تخمين بالطبع، هذا كل ما نستطيع فعله... التخمين. ليس لدينا أية دلائل أو خيوط تقودنا إلى حل اللغز. هيا يا عزيزي، أعطِ تخمينك الخاص.

الكولونيل بانتري: لا أعرف ما الذي يمكن قوله، ولكنني أرى أن في اقتراح الآنسة هيلر شيئاً وجيهاً بأنهما تشاجرا بسبب رجل... لطالما سمعنا قصصاً من هذا النوع.

السير هنري: أظن أن عليّ أن أجعل تفسيري أكثر عمقاً، مع أنني أعترف أنه مجرد تخمين. أنا أزعم أن الآنسة بارتن كانت دوماً مضطربة عقلياً. إن الحالات من هذا النوع أكثر بكثير مما نتصور...

وقد تفاقم جنونها وبدأت ترى أن من واجبها تخليص العالم من أشخاص معينين، وربما تخليصه مما يسمى بالنساء المنحرفات. نحن لا نعرف الكثير عن ماضي الآنسة ديورانت. ربما كان لها بالفعل ماضٍ... وربما ماضٍ «مؤسف». وقد علمت الآنسة بارتن بذلك وقررت تصفيتها. ولاحقاً بدأت استقامة تصرفها تؤرقها وسيطر عليها الندم. إن نهايتها تُظهر أنها كانت مختلة تماماً. والآن، هل توافقينني يا آنسة ماربل؟

قالت الآنسة ماربل وهي تبتسم معتذرة: أخشى أنني لا أوافقك الرأي يا سير هنري. أرى أن نهايتها تُظهر أنها كانت امرأة شديدة الذكاء واسعة الحيلة.

تدخلت الآنسة هيلر بصرخة بسيطة قائلة: آه! لقد كنت في غاية الحماقة. هل لي أن أخمن ثانية؟ بالطبع، لا بد أن الأمر كان كذلك. ابتزاز! كانت المرافقة تبتزها. إلاّ أنني لا أرى سبباً لقول الآنسة ماربل إنها كانت ذكية إذ قتلت نفسها. لا أرى لذلك أي سبب.

السير هنري: آه! ألا ترين؟ إن الآنسة ماربل تعرف قضية في سينت ميري ميد تشبه هذه القضية تماماً.

قالت الآنسة ماربل مؤنبة: أنت تهزأ بي دوماً يا سير هنري، ولكن عليّ أن أعترف أنها تذكرني بالفعل -ولو قليلاً- بالسيدة تراوت العجوز. كانت تتقاضى الراتب التقاعدي لثلاث عجائز كن قد توفين في أماكن مختلفة.

السير هنري: تبدو هذه جريمة في غاية التعقيد وسعة الحيلة، ولكن لا يبدو لي أنها تلقي أي ضوء على جريمتنا الراهنة.

الآنسة ماربل: بالطبع لا تلقي أي ضوء، ليس من شأنها أن تلقي مثل هذا الضوء بالنسبة لك. ولكن بعض العائلات كانت فقيرة جداً، وكان الراتب التقاعدي نعمة كبرى للأطفال. أعلم أنه من الصعب على أحد من الخارج أن يفهم. ولكن ما قصدتُه حقاً هو أن الأمر كله كان يترتب على كون إحدى العجائز تشبه كل العجائز الأخريات.

قال السير هنري حائراً: ماذا؟

الآنسة ماربل: إنني أشرح الأمور بشكل سيء دوماً. ما أعنيه هو أن الدكتور لويد -في مستهل وصفه للسيدتين- لم يكن يستطيع تمييز واحدة منهن عن الأخرى، ولا أظن أحداً آخر في الفندق استطاع ذلك. كان من شأن الجميع أن يميزوا بينهما بعد يوم أو يومين بالطبع، ولكن في اليوم التالي لوصولهما تماماً غرقت إحداهما، فإن كانت الأخرى قد قالت إنها الآنسة بارتن فلا أحسب أن أحداً سيخطر في باله أنها قد لا تكون كذلك.

قال السير هنري ببطء: أنت ترين إذن... آه! فهمت.

الآنسة ماربل: إنها الطريقة الطبيعية الوحيدة للتفكير بهذا الأمر. وقد بدأت السيدة العزيزة بانتري على هذا النحو قبل قليل. لماذا تعمد المستخدِمة الغنية إلى قتل المرافقة المتواضعة؟ من الأرجح كثيراً أن يكون الأمر بالعكس تماماً. أعني أن تلك هي الطريقة التي تحدث بها الأمور.

السير هنري: حقا؟ إنك تذهلينني!

الآنسة ماربل: ولكن كان عليها بالطبع أن تلبس ملابس الآنسة

بارتن، وربما كانت الملابس ضيقة قليلاً عليها، بحيث يظهر شكلها العام كامرأة سمنت قليلاً. ولهذا طرحتُ هذا السؤال. إن من شأن الرجل بالتأكيد أن يظن أن المرأة قد سمنت قليلاً، لا أن الملابس قد ضاقت قليلاً... رغم أن هذه ليست الطريقة الصحيحة تماماً في التعبير عن ذلك.

السيدة بانتري: ولكن إن كانت إيمي ديورانت قد قتلت الآنسة بارتن فما الذي ستستفيده من ذلك؟ إنها لا تستطيع الاستمرار في الخداع إلى الأبد.

الآنسة ماربل: استمرت في الخداع لشهر إضافي أو ما يقرب من ذلك، وأظن أنها سافرت خلال تلك الفترة لتبتعد عن كل مَن يعرفها. هذا ما قصدته بقولي إن امرأة في عمر معين تشبه الأخريات من نفس العمر. لا أحسب أن أحداً قد انتبه إلى الصورة المختلفة على جواز السفر... أنتم تعرفون كيف هي جوازات السفر. وبعد ذلك، في شهر آذار ذهبت إلى ذلك المصيف في كورنوول وبدأت تمثل دور امرأة غريبة الأطوار وتلفت الانتباه لنفسها حتى لا يتمكن أحد -حين يُعثَر على ثيابها على الشاطئ وتُقرأ رسالتها الأخيرة- من التفكير بالنتيجة المنطقية السليمة.

السير هنري: ألا وهي؟

الآنسة ماربل: ألا وهي أنه ما من أحد هناك. هذه هي الحقيقة التي تكاد تفقأ العين لو لم يُنصَب العديد من الأفخاخ التي تصرف نظر المرء عن الحقيقة التي ينشدها، بما في ذلك التلميح إلى جريمة مفترضة والندم. لم يكن ثمة أحد. تلك هي الحقيقة المهمة حقاً.

السيدة بانتري: أتعنين... أتعنين أنه لم يحدث ندم؟ وأنه لم... وأنها لم تُغرق نفسها؟

الآنسة ماربل: ليست هذه من الذين يغرقون أنفسهم! إنها السيدة تراوت تتكرر من جديد. وقد كانت السيدة تراوت ماهرة جداً في رمي أفخاخ التضليل، ولكنها وجدت فيّ نداً لها. بوسعي أن أفهم كل خلجة من خلجات آنستكم النادمة بارتن. تغرق نفسها؟! إنني أزعم أنها قد سافرت إلى أستراليا، إن صدق ظني.

الدكتور لويد: كم هو صادق ظنك يا آنسة ماربل، لا شك في ذلك. فقد فاجأني الأمر مرة أخرى أيما مفاجأة حتى كدت أُصعق هناك في ملبورن.

الآنسة ماربل: أهذا ما كنت تتحدث عنه عندما تكلمت عن المصادفة الأخيرة؟

أومأ الدكتور لويد برأسه موافقاً وقال: نعم، لقد كان ذلك فعلاً من سوء طالع الآنسة بارتن، أو الآنسة إيمي ديورانت... سموها كما شئتم. فقد أصبحت فيما بعد طبيباً لفترة على متن إحدى السفن، وعندما نزلنا إلى البر في ملبورن كان أول شخص رأيته وأنا أمشي في الشارع هو تلك السيدة التي ظننت أنها غرقت في كورنوول. وقد أدركتُ أن اللعبة قد انتهت فيما يخصني أنا على الأقل، ولذلك أقدمت على التصرف الجريء... فقد أفضت إليّ بالسر. كانت امرأة غريبة وأظنها افتقرت إلى الحد الأدنى من الوازع الخلقي. كانت الابنة الكبرى لأسرة من تسعة أفراد كلهم في فقر مدقع. وقد طلبوا ذات مرة مساعدة من ابنة عمهم -الآنسة بارتن- ولكنها رفضت لأنها

كانت قد تشاجرت مع أبيهم. كانت الحاجة ماسة للمال، لأن ثلاثة من الأطفال الصغار كانوا في حالة صحية سيئة تحتاج إلى علاج طبي باهظ التكاليف. ويبدو أن إيمي بارتن قد قررت منذ ذلك الوقت تنفيذ خطتها في القتل بدم بارد. سافرت إلى إنكلترا، وقدمت نفسها كمربية أطفال. ثم حصلت على وظيفة المرافقة للآنسة بارتن بعد أن أطلقت على نفسها اسم إيمي ديورانت. استأجرت غرفة ووضعت فيها بعض الأثاث بحيث تضفي على نفسها صفة الاستقلالية. كانت خطة الإغراق بنت ساعتها. وقد انتظرت هي أن تسنح لها مثل هذه الفرصة. ثم مثلت ذلك المشهد الأخير من المسرحية وعادت إلى أستراليا، وبعد مضي بعض الوقت ورثت هي وإخوتها ثروة الآنسة بارتن باعتبارهم أقرب الأقرباء.

السير هنري: جريمة بالغة الاكتمال والجرأة. تكاد تكون الجريمة الكاملة. لو كانت الآنسة بارتن هي التي توفيت في جزر الكناري لثارت الشكوك حول إيمي ديورانت وربما انكشفت علاقتها بأسرة بارتن، ولكن تغيير الهوية والجريمة المزدوجة كما يمكن تسميتها قد استبعدا مثل هذا الاحتمال. نعم، تكاد تكون جريمة كاملة.

السيدة بانتري: وماذا حدث لها؟ ماذا فعلتَ إزاء هذا الأمر يا دكتور لويد؟

الدكتور لويد: كنت في موقف غريب جداً يا سيدة بانتري. لم يكن لديّ من الأدلة -كما يفهمها القانون- إلاّ القليل. كما كانت بين يديّ بعض المؤشرات الواضحة والتي تشير إلى أن المرأة -رغم مظهرها القوي- لم تكن أيامها طويلة في هذه الدنيا. ذهبت معها إلى

البيت ورأيت بقية أفراد العائلة... كانت عائلة رائعة، كانوا جميعاً متعلقين بأختهم الكبرى تعلقاً عظيماً، وليس في أذهانهم أنها يمكن أن تكون قد ارتكبت جريمة. فلماذا أجلب لهم الأسى وأنا لا أستطيع إثبات شيء؟ تركت العدالة الإلهية تأخذ مجراها. وقد توفيت إيمي بارتن بعد ستة أشهر من لقائي بها. ولطالما تساءلتُ إن كانت قد بقيت مبتهجة غير نادمة حتى النهاية.

السيدة بانتري: لم تبق كذلك بالتأكيد.

الآنسة ماربل: أظنها بقيت كما هي؛ فقد بقيت السيدة تراوت على حالها.

اهتزت الآنسة هيلر قليلاً وقالت: حسناً، إنها قصة مثيرة جداً جداً. لم أفهم تماماً من الذي أغرق من... كيف دخلت تلك السيدة تراوت في الموضوع؟

الآنسة ماربل: إنها لم تدخل في الموضوع يا عزيزتي، كانت مجرد شخصية... شخصية غير لطيفة... في القرية.

قالت جين هيلر: "آه، في القرية. ولكن القرى لا يحدث فيها شيء أبداً، أليس كذلك؟"، ثم تنهدت وقالت: أنا واثقة أنني ما كنت لأمتلك أي ذكاء أبداً لو أنني عشت في قرية.

* * *

الفصل التاسع
المشبوهون الأربعة

كان الحديث يدور حول الجرائم التي لم تُكشف ولم ينل الذين ارتكبوها عقابهم، وقد أعطى كل امرئ رأيه تباعاً: الكولونيل بانتري، وزوجته الودودة ذات الجسم الممتلئ، وجين هيلر، والدكتور لويد، وحتى الآنسة العجوز ماربل. الشخص الوحيد الذي لم يتكلم كان هو المؤهل أكثر من غيره للكلام في نظر أغلب الناس. فقد جلس السير هنري كليذرنغ -الرئيس السابق لشرطة سكوتلانديارد- صامتاً وهو يفتل شاربه (أو ينقر عليه بالأحرى) وهو يبتسم كما لو كان منشغلاً بفكرة داخلية يستمتع بها.

قالت السيدة بانتري أخيراً: سير هنري... إن لم تتكلم فسوف أصرخ احتجاجاً. هل يوجد الكثير من الجرائم التي تمضي دون معاقبةٍ لمرتكبيها أم لا يوجد مثل هذا العدد؟

السير هنري: إنك تستوحين في كلامك هذا عناوين الصحف يا سيدة بانتري: «سكوتلانديارد تفشل ثانية»... وتتبع ذلك قائمة بالجرائم التي لم يتم حلها.

الدكتور لويد: وهي لا تشكل -فيما أظن- إلاّ نسبة صغيرة من مجموع الجرائم، أليس كذلك؟

السير هنري: بلى، هذا صحيح. إذ نادراً ما تتم الإشارة والإشادة بمئات الجرائم التي يجري حلها ومعاقبة مرتكبيها. ولكن هذه ليست النقطة التي نتحدث عنها بالضبط، أليس كذلك؟ فعندما يتحدث المرء عن الجرائم «غير المكتَشَفة» وعن الجرائم «غير المحلولة» فإنه يتحدث في الحقيقة عن أمرين مختلفين. وتندرج ضمن المجموعة الأولى كل الجرائم التي لم تسمع بها سكوتلانديارد أبداً، أي تلك التي لم يعرف أحد حتى بارتكابها.

السيدة بانتري: ولكن لا أعتقد أنه يوجد الكثير من هذه الجرائم.

السير هنري: أحقاً؟

- سير هنري! لا أحسبك تعني أنه يوجد الكثير منها؟

قالت الآنسة ماربل متأملة: أظن أن أعداداً كبيرة من تلك الجرائم موجودة دون شك.

أدلت السيدة العجوز الرائعة ذات السكينة التي تذكّر بالأيام الخوالي برأيها هذا بلهجة بالغة الهدوء. قال لها الكولونيل بانتري: يا لآرائك يا آنسة ماربل!

الآنسة ماربل: يوجد بالطبع الكثير من الناس الحمقى الأغبياء. والأغبياء عادة ما يُكشفون مهما عملوا. ولكن يوجد أيضاً عدد كبير

من الناس غير الأغبياء، ويكاد المرء يرتعد خوفاً إذا ما فكر بالأشياء التي يمكن أن يحققوها إذا لم تكن لديهم مبادئ عميقة الجذور.

السير هنري: نعم، العديد من الناس لا يتصفون بالغباء. كم من الجرائم لا يتم اكتشافها إلاّ بسبب تصرف فجّ أخرق، وفي كل مرة يطرح المرء على نفسه السؤال: هل كان لأحد أن يعرف بأمر هذه الجريمة لولا هذ التصرف الأخرق؟

قال الكولونيل بانتري: ولكن هذا أمر خطير يا كليذرنغ، خطير جداً بالفعل.

السير هنري: أهو كذلك؟

- ماذا تعني؟ نعم، هو كذلك! إنه خطير بالطبع.

السير هنري: إنكم تقولون: "جريمة مضت دون عقاب"، فهل تمضي الجريمة حقاً دون عقاب؟ ربما لا يطالها عقاب القانون، ولكن متوالية السبب والنتيجة تعمل خارج القانون. إن الرأي القائل إن كل جريمة تجلب عقابها الخاص يكاد يكون شائعاً، وأنا لا أكاد أرى ما هو أكثر صحة منه.

الكولونيل بانتري: ربما، ربما. ولكن هذا لا يغير شيئاً من الخطورة. الـ... الخطورة...

سكت وكأنه حائر فيما يقول، فابتسم السير هنري وقال: إن تسعة وتسعين بالمئة من الناس يفكرون كما تفكر بلا ريب. ولكن

اعلم أن الذنب ليس هو الأمر المهم حقاً، فالبراءة هي المهمة. هذا ما لا يريد أحد إدراكه.

جين هيلر: أنا لا أفهم.

الآنسة ماربل: أنا أفهم. فعندما وجدت السيدة ترينت أن قطعة نقدية صغيرة قد فُقدت من حقيبتها كان الشخص الذي تأثر بذلك أكبر تأثر هو المرأة الخادمة، السيدة آرثر. فقد ظنت العائلة طبعاً أن الخادمة هي التي أخذت تلك البنسات القليلة، ولكن بما أنهم كانوا أناساً لطفاء ذوي سماحة، ولمعرفتهم بأن للخادمة أسرة ضخمة وزوجاً سكيراً فإنهم لم يريدوا دفع الأمور إلى مداها. ولكنهم بدؤوا يشعرون شعوراً مختلفاً إزاءها، ولم يتركوها تتولى شؤون المنزل عندما سافروا، وهو الأمر الذي أثر بها كثيراً، كما بدأ أناس آخرون أيضاً بالارتياب بها. ثم تبين فجأة أنها المربية؛ فقد رأتها السيدة آرثر من فتحة باب انعكست في المرآة. كانت مصادفة محضة... مع أني أفضل تسميتها عناية إلهية. أظن أن هذا ما يعنيه السير كليذرنغ. إن معظم الناس لا يهتمون إلاّ بمن أخذ النقود، ويتبين لاحقاً أنه أبعد الناس عن الشكوك، كما يحصل في القصص البوليسية! أما الشخص الحقيقي الذي كانت المسألة تشكل له قضية حياة أو موت فهو السيدة آرثر التي لم ترتكب أي جرم. هذا ما تعنيه، أليس كذلك يا سير هنري؟

- بلى يا آنسة ماربل، لقد أصبت كبد الحقيقة. الخادمة التي رويتِ قصتها كانت محظوظة في هذا المثال؛ فقد ظهرت براءتها. ولكن بعض الناس يمكن أن يمضوا حياتهم كلها مسحوقين تحت وطأة شكٍ لا مبرر له في الواقع.

سألت السيدة بانتري بذكاء: هل تفكر بمثال محدد يا سير هنري؟

السير هنري: الحقيقة يا سيدة بانتري أنني أفكر فعلاً في مثال محدد. قضية غريبة جداً، قضية ظننا فيها أن جريمة قتل قد ارتكبت، ولكن دون وجود أية فرصة ممكنة لإثباتها.

تمتمت جين هيلر قائلة: أحسبها كانت بسمٍّ لا يمكن كشفه.

تململ الدكتور لويد في مكانه فيما هز السير هنري رأسه بالنفي وقال: لا يا سيدتي العزيزة. لم يكن ذلك بالسم السري الذي يوضع على السهام عند هنود أمريكا الجنوبية! ليته كان شيئاً من هذا القبيل! كان علينا أن نتعامل مع شيء أكثر شيوعاً واعتيادية بكثير، بل إنه كان من الشيوع والاعتيادية -في الحقيقة- بحيث لم يكن لدينا أمل في إثبات القضية على المجرم. رجل عجوز يقع من الطابق الأعلى وتندقّ عنقه، واحدة من تلك الحوادث المؤسفة التي تقع كل يوم.

- ولكن ما الذي حدث بالفعل؟

ضم السير هنري كتفيه حيرة وقال: من يدري؟ دفعة من الخلف؟ خيط رُبط أمام الدرج في قمته ثم جرى فكه بكل حرص فيما بعد؟ هذا ما لن نعرفه أبداً.

الدكتور لويد: ولكنك تظن بالفعل أنها... أنها لم تكن حادثاً، أليس كذلك؟ لماذا؟

السير هنري: تلك قصة طويلة بعض الشيء، ولكن... بلى،

نحن واثقون تماماً أنها لم تكن حادثاً. وكما قلت، لم نملك فرصةً للتمكن من إثبات الفعلة على أحد، فلم تكن الأدلة مقنعة قوية. ولكن للقضية جانباً آخر... وهوالذي كنت أتحدث عنه. فقد وُجد أربعة أشخاص يحتمل أن يقوموا بتلك الحيلة. أحدهم مذنب، ولكن الثلاثة الآخرين أبرياء. وسيبقى هؤلاء الثلاثة تحت ظلال الشك الرهيبة ما لم يُعثر على الحقيقة.

السيدة بانتري: أظن أن الأفضل أن تروي لنا قصتك الطويلة.

السير هنري: لن أكون بحاجة إلى إطالتها كثيراً في نهاية الأمر. يمكنني -في كل الأحوال- أن أختصر بدايتها، وتلك البداية تتعلق بجمعية سرية ألمانية تدعى «شوارتزيه هاند»، وهي منظمة سرية تعتمد الابتزاز والإرهاب. وقد بدأ نشاط هذه المنظمة بشكل مفاجئ بعد الحرب، وانتشر إلى حدٍّ مذهل، ووقع العديد من الناس ضحية لها. ولم تنجح السلطات في التعامل مع هذه المنظمة لأن أسرارها كانت محفوظة تماماً، وكان من المستحيل -تقريباً- العثور فيها على شخص يمكن إقناعه بخيانتها.

لم تتوفر معلومات كثيرة عن المنظمة في إنكلترا، ولكنها كانت فاعلة تماماً في ألمانيا. وفي النهاية تم تدمير هذه المنظمة وتشتيت عناصرها من خلال جهود رجل واحد يدعى الدكتور روزن، الذي كان في فترة ما شخصية بارزة في أنشطة الشرطة السرية. فقد دخل روزن عضواً في هذه المنظمة واخترق أكثر دوائرها الداخلية سرية، وكان له -كما قلت- الدور الرئيسي في تحطيمها.

ولكن الرجل أصبح -نتيجة لذلك- مستهدَفاً، ورأت السلطات

الألمانية أن من الحكمة أن يغادر ألمانيا... لفترة معينة على الأقل. وهكذا جاء إلى إنكلترا، وتلقينا رسائل بشأنه من الشرطة في برلين. وقد جاء وقابلني شخصياً، وكان موقفه يتسم بالهدوء وتقبل الأمر الواقع، ولم يكن لديه أي شك فيما يخبئه له المستقبل؛ فقد قال لي: سينالون مني يا سير هنري، لا شك في ذلك.

كان رجلاً ضخماً ذا رأس جميل وصوت عميق جداً ليس في نبرته إلاّ القليل من القلقلة التي تنبئ بجنسيته. وقد مضى قائلاً: تلك نتيجة معروفة. ولا أهمية لذلك، فأنا مستعد. لقد واجهت المخاطر عندما توليت هذا الأمر، وقد فعلت ما عزمتُ عليه. لن تستطيع المنظمة الاجتماع ثانية أبداً. ولكن الكثير من أعضائها طلقاء أحرار، وسوف ينتقمون الانتقام الوحيد الذي يستطيعونه... بقتلي. إنها مسألة وقت، ولكنني حريص على أن يمتد هذا الوقت أطول فترة ممكنة؛ فأنا أجمع وأحرر بعض المواد المكتوبة شديدة الأهمية التي هي نتيجة حياتي العملية كلها. وأود -إن استطعت- أن أتمكن من إكمال مهمتي.

كان يتكلم ببساطة شديدة، وبشيء من الجلال الذي لم أستطع معه إلاّ أن أُعجب به. قلت له إننا سنأخذ كل الاحتياطات، ولكنه نحّى كلماتي جانباً بإشارة من يده وكرر قائلاً: سينالون مني يوماً ما عاجلاً أم آجلاً. وعندما يأتي ذلك اليوم فلا تأسَ كثيراً؛ فما من شك لدي بأنك ستكون قد بذلت كل ما في وسعك.

ثم بدأ يعرض خططه التي كانت بسيطة جداً. كان يعتزم شراء بيت صغير في الريف حيث يمكن له العيش بهدوء والاستمرار في

عمله. وقد اختار -في النهاية- قرية في منطقة سمرسيت تدعى كينغزناتن، وكانت تبعد سبعة أميال عن محطة قطار هناك، ولم تكن الحضارة قد وصلتها على الإطلاق. اشترى هناك بيتاً صغيراً رائعاً وأجرى عليه العديد من الإصلاحات والتحسينات ثم استقر هناك بكل قناعة.

كان آل بيته يتألفون من ابنة أخيه غريتا، وسكرتير، وخادمة ألمانية عجوز بقيت تخدمه بإخلاص لأكثر من أربعين عاماً، ورجل غير مقيم من أهالي قرية كينغزناتن يقوم بأعمال الصيانة الدورية للبيت بالإضافة إلى كونه بستانياً.

علّق الدكتور لويد بهدوء قائلاً: المشبوهون الأربعة.

- بالضبط، المشبوهون الأربعة. ليس لديّ الكثير مما يمكن أن يقال. مضت الحياة بسلام في قرية كينغزناتن لمدة خمسة أشهر ثم وقعت الضربة، فقد وقع الرجل عن الدرج ووُجد ميتاً بعد نصف ساعة من ذلك. وقتَ وقوعِ الحادث كانت غيرترود في مطبخها والباب مغلق فلم تسمع شيئاً... هذا ما تقوله هي. وكانت الآنسة غريتا في الحديقة تزرع بعض بصلات الزهور... وأيضاً، هذا ما تقوله هي. وكان البستاني -دوبز- قرب أحواض النباتات يتناول وجبته الخفيفة التي يتناولها ضحى كل يوم... وهذا ما يقوله هو. وكان السكرتير خارجاً في نزهة على الأقدام، وكذلك ليس لدينا ما يثبت ذلك باستثناء أقواله هو. لم يكن لأحد حجة غياب عن مكان الجريمة، ولم يكن بمقدور أحد أن يؤكد رواية غيره. ولكن شيئاً واحداً كان أكيداً؛ وهو أن أحداً من الخارج لم يكن بوسعه أن يفعل ذلك، لأن من شأن

أي غريب في قرية كينغزناتن أن يُلاحظ على الفور. كان للبيت بابان، أمامي وخلفي، وكانا مقفلين كلاهما، وكل فرد في البيت له مفتاحه الخاص لهما. وهكذا ترون أن الأمر ينحصر في هؤلاء الأربعة. ومع ذلك فإن كل واحد منهم يبدو فوق مستوى الشبهات؛ فغريتا ابنة أخيه الشقيق، وغيرترود خدمته بإخلاص لأربعين عاماً، ودوبز لم يخرج في حياته من قرية كينغزناتن، وتشارلز تيمبلتن، السكرتير.

الكولونيل بانتري: نعم، ماذا عنه؟ يبدو لي أنه الشخص المشتبه به. ماذا تعرفون عنه؟

قال السير هنري بتجهم: ما أعرفه عنه هو الذي يضعه خارج دائرة الشك تماماً... في ذلك الوقت على الأقل. فقد كان تشارلز تيمبلتن واحداً من رجالي.

صدرت عن الكولونيل بانتري آهة كمن فوجئ كثيراً، ومضى السير هنري قائلاً: نعم، أردت وجود أحد هناك في مسرح الأحداث، وفي نفس الوقت لم أرد إثارة الأقاويل في القرية. وكان روزن بحاجة حقاً إلى سكرتير، فوضعت تيمبلتن في هذه المهمة. وهو سيد مهذب يتحدث الألمانية بطلاقة، وهو -عموماً- رجل قدير تماماً.

سألت السيدة بانتري بلهجة مذعورة: ولكن من هو الذي شككتَ به إذن؟ فالجميع يبدون... يبدو مستحيلاً قيامهم بذلك.

السير هنري: نعم، هكذا بدا الأمر. ولكن بوسعك النظر إلى الأمر من زاوية مختلفة. فقد كانت الآنسة غريتا ابنة أخيه، وكانت فتاة محببة جداً، ولكن الحرب أثبتت لنا -في العديد من المرات- أن بوسع الأخ أن ينقلب على أخته، والأب على ابنه، وهكذا... وقد أقدمت

ألطف البنات وأنعمهن على أمور تثير العجب والدهشة. والأمر ذاته ينطبق على غيرترود، فمن يعلم ما هي المشاعر التي يمكن أن تكون معتملة في صدرها، ربما وقعت مشاجرة مع سيدها، أو سخط تجمّع ونمى، وربما زاد في اتقاده سنوات الخدمة الطويلة معه. إن النساء العجائز من تلك الطبقة يحسسن أحياناً بمرارة مذهلة. وماذا عن دويز؟ أكان حقاً خارج هذا الموضوع لمجرد أنه لا صلة له بالعائلة؟ إن من شأن المال أن يفعل الكثير. ربما تم التقرب منه بطريقة ما وشراؤه.

شيء واحد بدا مؤكداً: لا بد أن رسالة ما أو أمراً ما قد جاء من الخارج. وإلاّ فلماذا الانتظار خمسة أشهر قبل الضربة؟ لا، لا بد أن عملاء المنظمة كانوا يعملون بنشاط، ولكنهم لم يكونوا واثقين بعد من خيانته لهم فقد أخروا الأمر حتى توصلوا إلى أنه هو الخائن دون أدنى شك. وعندها لا بد أنهم أرسلوا رسالتهم إلى الجاسوس داخل المنزل... تلك الرسالة التي جاء فيها: «اقتل».

قالت جين هيلر وهي ترتعد: ما أقذر ذلك!

السير هنري: ولكن كيف وصلت الرسالة؟ كانت تلك هي النقطة التي حاولت حلّها، النقطة التي كانت الأمل الوحيد لحل هذا اللغز. لا بد أن واحداً من هؤلاء الأربعة قد تم التقرب إليه والاتصال به بطريقة ما. لم يكن من المفترض حدوث أي تأخير... هذا ما كنت أعرفه؛ إذ ينبغي تنفيذ الأمر فور وصوله. كانت تلك إحدى الخصائص المميزة لتلك المنظمة بالذات.

دققت في المسألة، دققت فيها بطريقة ربما رأيتموها شديدة

العناية بالتفصيلات الصغيرة. من الذي أتى إلى البيت الريفي في ذلك الصباح؟ سجلت الجميع دون استثناء أحد. ها هي القائمة.

أخرج من جيبه مغلفاً واختار من محتوياته ورقة ثم قرأ:

الجزار، وذلك لإحضار بعض اللحم، وقد تم التحري عن ذلك والتأكد من صحته... **مساعد البقّال**، لإحضار علبة من النشا ورطلين من السكر ورطل من الزبدة ومثله من القهوة. وقد تم أيضاً التحري من صحة ذلك ووجدته صحيحاً... **ساعي البريد**، جالباً معه نشرتين للآنسة روزن، ورسالة محلية لغيرترود، وثلاث رسائل للدكتور روزن إحداها تحمل طابعاً أجنبياً، ورسالتين للسيد تيمبلتين تحمل إحداهما أيضاً طابعاً أجنبياً.

توقف السير هنري قليلاً ثم أخرج من المغلف مجموعة من الوثائق وقال: ربما كنتم مهتمين برؤية هذه الرسائل. لقد أعطاني إياها الأشخاص ذوو العلاقة، أو جُمع بعضها من سلة المهملات. ولعل من نافلة القول أن أؤكد أنها قد اختُبرت من قبل خبراء مختصين بحثاً عن حبر سري وغير ذلك، ولم يكن فيها مثل تلك الأمور.

احتشد الجميع حوله ليروا الرسائل. كانت النشرتان عبارة عن «كاتالوغين» جاءا من صاحب مشتل للنباتات ومن مؤسسة شهيرة للفرو في لندن. أما الفاتورتان اللتان وُجهتا للدكتور روزن فقد كانت إحداهما محلية لبذور اشتراها للحديقة والأخرى من شركة قرطاسية في لندن. أما الرسالة التي جاءته فقد جاء فيها ما يلي:

عزيزي الدكتور روزن،

لقد عدت لتوي من عند الدكتور هيلموت. لقد رأيت إدغار قبل يومين، وقد عاد هو وآموس لتوهما من تسينغتاو، وبكل «الصدق» فإنني لا أحسدهما على تلك الرحلة. دعني أسمع أخبارك في أقرب وقت. كما قلت لك قبلاً: احذر من شخص معين. وأنت تعرف من الذي أعنيه، مع أنك لا توافقني الرأي.

المخلص: جيورجين

أما بريد السيد تيمبلتن فقد احتوى على هذه الفاتورة، وهي -كما ترون- لحساب قدمه خيّاطُه، ورسالة من صديق له في ألمانيا، وقد قام مع الأسف بتمزيق هذه الرسالة الأخيرة وهو يقوم بنزهته مشياً على الأقدام. ولدينا أخيراً الرسالة التي استلمتها غيرترود:

السيدة العزيزة شوارتز،

نأمل أن تستطيعي الحضور للتجمع الذي تعمله الكنيسة مساء الجمعة، ويقول الكاهن هو يأمل أيضاً أن تأتي؛ فالجميع على الرحب والسعة. طريقة عمل اللحم التي وصفتِها لي كانت ممتازة وأشكرك عليها. أرجو أن تصلك رسالتي وأنت بخير، وأننا نراك يوم الجمعة، وسأبقى دوماً...

المخلصة: إيما غرين

ابتسم الدكتور لويد والسيدة بانتري بسبب اللغة الركيكة للرسالة، وقال الدكتور لويد: أظن أن بالإمكان استبعاد هذه الرسالة الأخيرة.

السير هنري: لقد فكرتُ بالأمر نفسه، ولكنني تحققت -من

باب الاحتياط- من حقيقة وجود امرأةٍ تدعى السيدة غرين، وتجمعِ تشرف عليه الكنيسة؛ فشدة الحذر والتدقيق ضرورية كما تعلم.

قال الدكتور لويد وهو يبتسم: هذا ما تقوله دوماً صديقتنا الآنسة ماربل. إنكِ شاردة في أحلام اليقظة يا آنسة ماربل. بماذا تفكرين؟

جفلت الآنسة ماربل قليلاً ثم قالت: يا لغبائي! كنت أتساءل فقط لماذا وُضعت كلمة «الصدق» بين قوسين في رسالة الدكتور روزن.

أخذت السيدة بانتري الرسالة ثم قالت: إنها حقاً كذلك، آه!

الآنسة ماربل: نعم يا عزيزتي، لقد حسبتك لاحظت ذلك!

الكولونيل بانتري: في تلك الرسالة تحذير محدد أكيد... هذا هو أول ما استرعى انتباهي. لقد لاحظت أكثر مما تتصورون. نعم، فيها تحذير أكيد... تحذير ممّن؟

السير هنري: يوجد أمر غريب يخص تلك الرسالة. فوفقاً لأقوال تيمبلتن قام الدكتور روزن بفتح الرسالة على مائدة الإفطار، ثم دفعها إليه (أي إلى تيمبلتن) قائلاً إنه لا يعرف أبداً هذا الرجل.

جين هيلر: ولكنه لم يكن رجلاً... فقد وُقِّعت الرسالة باسم «جورجينا».

الدكتور لويد: من الصعب الجزم بذلك؛ فالتوقيع غير واضح تماماً. إنه يبدو بالتأكيد أقرب إلى جورجينا، إلاّ أن الكتابة تبدو لي كتابة رجل.

الكولونيل بانتري: أرى أمراً مثيراً للاهتمام، وهو دفعه للرسالة عبر الطاولة بتلك الطريقة وتظاهره بأنه لا يعلم شيئاً عنها. لا بد أنه أراد مراقبة وجه أحد الحاضرين. فأي وجه كان المقصود؛ وجه الفتاة؟ أم وجه الرجل؟

السيدة بانتري: أو حتى وجه الطباخة؟ إذ ربما كانت في الغرفة تجلب لهم طعام الإفطار.

سألت جين هيلر فجأة: ولكن لماذا مزق السكرتير الرسالة؟ يبدو ذلك... آه! لا أدري، يبدو الأمر غريباً. ولماذا تأتيه رسائل من ألمانيا؟ إلاّ إذا كنت تقول طبعاً إنه فوق مستوى الشبهات.

رفعت الآنسة ماربل رأسها وقالت بسرعة: ولكن السير هنري لم يقل ذلك. فقد قال: «أربعة مشبوهين»، وهذا دليل على أنه لم يستبعد السيد تيمبلتن. ألستُ على صواب في ذلك يا سير هنري؟

السير هنري: نعم يا آنسة ماربل. لقد علمتني التجارب المرة أمراً واحداً، وهو أن لا أقول لنفسي إن أحداً فوق الشبهات كائناً من كان. لقد أعطيتكم قبل قليل أسباباً تجعل من المحتمل أن يكون أي من الثلاثة مذنباً، مهما بدت تلك الأسباب بعيدة الاحتمال. لم أطبق هذا الإجراء على تشارلز تيمبلتن في ذلك الحين، ولكنني عمدت إليه أخيراً تطبيقاً للقاعدة التي ذكرتها لتوي. ولقد اضطررت للاعتراف بالحقيقة التالية: إن كل جيش وكل قوة شرطة يكون بين صفوفها عدد معين من الخونة، رغم كراهيتنا الشديدة لمثل هذا الاعتراف؛ ولذلك تحريت -بتجردٍ- عن الدلائل التي تدين تشارلز تيمبلتن.

ولطالما طرحت على نفسي الأسئلة ذاتها التي طرحتْها الآنسة هيلر قبل قليل: لماذا لم يستطع تيمبلتن -من بين كل ساكني البيت- أن يبرز الرسالة التي تلقاها؟ والأنكى أنها حملت طابع بريد ألمانياً! لماذا عساه يتلقى رسائل من ألمانيا؟

كان السؤال الأخير بريئاً، وقد طرحته عليه بالفعل. وجاء جوابه في غاية البساطة؛ إذ كانت خالته قد تزوجت رجلاً ألمانياً، وكانت الرسالة من ابنة خالته الألمانية. وهكذا علمتُ شيئاً لم أكن أعرفه من قبل؛ وهو أن لتشارلز تيمبلتن علاقات مع أناس في ألمانيا. وقد أدخله ذلك بالتأكيد في لائحة المشبوهين، وبشكل مبرر تماماً. إنه مساعدي الخاص... فتى طالما أحببته ووثقت فيه، ولكن العدالة والإنصاف يدعوانني إلى الاعتراف بأنه على رأس تلك القائمة.

ولكن الأمر ينتهي عند ذلك، فأنا لا أعرف! لا أعرف يقيناً، ولن يتاح لي أن أعرف في أغلب الاحتمالات. المسألة ليست مسألة معاقبة قاتل، بل هي مسألة تبدو لي أهم من ذلك مئة مرة؛ مسألة قد ترقى إلى تدمير الحياة المهنية لرجل شريف... بسبب الشك. وهو شك لا أجرؤ على تجاهله.

تنحنحت الآنسة ماربل وقالت بهدوء: إن كنتُ قد فهمتك بشكل صحيح يا سير هنري فإن هذا الشاب تيمبلتن هو الذي ترجحه في ذهنك، أليس كذلك؟

السير هنري: بلى، بمعنى من المعاني. نظرياً ينبغي أن تتوزع الشكوك على الأربعة جميعاً بشكل متساوٍ، ولكن الوضع ليس هكذا عملياً. إذ ربما حامت الشكوك في رأسي حول دوبز مثلاً، ولكن ذلك

لن يؤثر فعلياً على حياته العملية؛ فلم يخطر في بال أحد من سكان القرية أن وفاة الدكتور روزن كانت شيئاً آخر سوى حادث عرضي. أما غيرترود فإنها تتأثر أكثر قليلاً من البستاني؛ فمن شأن الشك مثلاً أن يجعل موقف الآنسة روزن مختلفاً تجاهها، ولكن ربما لم تكن لذلك أهمية كبرى عندها. أما بالنسبة لغريتا روزن... فإننا نصل هنا إلى لب الموضوع. فغريتا فتاة بالغة الجمال، وتشارلز تيمبلتن شاب وسيم، وقد وجد الاثنان نفسيهما معاً لخمسة أشهر دون وجود ما يلهي أحدهما عن الآخر. ولذلك حدث ما لا مفر منه، ووقعا كلٌّ في حب صاحبه، حتى وإن لم يصلا إلى نقطة الاعتراف صراحة بذلك.

ثم حدثت الكارثة. قبل نحو ثلاثة أشهر من الآن -وكنت قد عدت قبل يومين من ذلك- جاءت غريتا روزن لرؤيتي. كانت قد باعت المنزل وتهيأت للمغادرة إلى ألمانيا بعد أن أنهت أخيراً الشؤون المتعلقة بعمها. جاءت إليّ شخصياً رغم علمها بأنني تقاعدت، ولكن القضية التي أرادت رؤيتي من أجلها كانت قضية شخصية بالفعل. لفّت ودارت قليلاً حول الموضوع، ولكنها باحت أخيراً بما جاءت من أجله. فقد جاءت لتسألني ما هو رأيي بخصوص قاتل عمها؟ قالت إنها قلقت كثيراً من تلك الرسالة ذات الطابع الألماني التي مزقها تشارلز. سألتني إن كانت تلك مسألة عرضية لا بأس فيها؟ وأجابت نفسها قائلة إنها كذلك لا شك. كانت تصدق قصته بالطبع، ولكن، آه! لو قُدِّر لها فقط أن تعرف معرفة يقينية! لو قُدِّر لها أن تتأكد!

أرأيتم؟ كان ذلك هو نفس الشعور: الرغبة في الثقة... ولكن كيف بهذا الشك الرهيب الذي يراود العقل، يرميه المرء بحزم إلى خلفية عقله، ولكنه يبقى ملحاً رغم ذلك. تحدثت معها بصراحة

تامة، وطلبت منها أن تحدثني بنفس الصراحة. سألتها إن كانت هي وتشارلز قد وصلا إلى نقطة الاهتمام بعضهما ببعض. أجابت قائلة: أظن ذلك، آه، نعم، بل أعلم أن الأمر قد وصل إلى هذا الحد. كنا سعيدين جداً. كان كل يوم يمر بمنتهى القناعة والرضا، وكنا نعلم... كلانا كان يعلم بذلك. ولم نكن في عجلة من أمرنا، فأمامنا كل الوقت في هذا العالم. سيقول لي يوماً إنه يحبني وأقول له إنني أحبه أيضاً. آه! بوسعك أن تخمن الوضع الآن! لقد تغير كل شيء. لقد انتصبت بيننا غيمة سوداء وأصبحنا مقيدين، وعندما نلتقي لا نعرف بماذا نتحادث. وربما كان الأمر معه كما هو معي... كلانا يقول لنفسه: "لو كنت متأكداً فقط!". ولهذا فإنني أتوسل إليك يا سير هنري أن تقول لي: "تأكدي وثقي بأن مَن قتل عمك -كائناً من كان- لم يكن تشارلز تيمبلتن!". قل لي ذلك! آه، قله لي! أتوسل إليك!

ضرب السير هنري الطاولة بقبضته وقال: تباً! لم أستطع قول ذلك لها. سيبتعد هذان الاثنان أكثر فأكثر بعضهما عن بعض والشك يقف كالشبح حائلاً بينهما، كشبح لا يمكن التخلص منه.

استند إلى ظهر كرسيه ووجهُه يبدو متعباً متجهماً، ثم هز رأسه بيأس بضع مرات وقال: ولا مزيد مما يمكن فعله إلاّ إذا...

اعتدل ثانية في جلسته وابتسم ابتسامة صغيرة وأكمل قائلاً: ... إلاّ إذا استطاعت الآنسة ماربل مساعدتنا. ألا تستطيعين ذلك يا آنسة ماربل؟ لديّ شعور بأن تلك الرسالة ربما كانت ضمن مجال اهتماماتك، أعني تلك التي تتحدث عن اجتماع الكنيسة. ألا تذكّرك

الرسالة بشيء أو بأحد من شأنه أن يوضح لنا هذه القضية تماماً؟ ألا يمكنك القيام بشيء لمساعدة شابين يائسين ينشدان السعادة؟

كان خلف النبرة الساخرة التي طبعت مناشدته شيء من الجدية؛ فقد بدأ يقيّم عالياً القدرات الذهنية لهذه العجوز الضعيفة عتيقة الطراز. مد إليها نظره عبر الغرفة وفي عينيه شيء أشبه ما يكون بالأمل.

تنحنحت الآنسة ماربل ومسّدت وشاحها ثم اعترفت قائلة: إنها تذكرني قليلاً بامرأة تدعى آني بولتني. الرسالة واضحة تماماً بالطبع... لا أقصد الرسالة التي تتحدث عن اجتماع الكنيسة، بل تلك الأخرى.

السير هنري: ماذا؟ وماذا فيها؟

مدت السيدة بانتري يدها وسحبت الرسالة وقرأت بصوت مرتفع الأسماء التي وردت فيها: الدكتور هيلموت (Dr.)، إدغار (Edgar)، آموس (Amos)، تسينغتاو (Tsingtau)، الصدق (Honesty).

تدخلت الآنسة ماربل شارحة: لاحظوا أن الأحرف الأولى للأسماء التي وردت في الرسالة -مضافاً إليها الحرف الأول من الكلمة الوحيدة التي كُتبت بين هلالين، الصدق- تشكل كلمة «موت (death)».

اعترض السير هنري: ولكن الرسالة جاءت للدكتور روزن نفسه.

الآنسة ماربل: كان ذلك هو الجزء الذكي من العملية... هذا

الجزء بالإضافة إلى التحذير الذي في الرسالة. ما الذي كان الدكتور روزن سيفعله وقد وردته رسالة من شخص لا يعرفه مليئة بأسماء لا يعرفها؟ من شأنه أن يدفعها بالطبع إلى سكرتيره.

السير هنري: إذن فقد كان هو...

الآنسة ماربل: آه، لا! ليس السكرتير. بل إن هذا هو ما يجعل من الواضح تماماً أنه لم يكن هو. إذ ما كان ليسمح بأن يتم العثور على هذه الرسالة أبداً لو كان الأمر كذلك، كما أنه ما كان أيضاً ليمزق رسالة جاءته وعليها طابع ألماني. إن براءته أوضح من الشمس في الواقع.

السير هنري: مَن إذن؟

الآنسة ماربل: يبدو ذلك الأمر شبه مؤكد... بل هو مؤكد تماماً. لم يكن الاثنان بمفردهما على طاولة الإفطار، وكان من شأن الحاضرة الثالثة -وبشكل طبيعي جداً في ظل تلك الظروف- أن تمدّ يدها طلباً للرسالة وتقرأها؛ وبذلك يكون الأمر قد انتهى.

قال السير هنري ببطء: غريتا روزن! إذن فقد كانت زيارتها لي...

قاطعته الآنسة ماربل قائلة: الرجال لا يكشفون مثل هذه الأساليب أبداً، وهم غالباً ما يتهموننا -نحن معشر العجائز- بالفضول والمبالغة في إساءة الظن. ولكن ما حصل هو أننا نعرف الكثير عن بنات جنسنا مع الأسف. لا شك عندي أن حاجزاً كان يفصل بين الاثنين... فقد شعر الشاب تجاهها بكراهية مفاجئة لا تفسير لها. لقد شك فيها بدافع الغريزة المحضة، ولم يستطع إخفاء شكوكه.

وإنني أظن حقاً أن زيارة الفتاة لك كانت كيداً صرفاً؛ فقد كانت آمنة لا خطر عليها في الواقع، ولكنها حاولت جاهدة أن تثبّت شكوكك تجاه الرجل المسكين تيمبلتن بشكل نهائي. لا أظن شكوكك كانت كبيرة تجاهه إلاّ بعد زيارتها لك.

بدأ السير هنري دفاعه بالقول: أنا واثق أن شكوكي لم تزدد نتيجة كلام محدد قالته هي...

قاطعته الآنسة ماربل بهدوء: لا يحسن الرجال أبداً كشف مثل هذه الأساليب.

السير هنري: وتلك الفتاة... أترتكب جريمة قتل وحشية وتنجو هكذا دون عقاب؟!

الآنسة ماربل: آه! لا يا سير هنري؛ لن تنجو دون عقاب. لا أنت ولا أنا نؤمن بذلك. تذكّر ما قلتَه في مستهل قصتك قبل قليل... لا، لن تنجو غريتا روزن من العقاب؛ فهي متورطة -دون شك- مع مجموعة غريبة جداً من الناس... منهم المبتزون والإرهابيون... وهم رفقة سوء لن ينفعوها، وربما جعلوها تنتهي نهاية محزنة. كما قلتَ أنت: على المرء أن لا يضيع أفكاره على المذنب؛ فالبريء هو مَن يهم. أظن السيد تيمبلتن سيتزوج ابنة خالته الألمانية تلك، فتمزيقه لرسالتها يبدو... يبدو أمراً يثير الشكوك. وأنا أستخدم هذه الكلمة هنا بمعنى مختلف تماماً عن استخدامنا طوال هذه الأمسية. ألا يبدو أنه كان خائفاً قليلاً من ملاحظة الفتاة الأخرى للرسالة أو سؤالها عنها لقراءتها؟ بلى، أظن أن بينه وبين ابنة خالته قصة حب صغيرة. أما دوبز فما كان الأمر ليهمه كثيراً... ربما كانت وجبات الضحى هي كل ما يهمه. ولكن

تبقى تلك المسكينة العجوز غيرترود... التي ذكّرتني بآني بولتني. فقد قضت خمسين سنة من الخدمة المخلصة، ومع ذلك اشتبهوا بأنها تخلصت من وصية الآنسة لام، مع أنه لم يكن بالإمكان إثبات شيء. وقد كاد ذلك الظن يفطر القلب المخلص لتلك المخلوقة المسكينة، وبعد ذلك، بعد موتها... تبين أن الوصية كانت في الدرج السري لعلبة الشاي، في نفس المكان الذي خبأتها فيه العجوز لام حفظاً لها. ولكن الوقت كان قد تأخر كثيراً بالنسبة للمسكينة آني.

ذلك هو ما يقلقني كثيراً حول تلك المرأة الألمانية المسكينة. عندما يكبر المرء بالسن يميل إلى الشعور بالمرارة بسهولة. لقد شعرت بالأسف عليها أكثر مما أسفت على السيد تيمبلتن بكثير؛ فهو شاب ووسيم ومن الواضح أنه يجذب النساء. ألن تكتب لها يا سير هنري لتخبرها فقط بأن براءتها قد ثبتت قطعياً؟ إن سيدها العجوز الذي أحبته قد مات، ولا شك أن المرارة تعتمل في قلبها وهي تشعر أنهم يشكّون بأنها... بأنها... آه! لا يحتمل المرء التفكير بالأمر!

قال السير هنري: "سأكتب لها يا آنسة ماربل". ثم نظر إليها بفضول وقال: أتعلمين؟ أنا لن أفهمك أبداً؛ إن المنظور الذي تتناولين به الأمور مختلف دائماً عمّا أتوقعه.

قالت الآنسة ماربل بتواضع: أخشى أن منظوري منظورٌ تافه جداً؛ فأنا نادراً ما خرجت من قرية سينت ميري ميد.

السير هنري: ومع ذلك فقد حللت ما يمكن تسميته لغزاً دولياً؛ أنت حللتِه في الواقع... أنا مقتنع بذلك.

احمرّ وجه الآنسة ماربل ثم هزت رأسها قليلاً وقالت: أظنني نلت من التعليم نصيباً جيداً بالنسبة لتلك الأيام. وكانت لنا -أختي وأنا- مربية ألمانية كانت امرأة شديدة الرومانسية، وقد علّمتنا لغة الزهور، وهي دراسة منسية في أيامنا هذه، ولكنها ممتعة جداً. فزهرة التيوليب الصفراء مثلاً تعني الحب الذي لا أمل فيه، بينما تعني زهرة النجمية أنني أموت غيرة على قدميك... كانت الرسالة موقعة باسم «جورجين»، الذي تذكرت أنه يعني «الأضاليا» في ألمانيا، وهذا هو بالضبط ما جعل الأمر كله واضحاً. لم أستطع -في البداية- تذكّر المعنى الذي كان يُعزا لزهرة الأضاليا؛ فذاكرتي لم تعد كما كانت، ولكني تذكّرت لاحقاً أن الأضاليا تعني «الخيانة والتنكر». يا لها من أمور محزنة جداً تجري في هذا العالم!

تنهدت السيدة بانتري قائلة: نعم، هذا صحيح. من حسن حظ المرء أن لديه أزهاراً وأصدقاء.

الدكتور لويد: لاحظوا أنها جعلتنا الأخيرين بعد الأزهار.

قالت جين هيلر حالمة: لقد اعتاد رجلٌ أن يرسل لي أزهار السحلبية الأرجوانية كل ليلة إلى المسرح.

قالت لها الآنسة ماربل بفرح: "إنني أنتظر عطفك"... هذا ما تعنيه تلك الأزهار.

علق السير هنري قائلاً: "رائع. رائع تماماً"، ثم تنهد.

* * *

الفصل العاشر
مأساة في عيد الميلاد

قال السير هنري كليذرنغ: لدي شكوى أطرحها.

التمعت عيناه بلطف وهو ينقّل نظره بين أفراد المجموعة. كان الكولونيل بانتري جالساً وقد مدّ ساقيه يحدق عابساً إلى إطار الموقد أمامه كما لوكان ذلك الإطار جندياً يسيء التصرف في استعراض عسكري. أما زوجته فكانت تنظر إلى نشرة وصلت في بريد المساء حول زراعة بصل الأزهار. وكان الدكتور لويد يتحدث إلى جين هيلر. وحدها تلك الآنسة العجوز العزباء، الآنسة ماربل، كانت تجلس منتصبة القامة تماماً، وقد التقت عيناها الزرقاوان الغائمتان بعيني السير هنري بالتماعة جوابية وقالت له: شكوى؟

السير هنري: شكوى في غاية الجدية! نحن -هنا- مجموعة من ستة أشخاص، يمثل كل ثلاثة منا جنساً، وإنني أحتج باسم الذكور المضطهدين؛ فقد تمت رواية ثلاث قصص اليوم، وكلها رواها الرجال! إنني أحتجّ لأن النساء لم يسهمن بحصتهن العادلة في ذلك.

احتجت السيدة بانتري قائلة: آه! أنا واثقة أننا أسهمنا... لقد أصغينا بأكبر قدر من التقدير المتفهم، وقد اتخذنا الموقف النسوي الصحيح؛ وهو عدم التدافع لنكون تحت الأضواء!

السير هنري: هذه حجة ممتازة، ولكنها لن تفيدكن. وإن لكنّ في قصص ألف ليلة وليلة لسابقةً رائعة! إذن هيا يا شهرزاد!

السيدة بانتري: أتعنيني أنا؟ ولكني لا أعرف شيئاً تمكن روايته؛ فلم أجد نفسي أبداً محاطة بالدم والألغاز.

السير هنري: أنا لا أصر تماماً على الدم، ولكنني واثق أن واحدة منكنّ أنتنّ الثلاثة لديها لغز صغير تخبئه. هيا يا آنسة ماربل... أعطنا شيئاً من قبيل «لغز عاملة التنظيف» أو «لغز اجتماع الأمهات»... لا تخيبي أملي في قرية سينت ميري ميد.

الآنسة ماربل: ليس لدي ما يمكن أن يثير اهتمامك يا سير هنري. لدينا ألغازنا الصغيرة بالطبع... مثلاً، حادثة سلة الروبيان التي اختفت بشكل غامض. ولكن لن تثير هذه القصة اهتمامك إذ تبين أنها كانت مسألة تافهة تماماً، مع أنها ألقت الكثير من الضوء على الطبيعة البشرية.

السير هنري: لقد علمتِني شدة الشغف بالطبيعة البشرية.

الكولونيل بانتري: ماذا عنك أنت يا آنسة هيلر؟ لا بد أنك قد مررت ببعض التجارب المثيرة.

الدكتور لويد: نعم، صحيح.

جين هيلر: أنا؟ أتعنون... أنكم تريدون مني أن أقص عليكم شيئاً مما حدث معي؟

السير هنري: أو مع أحد من أصدقائك.

قالت جين هيلر كالشاردة: "آه! لا أظن شيئاً قد حدث معي أبداً... أعني من مثل هذه الأمور. جاءتني أزهار مثلاً ورسائل غريبة، ولكن هذا مجرد تصرفات رجال، أليس كذلك؟ لا أظن...". ثم توقفت وبدت غارقة في أفكارها.

السير هنري: أرى أننا سنضطر إلى سماع ملحمة الروبيان تلك. حسناً، هيا يا آنسة ماربل.

الآنسة ماربل: كم أنت مولع بنكاتك يا سير هنري! لم تكن قصة الروبيان -كما تبين- إلاّ قصة سخيفة، ولكني تذكرت قبل قليل أن لديّ بالفعل حادثاً أذكره. لم يكن حادثاً بالضبط، بل أكثر خطورة بكثير من ذلك... كان مأساة. وقد حدث وكنت معنية ومشارِكة بهذا الأمر بطريقة ما. ولم أندم أبداً لما فعلته وقتها... كلا، لم أندم أبداً. ولكنه لم يحدث في سينت ميري ميد.

السير هنري: هذا يخيب أملي، ولكنني سأتنازل وأتحمل ذلك! كنت أعرف أن اعتمادنا عليك لن يذهب عبثاً.

ثم عدل جلسته ليأخذ سمت المستمع. احمر وجه الآنسة ماربل قليلاً وقالت بشيء من القلق: أرجو أن أتمكن من سرد القصة عليكم بشكل جيد؛ فأظنني أميل كثيراً إلى الاستطراد والخروج عن الموضوع. يخرج المرء عن موضوعه دون أن يدري بأنه يفعل

ذلك. كما أن من الصعب جداً تذكر كل حقيقة بتسلسلها الصحيح. عليكم جميعاً أن تتحملوني إن كانت روايتي للقصة سيئة؛ فقد وقعت أحداثها منذ أمد بعيد. لم يكن للقصة -كما قلت- علاقة بقرية سينت ميري ميد، والحقيقة أنها تتعلق بمشفى للمعالجة بالمياه.

فتحت جين هيلر عينيها دهشة وقالت: المعالجة بالمياه؟

السيدة بانتري: هذا ما لا تعرفينه يا عزيزتي.

ثم شرحت لها عمل مثل تلك المصحات. وقد أسهم زوجها بنصيبه قائلاً: أماكن مقرفة... مقرفة تماماً! فعليك أن تنهض مبكراً وتشرب ماء كريه الطعم. وحولك الكثير من النسوة العجائز، والنميمة والقيل والقال على قدم وساق. يا إلهي، عندما أتذكر ذلك...

قاطعته السيدة بانتري قائلة بهدوء: كُفّ عن هذا يا آرثر. أنت تعلم كم كان ذلك مفيداً لصحتك.

دمدم الكولونيل بانتري متذمراً: العديد من النسوة العجائز حولك يثرثرن بالفضائح.

الآنسة ماربل: أظن ذلك صحيحاً، إنني شخصياً...

صاح الكولونيل هلعاً: يا عزيزتي الآنسة ماربل، أنا لم أقصد أبداً..

أوقفته الآنسة ماربل بإشارة بسيطة من يدها وقد احمرت وجنتاها وقالت: ولكن ذلك صحيح يا سيد بانتري. كل ما كنت أريد قوله هو التالي... دعني أستعِد أفكاري. نعم، الثرثرة بالفضائح

كما أسميتَها. نعم، هذا ما يحدث كثيراً بالفعل، والناس يسخطون كثيراً لذلك، وخصوصاً الشباب. إن ابن أختي الذي يكتب روايات، روايات رائعة كما أظن، قد كتب عن مسألة التجني على شخصيات الناس دون أي دليل وعن مدى الشر في ذلك... إلى آخر هذه الأمور. ولكن ما أقوله هو أن أحداً من هؤلاء الشباب لم يتمهل مرة واحدة ليفكر. إنهم حقاً لا يتفحصون الحقائق جيداً. من المؤكد أن لب الموضوع يكمن فيما يلي: إلى أي مدى تكون الثرثرة -كما أسميتها- صحيحة! إنني أحسب أنهم إذا ما تفحصوا الحقائق بشكل جيد -كما قلت- لوجدوا أن الثرثرة كانت صحيحة بنسبة تسعين بالمئة! وهذا في الحقيقة هو تماماً ما يجعل الناس يتضايقون كثيراً من هذا الأمر.

السير هنري: التخمين المُلهَم.

الآنسة ماربل: لا، ليس ذلك، أبداً! إنها -في الواقع- مسألة دربة وخبرة. لقد سمعت عن خبير في شؤون الآثار المصرية إذا ما عُرضت عليه واحدة من تلك الخنافس الصغيرة الغريبة التي اتخذها قدماء المصريين رمزاً لهم فإن بوسعه -بمجرد النظر إليها وتلمسها- أن يخبرك إلى أي تاريخ تعود قبل الميلاد، أو إن كانت مجرد تقليد مما يصنع في بيرمنغهام. وهو لا يستطيع دوماً تفسير القاعدة المحددة التي يعتمدها في ذلك. إنه يعرف وحسب... فقد أمضى حياته في التعامل مع مثل هذه الأمور.

وهذا هو ما أحاول قوله (وأعلم أنني أقوم بذلك بشكل سيء جداً). إن ما يسميه ابن أختي «نساء فائضات عن الحاجة» يكون لديهن الكثير من وقت الفراغ، ويكون اهتمامهن الرئيسي عادة بالناس،

ولذلك لا بد أن يكُنّ ما يمكن أن نسميه خبيرات. شباب هذه الأيام يتحدثون باستفاضة عن أمور لم تكن معروفة في أيام شبابي، ولكن عقولهم -من جهة أخرى- بريئة إلى حد فظيع. إنهم يصدقون كل شيء ويثقون بكل شخص. وإذا ما حاول المرء تحذيرهم بألطف ما يكون التحذير تراهم يقولون إن لديه عقلاً فيكتورياً قديماً...

السير هنري: وعلى أية حال، ما هو العيب في القديم؟

الآنسة ماربل: بالضبط، ما هو العيب فيه؟ عليّ أن أعترف أن لدي مشاعري الخاصة، كغيري، وقد تعرضت في كثير من الأحيان لملاحظات طائشة تجرح المشاعر بكل قسوة. أعلمُ أن الرجال لا يهتمون بأمور الخدم، ولكن علي الإشارة فقط إلى خادمتي إيثيل... فتاة تتمتع بقدر كبير من الجمال وهي خدومة بكل ما في الكلمة من معنى. ولكنني أدركت منذ أن رأيتها بأنها من نفس نوع آني ويب ومن نفس نوع خادمة السيدة المسكينة بروت، فإذا ما واتتها الفرصة لا يعني لها الحلال والحرام شيئاً، ولذلك صرفتها في نهاية الشهر وأعطيتها رسالة خدمة تقول إنها كانت نشيطة وواعية، ولكنني حذرت السيدة العجوز إدواردز سراً من توظيفها. وقد غضب ابن أختي لذلك أشد الغضب وقال إنه لم يسمع أبداً من قبل بتصرف شرير كهذا... نعم، شرير! وهكذا ذهبت الفتاة لتعمل عند الليدي آشتون التي لا توجد لي علاقة معها تلزمني بتحذيرها... فما الذي حدث؟ وجدت كل الكشاكش وقد قُصّت من ملابسها الداخلية، وسُرق دبوسان من الألماس... وغادرت الفتاة في منتصف الليل ولم يسمع بها أحد بعد ذلك!

توقفت الآنسة ماربل وأخذت نفساً عميقاً ثم مضت تقول: لعلكم تقولون إن هذا لا علاقة له بما جرى في مصحة «كيستن سبا» المائية... ولكن الحقيقة أن له علاقة بشكل ما؛ فهو يفسر سبب شعوري الداخلي الأكيد منذ أن رأيت الزوجين ساندرز معاً بأن الرجل يريد قتل زوجته.

هتف السير هنري وهو ينحني للأمام: ماذا؟!

أدارت له الآنسة ماربل وجهاً هادئاً وقالت: نعم يا سير هنري، شعرت بذلك في عقلي، شعوراً لا يخامره الشك. كان السيد ساندرز رجلاً ضخماً وسيماً أحمر الوجه شديد البشاشة والحماسة يحبه الجميع، وما كان لأحد أن يكون أكثر منه إمتاعاً وتسلية لزوجته. ولكنني عرفت... كان ينوي قتلها!

السير هنري: يا عزيزتي الآنسة ماربل...

الآنسة ماربل: نعم، أعرف. هذا ما كان من شأن ابن أختي أن يقوله. كان من شأنه أن يقول إنني لا أملك أي دليل مهما كان واهياً. ولكنني أذكر وولتر هونز الذي كان يدير مطعم غرين مان. فبينما كان يمشي ليلاً مع زوجته عائدين إلى البيت وقعت زوجته في النهر... وحصل هو على مبلغ التأمين! وأعرف أيضاً شخصاً أو شخصين ممن يجوبون الأرض أحراراً حتى اليوم بعد أن نجوا من العقوبة... وأحدهم في الواقع من معاصرينا الذين نعرفهم. ذهب إلى سويسرا لقضاء إجازة الصيف في تسلق الجبال مع زوجته. وقد حذرتها كي لا تذهب... والمسكينة العزيزة لم تغضب كما كان متوقعاً منها، بل اكتفت بالضحك. بدا لها غريباً أن تأتي امرأة عجوز غريبة الأطوار

مثلي لتقول لها مثل هذه الأشياء عن عزيزها هاري. حسناً، حسناً. لقد وقع هناك حادث... وهاري متزوج بامرأة أخرى الآن. ولكن ما الذي أستطيع فعله؟ كنت أعرف، ولكن لم يكن لديّ دليل.

صاحت السيدة بانتري: يا عزيزتي، لا أحسبك حقاً تقصدين...

الآنسة ماربل: يا عزيزتي، هذه الأشياء شائعة جداً... شائعة جداً في الحقيقة. والرجال بشكل خاص يتعرضون لمثل هذا الإغراء، باعتبارهم أقوى بكثير من النساء. الأمر في غاية السهولة إن هو بدا وكأنه حادث. وفي حالة الزوجين ساندرز فإنني عرفت فوراً كما قلت لكم. كان ذلك في عربة ترام، وكانت العربة مليئة في الطابق السفلي واضطررت للصعود إلى الطابق الأعلى. وقد وقفنا ثلاثتنا لننزل ففقد السيد ساندرز توازنه ووقع مباشرة على زوجته فأوقعها من أعلى درج الترام ورأسها إلى الأسفل. ومن حسن الحظ أن الجابي كان شاباً قوي الجسم تماماً فأمسكها.

السيدة بانتري: ولكن لا بد أن ذلك كان حادثاً بالتأكيد.

الآنسة ماربل: كان حادثاً بالطبع... فإذا لم يبدُ هذا حادثاً فما الذي سيبدو كذلك! ولكن السيد ساندرز كان يعمل سابقاً في الأسطول التجاري، هذا ما قاله لي. وإن رجلاً كان بوسعه حفظ توازنه على متن مركب لا يفتأ يتمايل لا يفقد توازنه في الترام إن كانت امرأة عجوز مثلي تحافظ على توازنها. لا تحاولي إقناعي بغير ذلك!

السير هنري: بوسعنا القول -على أية حال- أنك حزمت أمرك وأصدرت حكمك منذ ذلك الحين.

أومأت العجوز برأسها موافقة وقالت: كنت واثقة تماماً، وجاء حادث آخر بعد وقت قصير عند عبور أحد الشوارع ليزيدني ثقة على ثقة. وإنني أسألك الآن يا سير هنري: ما الذي كان بوسعي أن أفعله؟ ها هي أمامي شابة لطيفة راضية سعيدة لن تلبث أن تُقتل.

السير هنري: يا سيدتي العزيزة... إنك توشكين على قطع أنفاسي انبهاراً!

الآنسة ماربل: ذلك لأنك -كمعظم الناس في هذه الأيام- لا تريد مواجهة الحقائق. أنت تفضّل أن ترى أن هذا أمر لا يمكن أن يحصل. ولكن الأمر كان كذلك، وكنت أعرف ذلك. غير أن المرء مقيد بشكل محزن! لا أستطيع -مثلاً- أن أذهب إلى الشرطة، كما أن تحذير المرأة الشابة سيكون تصرفاً لا فائدة منه. كانت متعلقة به أشد التعلق، ولذلك اكتفيت بأن جعلت دأبي أن أعثر على أكبر قدر من المعلومات عنهما. إن حياكة الصوف حول المدفأة تتيح الكثير من الفرص للمرء. وقد كانت السيدة ساندرز (واسمها الأول غلاديس) بادية الاستعداد للكلام. ويبدو أنهما قد تزوجا منذ فترة غير بعيدة، وكانت لزوجها ملكية ما ستؤول إليه قريباً، ولكنهما كانا في حالة مادية سيئة في ذلك الوقت. بل إنهما كانا يعيشان -في الحقيقة- على دخلها الصغير. ولقد سمع المرء مثل هذه القصة كثيراً من قبل. وقد شكت من حقيقة أنها لا تستطيع التصرف أبداً بأصل المال الذي ورثته وذلك بحكم الوصية، ويبدو أن من وضع الوصية كان له

شيء من العقل! ولكن كان من حقها أن توصي بالمال لغيرها... هذا ما استطعت اكتشافه. وقد قامت هي وزوجها -بعد زواجهما مباشرة- بكتابة وصيتين يورّث فيهما كلٌّ منهما صاحبه. أمر مؤثر جداً! وقد كان الموضوع المهم الذي يثقل على المرأة طوال النهار هو متى ستتحسن أحوال زوجها، ولكن إلى أن يحين ذلك كان الاثنان في فقر مدقع فعلاً... بل إنهما استأجرا -عملياً- غرفة على السطح بين الخدم، وهي خطيرة جداً في حال حدوث حريق، رغم وجود مخرج طوارئ عند نافذة غرفتهما. سألتُ بحرص إن كانت للبيت شرفة... فالشرفات مسألة خطيرة جداً. دفعة واحدة... وفهمكم كافٍ!

جعلتها تعدني بأن لا تخرج إلى الشرفة، قلت لها إنني حلمت حلماً، وقد أثر ذلك فيها... يستطيع المرء أحياناً إنجاز الكثير عن طريق الخرافات! كانت فتاة بيضاء البشرة ذات شعر يلتف بشكل غير مرتب على عنقها. وكانت ساذجة جداً؛ فقد كررت ما قلته على مسامع زوجها، وقد لاحظتُه ينظر إلي بطريقة غريبة مرة أو مرتين. أما هو فلم يكن ساذجاً، وكان يعلم أنني كنت على متن ذلك الترام.

ولكنني كنت شديدة القلق. قلقت كثيراً لأني لم أستطع العثور على طريقة لمحاصرته. كان بوسعي منع حدوث شيء في المصحة نفسها وذلك بمجرد قول بضع كلمات أريه فيها أنني أشك، ولكن ذلك لم يكن ليعني سوى تأجيل خططه لوقت لاحق. وبدأت أرى أن أفضل سياسة أتبعها هي السياسة الجريئة... أن أنصب له فخاً بطريقة أو بأخرى. إن كان بوسعي إغراؤه بمحاولة قتلها بطريقة أختارها أنا... عندها سيكون بالإمكان كشفه، وستضطر هي لمواجهة الحقيقة مهما كان في ذلك من صدمة لها.

الدكتور لويد: إنك تحبسين أنفاسي، أية خطة جهنمية يمكن لك اتباعها؟

الآنسة ماربل: كان من شأني العثور على خطة ما... ولكن الرجل كان أذكى مني فلم ينتظر. رأى أنني قد أشك، ولذلك ضرب ضربته قبل أن يتاح لي التأكد. كان يعلم أنني سأشك في أي حادث يقع، ولذلك جعلها جريمة قتل.

صدرت شهقة خافتة عن المجموعة المتحلقة. أومأت الآنسة ماربل برأسها وزمّت شفتيها بتجهم وقالت: أخشى أنني قد استبقت الأمور وأخبرتكم بذلك بشكل مفاجئ. سأحاول أن أخبركم بما حدث بالضبط. لقد شعرت دوماً بالمرارة من هذا الأمر، ويبدو لي أنه كان يُفترض بي -على نحو ما- أن أمنع حدوث ذلك. ولكن لا شك أن الله يعلم أكثر منا جميعاً. وقد فعلت كل ما أستطيعه في كل مناسبة.

كان في الجو شعور لا أملك وصفه إلاّ بأنه جو غريب مخيف وثقيل. بدا أن شيئاً يجثم على صدورنا جميعاً؛ إحساساً بكارثة. فقد بدأ الأمر بجورج، الحمال الذي يعمل في القاعة، وقد عمل هناك لسنوات طويلة وكان يعرف الجميع. أصابه التهاب الشعب الهوائية، ثم ذات الرئة، ثم توفي في اليوم الرابع. وكان أمراً محزناً جداً شكّل صدمة للجميع. والأنكى أن ذلك حدث قبل أربعة أيام من عيد الميلاد. ثم أصيبت إصبع إحدى الخادمات -وكانت فتاة لطيفة جداً- بتعفن الدم وماتت بعد أربع وعشرين ساعة.

كنت في غرفة الجلوس مع الآنسة ترولوب والسيدة العجوز

كاربنتر، وكان موقف السيدة كاربنتر أشبه بما يوصف به الغول من عيش على المصائب؛ تستمتع بكل ما جرى وتقول: تذكّروا كلماتي: **هذه ليست هي النهاية.** إنكن تعرفن المثل السائر «ما من اثنين إلاّ أعقبهما ثالث». لقد ثبتت لي صحة ذلك مرات ومرات. سيكون موت آخر... لا شك في هذا، ولن ننتظر طويلاً... **ما من اثنين إلاّ أعقبهما ثالث!**

وفيما كانت تقول كلماتها الأخيرة تلك -وهي تومئ برأسها وتطقطق بصنارتَيْ حياكتها- صدف أن رفعت رأسي ونظرت فرأيت السيد ساندرز هناك واقفاً عند مدخل الباب. وللحظة واحدة فقط كان شارداً قد نسي تيقظه، ورأيت النظرة في وجهه كأوضح ما تكون. وسأبقى حتى يوم وفاتي أجزم أن كلمات السيدة كاربنتر المتغوّلة كانت هي التي وضعت الفكرة كلها في رأسه.

رأيت عقله يعمل ويفكر، وتقدم في الغرفة وهو يبتسم بطريقته الودودة وقال: أأستطيع خدمتكن بشراء أي شيء تُرِدْنه لعيد الميلاد يا سيداتي؟ إنني ذاهب الآن إلى كيست.

بقي دقيقة أو اثنتين وهو يضحك ويتحدث ثم خرج. كنت قلقة كما قلت لكم، ولذلك سألت فوراً: أين السيدة ساندرز؟ هل تعرف أي منكن؟

قالت الآنسة ترولوب إنها ذهبت إلى أصدقاء لها من عائلة مورتيمر للعب الورق، وقد خفف ذلك من مخاوفي مؤقتاً. ولكنني بقيت شديدة القلق ولا أدري ما الذي يتعين علي فعله. بعد ذلك بنصف ساعة تقريباً صعدت إلى غرفتي، وقد قابلت لدى صعودي

طبيبي الدكتور كولز هناك وهو ينزل الدرج، وبما أنني كنت أريد استشارته بخصوص آلام الروماتيزم عندي فقد أخذته إلى غرفتي مباشرة. وقد حدثني وقتها -وهويأتمنني على السر كما قال- عن وفاة الفتاة ماري، وقال إن مدير المصحة لا يريد انتشار الخبر ورجاني -لذلك- أن أحفظ هذا السر. لم أقل له -طبعاً- إننا لم نكن نناقش جميعاً إلاّ هذا الموضوع بالذات منذ أكثر من ساعة، منذ أن لفظت الفتاة المسكينة آخر أنفاسها. إن تلك الأمور تنتشر على الفور، وإن شخصاً بمثل خبرته يجب أن لا تفوته معرفة ذلك بشكل جيد. ولكن الدكتور كولز كان دوماً شخصاً بسيطاً لا يرتاب بشيء ويصدق ما يريد هو تصديقه، وهذا بالضبط ما أخافني بعد ذلك بلحظات. فقد قال وهو يغادر إن السيد ساندرز قد طلب منه أن يلقي نظرة على زوجته، إذ يبدو أنها لم تعد على ما يرام في الفترة الأخيرة.. عسر هضم وغير ذلك... ولكن في ذلك اليوم ذاته كانت غلاديس ساندرز قد قالت لي إن هضمها ممتاز وشكرت الله على ذلك.

أترون؟ عاودتني بشكل مضاعف كل شكوكي بذلك الرجل. فقد كان يمهد الطريق... يمهده لماذا؟ غادر الدكتور كولز قبل أن أستطيع حزم أمري فيما إذا كان مناسباً أن أحدثه أم لا... رغم أنني ما كنت لأجد ما أقوله حقاً لو أنني تحدثت. وبينما كنت أخرج من غرفتي نزل ساندرز نفسه الدرج من الطابق العلوي. كان يرتدي ملابس الخروج، وقد سألني إن كان بوسعه خدمتي بأي شيء من المدينة، ولم أكن أملك إلاّ أن أكون لطيفة مع الرجل! ذهبت بعدها إلى البهو وطلبت لنفسي شاياً، وكانت الساعة وقتها الخامسة والنصف تماماً كما أذكر.

أنا الآن حريصة جداً على ذكر ما حدث بعد ذلك بكل وضوح. كنت ما أزال في البهو عند الساعة السابعة إلاّ ربعاً عندما دخل ساندرز. كان معه رجلان، وكان سلوك الثلاثة جميعاً ينحو قليلاً إلى الحيوية والبهجة. ترك ساندرز صديقيه وجاء إلى حيث كنت أجلس مع الآنسة ترولوب. شرح أنه يريد نصيحتنا حول هدية كان سيقدمها لزوجته، وكانت الهدية ثوب نوم. قال: إنكما تعلمان يا سيدتَيّ أنني مجرد بحار جلف. ما الذي أعرفه عن مثل هذه الأمور؟ لقد جعلتهم يرسلون لي ثلاثة أثواب لأختار واحداً، وأريد رأياً مختصاً.

قلنا له بالطبع أن مما يسعدنا أن نساعده، وسألنا إن كان لدينا مانع في الصعود إلى الغرفة، لأن زوجته لن تلبث أن تأتي في أية لحظة إن هو أخرج الأثواب. وهكذا صعدنا معه. وإنني لن أنسى أبداً ما حدث بعد ذلك... بل أكاد أشعر بأناملي ترتعد الآن.

فتح السيد ساندرز باب غرفة النوم وأشعل المصباح. ولا أدري من منا شاهد المشهد قبل الآخرين.. كانت السيدة ساندرز متمددة على الأرض، ووجهها إلى الأرض. . . ميتة.

كنت أول من هرع إليها. جثوت عندها وأمسكت بيدها لكي أرى النبض، ولكن لم يكن من فائدة، كانت الذراع نفسها باردة متصلبة. وقرب رأسها تماماً أُلقي جورب من جوارب عيد الميلاد مملوء بالرمل... وهو السلاح الذي ضُربت به. كانت الآنسة ترولوب الساذجة المسكينة تولول وتولول قرب الباب وهي تمسك برأسها. أطلق ساندرز صيحة عظيمة: "زوجتي، زوجتي!" واندفع إليها. أوقفته عن محاولة لمسها؛ فقد كنت واثقة -وقتها- أنه هو القاتل،

وربما وُجد شيء يريد أن يأخذه أو يخفيه. ولذلك قلت له: لا ينبغي لمس شيء... تمالك نفسك يا سيد ساندرز. آنسة ترولوب، انزلي رجاء وأحضري المدير.

بقيتُ هناك جاثية قرب الجثة. ما كنت لأذهب وأترك ساندرز وحده معها. ومع ذلك فقد اضطررت للاعتراف أنه كان يمثل بشكل رائع إن كان تصرفه تمثيلاً. فقد بدا ذاهلاً مذعوراً أفقده الرعب عقله.

جاء المدير على جناح السرعة، وقام بتفتيش سريع للغرفة ثم أخرجنا جميعاً وأقفل بابها وأخذ معه المفتاح. بعد ذلك ذهب واتصل بالشرطة. وقد بدا أن دهراً كاملاً قد مر قبل حضورهم (وعلمنا -فيما بعد- أن الخط كان عاطلاً). وقد اضطر المدير إلى إرسال رسول إلى مركز الشرطة، والمصحة تقع خارج المدينة تماماً عند أعلى الأراضي السبخة. وقد أزعجتنا السيدة كاربنتر أيما إزعاج؛ فقد سرها كثيراً أن تتحقق بمثل هذه السرعة نبوءتها القائلة «ما من اثنين إلاّ ويعقبهما ثالث». وسمعتُ أن ساندرز راح يهيم في الحديقة الخارجية وهو يمسك برأسه ويئن ويظهر كل علامة من علامات الحزن.

جاء الشرطة أخيراً. صعدوا إلى الطابق العلوي مع المدير والسيد ساندرز، ثم أرسلوا في طلبي فيما بعد فصعدت إليهم. كان المفتش هناك يجلس إلى طاولة كتابة. كان رجلاً بادي الذكاء وقد أعجبني. سألني قائلاً: "الآنسة جين ماربل؟". أجبته بالإيجاب، فسألني: فهمت يا سيدتي أنك كنت موجودة عندما تم العثور على جثة القتيلة؟

خبّرته إن ذلك صحيح وشرحت له ما حدث بالضبط. وأحسب

أن الرجل المسكين أحسّ بارتياح كبير لعثوره على من يستطيع الإجابة على أسئلته بشكل دقيق منسجم، وذلك بعد أن اضطر للتعامل مع ساندرز ومع إيميلي ترولوب التي فهمتُ أنها كانت فاقدة تماماً لرشدها... وهو ما لا يُستغرب من تلك المخلوقة الساذجة! أتذكّر أن أمي العزيزة علمتني أن على السيدة الحقة أن تكون قادرة دوماً على السيطرة على نفسها أمام الناس مهما كانت قابليتها للانهيار منفردةً.

علق السير هنري بوقار قائلاً: إنها قاعدة تستحق الإعجاب.

الآنسة ماربل: وعندما أكملت قال المفتش: شكراً يا سيدتي. والآن ربما كان عليّ أن أطلب منك النظر مرة أخرى إلى الجثة. أهذا هو بالضبط الوضع الذي كانت عليه الجثة عندما دخلتم الغرفة؟ ألم يتم تحريكها بأي شكل؟

شرحتُ له بأنني قد منعت السيد ساندرز من فعل ذلك، فأومأ المفتش برأسه استحساناً وقال: يبدو السيد منزعجاً بشكل فظيع.

أجبته قائلة: إنه يبدو كذلك... نعم.

وأحسب أنني لم أضع تركيزاً خاصاً في نطقي لكلمة «يبدو»، ولكن المفتش نظر إليّ بشيء من الإمعان، ثم قال: يمكننا -إذن- أن نعتبر أن الجثة هي الآن تماماً كما عُثر عليها؟

- نعم، باستثناء القبعة.

رفع المفتش نظره بحدة وقال: ماذا تعنين... القبعة؟

شرحتُ له أن القبعة كانت على رأس المسكينة غلاديس، بينما

هي الآن ملقاة بجانبها. حسبتُ -طبعاً- أن الشرطة هم الذين فعلوا ذلك، ولكن المفتش أنكر ذلك بكل جزم قائلاً إن أحداً لم يحرك أو يلمس شيئاً حتى تلك اللحظة. وقف ينظر -بتجهّم- حائراً إلى الجثة الممددة ووجهها إلى الأرض. كانت غلاديس مرتدية ثياب الخروج؛ معطفاً صوفياً ذا لون أحمر غامق وياقة من الفرو الرمادي. أما قبعتها التي كانت من النوع الرخيص فقد كانت قرب رأسها تماماً.

وقف المفتش صامتاً بضع دقائق، وهو متجهم بمفرده، ثم جاءته فكرة فقال: هل من أمل في أن تتذكري -يا سيدتي- إن كانت في أذني المتوفاة أقراط، أو إن كانت ترتدي أقراطاً في العادة؟

ولعل من حسن الحظ أن لديّ عادة في ملاحظة الأمور بشكل دقيق. وقد تذكرت رؤية التماعة لؤلؤ تحت حافة القبعة تماماً، مع أنني لم ألق لها بالاً في ذلك الحين. وقد استطعت الإجابة بالإيجاب عن سؤاله الأول. قال المفتش: هذا يحل الموضوع إذن؛ فقد فُتِّشت علبة حلي المرأة وسُرقت محتوياتها (وهي لم تكن بالغة القيمة كما فهمت) كما تم نزع الخواتم من أصابعها. لا بد أن القاتل نسي القرطين فعاد ليأخذهما بعد أن تم اكتشاف الجريمة. يا له من قاتل بارد الأعصاب! أو ربما...

توقف ونظر حوله في الغرفة وقال: "ربما كان مختفياً هنا في هذه الغرفة... طول الوقت". ولكنني نفيت تلك الفكرة وشرحت له أنني بحثت بنفسي تحت السرير، كما أن مدير المصحة فتح أبواب خزانة الملابس، ولا يوجد مكان غير هذين يمكن لرجل أن يختبئ فيه. صحيح أن الجزء الخاص بالقبعات داخل الخزانة كان مقفلاً،

ولكن ذلك الجزء كان قليل الارتفاع وذا أدراج مما يتعذر معه على أحد الاختباء فيه.

وكان المفتش يومئ برأسه ببطء وأنا أشرح ذلك كله. وعندما أكملت قال: سأقبل بشهادتك في هذا الصدد يا سيدتي. في هذه الحالة لا بد أن يكون القاتل قد عاد إلى هنا كما قلت. يا له من رجل ذي أعصاب جليدية!

- ولكن المدير أقفل الباب وأخذ المفتاح!

- لا أهمية لذلك؛ فلديه الشرفة ومخرج الحريق... من هناك أتى القاتل. ولعل من المرجح أن تكونوا قد قطعتم عليه جريمته بقدومكم فانسل من النافذة، وعندما خرجتم جميعاً دخل ثانية وأكمل عمله.

قلت له: أأنت واثق أنه كان هناك سارق؟

أجاب بجفاء قائلاً: هذا ما يبدو، أليس كذلك؟

ولكن شيئاً في نبرته أرضاني. شعرت أنه لا يريد أن يتعامل بكثير من الجدية مع دور الأرمل الحزين الذي يمثله السيد ساندرز. وإنني أعترف صراحةً -كما ترون- بأنني كنت واقعة بشكل تام تحت تأثير ما يسميه جيراننا الفرنسيون **بالفكرة الثابتة**. فقد كنت أعرف أن ذلك الرجل، ساندرز، أراد لزوجته الموت. أما الأمر الذي لم آخذه بالحسبان فهو ذلك الشيء الغريب المسمى «المصادفة». كنت واثقة تماماً من أن آرائي بالسيد ساندرز كانت مصيبة تماماً وصحيحة، فقد كان الرجل شقياً أفّاقاً. ولكن رغم أن مظاهر حزنه المنافق لم تخدعني

لحظة واحدة، إلاّ أنني أذكر بأنني شعرت -وقتها- بأن ما أظهره من مفاجأة وذهول كانا متقنين إلى حدٍّ مذهل. فقد ظهرا طبيعيين بكل معنى الكلمة، إن كنتم تفهمون ما أعنيه. وعليّ الاعتراف بأن شعوراً غريباً بالشك بدأ يزحف إلى ذهني بعد حديثي مع المفتش. ذلك أنني -بافتراض ارتكاب ساندرز لهذه الجريمة النكرة- لم أستطع تخيل سبب يجعله يتسلل عائداً عبر مخرج الحريق ويأخذ القرطين من أذني زوجته؛ فهذا ليس تصرفاً يمكن لعاقل أن يقدم عليه، وقد كان ساندرز داهية لا ينقصه العقل... وهذا بالضبط ما جعلني أشعر دائماً أنه خطير جداً.

نظرت الآنسة ماربل حولها إلى مستمعيها ثم قالت: ربما كنتم ترون ما أريد قوله. إن غير المتوقَّع هو ما يحدث في هذا العالم في كثير من الأحيان. لقد كنت شديدة الثقة، وأحسب أن هذا هو ما أعماني، وقد جاءت النتيجة صدمة بالنسبة إلي. فقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك بأن ساندرز ما كان يمكن له أبداً ارتكاب الجريمة!

صدرت شهقة دهشة من السيدة بانتري فالتفتت إليها الآنسة ماربل وقالت: أعلمُ يا عزيزتي أن هذا ليس ما توقعتِه مني عندما بدأتُ هذه القصة... ولم يكن هذا ما توقعته أنا أيضاً! ولكن الحقائق هي الحقائق، وعندما يتبين للمرء أنه مخطئ فعليه أن يتواضع ويبدأ من جديد. كنت أعرف أن السيد ساندرز مجرم في أعماقه... ولم يحدث أبداً ما من شأنه أن يزعزع قناعتي الثابتة تلك.

وأظنكم تريدون الآن سماع الحقائق الفعلية نفسها. لقد قضت

السيدة ساندرز عصر ذلك اليوم في لعب الورق عند أصدقاء لها كما علمتم، وقد غادرتْ منزلهم في نحو السادسة والربع. كانت المسافة من منزلهم إلى المصحة تستغرق نحو ربع ساعة مشياً على الأقدام وأقل من ذلك إذا كان المرء مستعجلاً، ولذلك فلا بد أنها قد وصلت في نحو السادسة والنصف. لم يرها أحد وهي تدخل المصح، ويبدو أنها قد دخلت من الباب الجانبي وهرعت مباشرة إلى غرفتها. وهناك غيّرت ملابسها (فقد كانت الملابس التي ارتدتها في لعبة الورق معلقة في الخزانة)، وبدا واضحاً أنها كانت تستعد للخروج ثانية عندما وقعت الضربة. ويقولون إن من المحتمل تماماً أن لا تكون قد رأت من هاجمها، فقد فهمتُ أن الجورب المملوء بالرمل يعتبر سلاحاً فعالاً جداً. ويبدو من ذلك كما لو أن المهاجمين كانوا مختبئين في الغرفة، وربما في واحدة من خزائن الملابس الضخمة...

أما بالنسبة لتحركات السيد ساندرز فقد خرج -كما قلت- في نحو الخامسة والنصف أو بعد ذلك بقليل. اشترى بعض الحاجيات من محلين ثم دخل فندق غراند سبا في نحو السادسة حيث وجد هناك صديقين له... وهما نفس الصديقين اللذين عاد بصحبتهما إلى المصحة في وقت لاحق، وقد لعب الثلاثة البليارد معاً كما فهمت. كان هذان الرجلان قد لازماه عملياً طوال الفترة التي تبدأ من الساعة السادسة صعوداً. فقد مشيا معه إلى المصح، ولم يتركهما إلاّ ليأتي إلينا أنا والآنسة ترولوب. وكان ذلك -كما أخبرتكم- في نحو السابعة إلاّ ربعاً... وفي ذلك الوقت لا بد أن زوجته كانت ميتة بالفعل.

عليّ أن أخبركم بأنني تكلمت بنفسي مع صديقيه هذين، ولم يعجباني، فما هما بالصحبة التي تسر المرء! ولكنني كنت واثقة جداً

من أمر واحد؛ وهو أنهما كانا يقولان الحقيقة التامة عندما قالا إن ساندرز قد قضى الأمسية كلها برفقتهما.

بقيتْ لدينا نقطة صغيرة أخرى. إذ يبدو أن السيدة ساندرز جاءها اتصال هاتفي بينما كانت لعبة الورق جارية، فقد طلب رجل يدعى ليتلويرث التحدث إليها. وقد بدت منفعلة ومسرورة من شيء ما... وارتكبت -بطريق المصادفة- بعض الأخطاء الواضحة في اللعب، ثم غادرت في وقت أبكر قليلاً مما توقعه مضيفوها.

وقد سئل السيد ساندرز إن كان يعرف أحداً يُدعى ليتلويرث فأجاب بأنه لم يسمع أبداً بشخص يحمل هذا الاسم. وبدا لي أن موقف زوجته كان يدعم قوله هذا؛ فهي أيضاً لم يبدُ عليها أنها تعرف اسم ليتلويرث. ومع ذلك فقد عادت من مكالمتها الهاتفية وهي تبتسم وقد احمر وجهها، وهكذا بدا الأمر وكأن من اتصل بها -كائناً مَن كان- لم يعطِ اسمه الحقيقي، وهذا بحد ذاته أمر يثير الشكوك!

وعلى أية حال فقد بقيت القضية عند هذا الحد. قصة السارق التي لا تبدو محتملة... أو النظرية البديلة القائلة إن السيدة ساندرز كانت تستعد للخروج ومقابلة شخص ما. فهل جاء ذلك الشخص إلى غرفتها عن طريق مخرج الحريق؟ هل حدثت هناك مشاجرة؟ أم أنه هاجمها على حين غرة؟

توقفت الآنسة ماربل فقال السير هنري: حسناً، وما هو الجواب؟

الآنسة ماربل: أتساءلُ إن كان بإمكان أحدكم أن يحزر.

السيدة بانتري: إنني لا أجيد الحزر أبداً. يبدو من المؤسف أن يكون لساندرز مثل هذا العذر الرائع في الغياب عن مسرح الجريمة، ولكن إن كان عذره هذا قد أقنعكِ فلا بد أنه كان عذراً صادقاً.

حركت جين هيلر رأسها الجميل وطرحت سؤالاً: لماذا كان الجزء الخاص بالقبعات في الخزانة مقفلاً؟

انفرجت أسارير الآنسة ماربل وقالت: يا له من سؤال ذكي جداً منك يا عزيزتي! هذا هو ما تساءلتُ عنه أنا نفسي، رغم أن التفسير كان بسيطاً تماماً. فقد كان في ذلك الجزء زوجٌ من النعال المنزلي المطرز وبعض المناديل التي كانت الفتاة المسكينة تطرزها هديةً لزوجها في عيد الميلاد؛ ولذلك فقد أقفلت ذلك الجزء من الخزانة على تلك الهدايا للحفاظ على عنصر المفاجأة. وقد عُثر على المفتاح في حقيبة يدها.

جين هيلر: آه! لم يكن في الأمر ما يثير إذن.

الآنسة ماربل: بل هو مثير... وهو الأمر الوحيد المثير حقاً... الأمر الذي جعل خطط القاتل تفشل كلها.

حدق الجميع إلى المرأة العجوز فمضت قائلة: أنا نفسي لم أنتبه لذلك إلاّ بعد يومين من ذلك. بقيت أفكر وأضرب أخماساً في أسداس، ثم جاءتني الفكرة فجأة واتضح كل شيء وضوح الشمس. ذهبت إلى المفتش وطلبت منه تجربة شيءٍ ما ففعل ذلك.

- ما الذي طلبتِ منه تجربته؟

- طلبت أن يحاول تجربة القبعة على رأس الفتاة المسكينة...

ولم يستطع بالطبع. لم يكن ممكناً إدخالها برأسها؛ فلم تكن القبعة قبعتها!

حدقت السيدة بانتري وقالت: ولكن ألم تكن على رأسها في البداية؟

- ليس على رأسها هي.

توقفت الآنسة ماربل لحظة حتى يستوعب مستمعوها الفكرة ثم مضت قائلة: لقد سلّمنا -جدلاً- بأن الجثة التي كانت هناك هي جثة المسكينة غلاديس، ولكننا لم ننظر أبداً إلى الوجه. وتذكُرون أن وجهها كان إلى الأسفل وأن القبعة كانت تغطي كل شيء.

- ولكنها قُتلت بالفعل؟

- نعم، قُتلت فيما بعد. ولكن في اللحظة التي كنا نخابر فيها الشرطة كانت غلاديس ساندرز حية ترزق.

- أتعنين أن الجثة لم تكن إلاّ شخصاً يدعي أنه هي؟ ولكن من المؤكد أنك عندما لمستِها...

قالت الآنسة ماربل متجهمة: كانت جثة ميتة بالتأكيد.

الكولونيل بانتري: ولكن تباً! لا يمكنك أن تحصلي على جثث أموات أينما نظرتِ ذات اليمين وذات الشمال! ما الذي فعله المجرم بالـ... بالجثة الأولى فيما بعد؟

الآنسة ماربل: أعادها إلى مكانها. كانت فكرة شريرة ولكنها

في غاية الذكاء. وكان كلامنا في غرفة الجلوس هو الذي أوحى له بالفكرة. جثة المسكينة ماري، الخادمة... لماذا لا يستخدمها؟ لعلكم تذكرون أن غرفة ساندرز كانت في الطابق العلوي بين غرف الخدم، وكانت غرفة ماري على بعد بابين فقط، ولم يكن من المقرر أن يأتي الحانوتيون إلاّ بعد حلول الظلام. وقد عمل ترتيباته على هذا الأساس؛ حمل الجثة على طول الشرفة (إذ كانت الدنيا قد أظلمت في الساعة الخامسة)، ثم ألبسها أحد أثواب زوجته ومعطفها الأحمر الضخم، ولكنه وجد أن الجزء الخاص بالقبعات في الخزانة مقفل! لم يكن أمامه إلاّ شيء واحد ليفعله وهو إحضار إحدى قبعات المسكينة ماري نفسها، فلن يلاحظ أحد ذلك. وضع جورب الرمل بجانبها، ثم ذهب ليرتب عذر غيابه عن مسرح الجريمة.

اتصل بزوجته مسمياً نفسه ليتلويرث، ولا أدري ما الذي قاله لها، ولكنها كانت فتاة ساذجة كما قلت قبل قليل. جعلها تغادر لعبة الورق مبكراً ولا تعود إلى المصحة، ورتب معها أن يتقابلا في حدائق المصحة قرب مخرج الحدائق في الساعة السابعة. وربما أخبرها أنه يعد لها مفاجأة مفرحة.

بعد ذلك عاد إلى المصحة مع صديقيه ورتب الأمور بحيث نكتشف الجريمة معه أنا والآنسة ترولوب. بل إنه تظاهر بمحاولة قلب الجثة... وأنا منعته! ثم تم طلب الشرطة وذهب يتسكع في الحديقة.

لم يكن من شأن أحد أن يطلب منه عذر غياب عن مسرح الجريمة بعد وقوعها. قابل زوجته وأخذها إلى الأعلى عبر مخرج الحريق ودخلا غرفتهما. ربما كان قد قال لها من قبلُ قصةً ما عن

الجثة. انكبت على الجثة فأخذ جورب الرمل وضرب ضربته... آه، يا إلهي! إن ذكر ذلك يجعلني أرتعد حتى الآن! ثم قام بسرعة بخلع ملابسها وتعليقها وألبسها ملابس الجثة التالية.

ولكن القبعة لم تكن لتناسب رأسها؛ فقد كانت ماري صغيرة الرأس قصيرة الشعر، أما غلاديس فقد كانت لها كتلة شعر كبيرة كما قلت، ولذلك اضطر إلى ترك القبعة قرب الجثة آملاً أن لا يلاحظ أحد ذلك. بعد ذلك حمل جثة المسكينة ماري إلى غرفتها مرة أخرى وأعاد ترتيب وضعها.

الدكتور لويد: يبدو ذلك أمراً غير قابل للتصديق لكثرة المخاطر التي جازف بدخولها؛ إذ كان يمكن للشرطة أن يصلوا سريعاً.

الآنسة ماربل: ألا تذكر الخط الهاتفي الذي تعطل؟ كان ذلك أحد ترتيباته هو؛ فما كان ليسمح بحضور الشرطة فوراً إلى مسرح الجريمة، وحين وصلوا قضوا بعض الوقت في مكتب مدير المصحة قبل صعودهم إلى الغرفة. كانت هذه هي أضعف نقطة في الأمر... أن يلاحظ أحدهم -مصادفةً- الفارق بين جثةٍ ماتت صاحبتها قبل ساعتين وجثة أخرى لم يمضِ على وفاتها نصف ساعة، ولكنه اعتمد على الحقيقة التي مفادها أن الأشخاص الذين سيكشفون أمر الجثة بدايةً لن تكون لديهم خبرة المحترفين.

أومأ الدكتور لويد برأسه وقال: سيُفترض أن الجريمة وقعت في نحو السابعة إلاّ ربعاً كما أظن، ولكنها ارتُكبت عملياً في السابعة أو بعدها بدقائق قليلة. وعندما يفحص طبيب الشرطة الجثة سيكون

ذلك في السابعة والنصف على أقل تقدير، وهذا ما لا يجعله قادراً على الجزم بالموعد بدقة.

الآنسة ماربل: كان عليّ أنا أن أدرك الأمر. لقد تحسست يد الفتاة المسكينة وكانت باردة كالثلج، ومع ذلك فبعد وقت قصير من ذلك تحدث المفتش كما لو أن الجريمة وقعت قبل وصوله تماماً... ولم أدرك شيئاً!

السير هنري: أظنك أدركت الكثير يا آنسة ماربل. لقد كانت هذه القضية قبل عملي في الشرطة؛ فلا أذكر أنني سمعت بها من قبل. ما الذي حدث بعد ذلك؟

الآنسة ماربل: لقد شُنق ساندرز، وخيراً فعلوا بذلك. لم أندم أبداً على دوري في تقديمه للعدالة؛ فأنا لا أطيق الصبر على تلك النوازع الإنسانية الحديثة التي تدعو إلى إلغاء عقوبة الإعدام!



الفصل الحادي عشر

عُشبة الموت

قال السير هنري كليذرنغ مشجعاً: والآن هيا يا سيدة «ب».

نظرت إليه مضيفته السيدة بانتري نظرة تأنيب وقالت: لقد قلت لك من قبل أنني لا أريد أن يسميني أحد السيدة «ب»؛ فليس في ذلك أية فخامة وجلال.

السير هنري: أنقول شهرزاد إذن؟

السيدة بانتري: كما أنني لست شهـ... ماذا قلت اسمها! أنا لا أستطيع أبداً سرد قصة بشكل جيد. اسأل آرثر إن كنتَ لا تصدقني.

الكولونيل بانتري: إنك جيدة تماماً في سرد الحقائق يا دولي، ولكنك ضعيفة في التزويق والبهرجة.

قالت السيدة بانتري: "بالضبط". ثم ألقت على الطاولة أمامها بالكتاب الذي كانت تحمله حول زراعة بصل الأزهار وقالت: لقد

كنت أصغي إليكم جميعاً، ولا أدري كيف تحسنون هذه العملية... «قلتُ، وقالت، وتساءلت، وظنوا...» وغير ذلك الكثير. إنني لا أُحسن ذلك، وهذا كل ما في الأمر! وفوق ذلك فأنا لا أعرف ما يمكن أن أروي قصة عنه.

قال الدكتور لويد: "ليس بوسعنا تصديق ذلك يا سيدة بانتري". ثم هز رأسه الأشيب كناية عن عدم التصديق.

قالت الآنسة ماربل بصوتها الرقيق: هيا يا عزيزتي.

ولكن السيدة بانتري مضت في هز رأسها بالرفض بعناد وقالت: إنكم لا تعرفون كم كانت حياتي عادية... الخدم، ومصاعب تأمين خادمات لغسل الأطباق، وعدم الذهاب إلى المدينة إلاّ لشراء الملابس أو لطبيب الأسنان، ومتابعة سباقات الخيل في أسكوت (وهو ما يكرهه آرثر)، وأخيراً الحديقة...

الدكتور لويد: آه! الحديقة. كلنا نعلم أين يكمن عشقك يا سيدة بانتري.

قالت الممثلة الجميلة الشابة جين هيلر: لا بد أن وجود حديقة لدى المرء مسألة جميلة. هذا إن لم يتعين على المرء أن يحفر أو أن يلوث يديه. إنني مولعة جداً بالأزهار.

السير هنري: الحديقة، ألا نستطيع اتخاذ الحديقة نقطة انطلاق لنا؟ هيا يا سيدة «ب»، البصلة المسمومة... النرجس القاتل... عشبة الموت!

السيدة بانتري: غريب منك أن تذكر ذلك؛ فقد ذكّرتني. هل

تذكر يا آرثر تلك القضية في كلودرهام كورت؟ قضية السير آمبروز بيرسي. أتذكر كم حسبناه عجوزاً لطيفاً رائعاً؟

الكولونيل بانتري: أذكر بالطبع. نعم، كانت تلك قضية غريبة بالفعل. هيا ارويها يا دولي.

السيدة بانتري: الأفضل أن ترويها أنت يا عزيزي.

الكولونيل بانتري: هراء... هيا ارويها. لا بد أن تدلي بدلوك، لقد أدليت بدلوي قبل قليل.

سحبت السيدة بانتري نفساً عميقاً وأطبقت كفيها، فيما ظهرت على وجهها علامات العذاب الذهني. ثم تكلمت بسرعة وطلاقة: حسناً، لا يوجد -في الواقع- الكثير مما يُروى. عشبة الموت... هذا هو ما ذكّرني بالأمر، رغم أنني شخصياً أسمي ذلك مريمية وبصلاً. حصل الأمر كالتالي، كنا نقيم أنا وآرثر مع السير آمبروز بيرسي في كلودرهام كورت، وفي أحد الأيام وعن طريق الخطأ (مع أنني اعتبرته دوماً خطأ غبياً) تم قطف الكثير من نباتات كف الثعلب (أو ما يسمى بالقمعية الأرجوانية) مع نبات المريمية. وقد تم حشو البط الذي تناولناه على العشاء بتلك النباتات فمرضنا جميعاً، وقد توفيت من ذلك فتاة مسكينة، وكانت قاصراً تحت وصاية السير آمبروز.

توقفت السيدة بانتري، فقالت الآنسة ماربل: يا إلهي! إنه حدث مأساوي جداً.

السيدة بانتري: أليس كذلك؟

السير هنري: حسناً، وماذا بعد؟

السيدة بانتري: لا بعد ولا قبل، هذا كل ما في الأمر.

شهق الجميع؛ فهم لم يتوقعوا -رغم التحذير المسبق- مثل هذا الاقتضاب الشديد.

السير هنري: يا سيدتي العزيزة! لا يمكن أن يكون ذلك هو الموضوع كله. إن ما ذكرتِه حادثة مأساوية، ولكنه ليس مشكلة أو لغزاً بأي معنى من المعاني.

السيدة بانتري: بالطبع توجد بعض الأمور الأخرى، ولكنني لو أخبرتكم بها لعرفتم ما هي.

ثم نظرت بتحدٍ حولها وقالت شاكية: لقد قلت لكم إنني لا أحسن تزويق الأمور وجعلها تبدو كما ينبغي للقصة أن تبدو.

اعتدل السير هنري في جلسته، وعدّل نظارته وقال: آها! هذه طريقة جديدة ممتعة تماماً؛ لقد تحديت ذكاءنا. لست واثقاً من أنك لم تقومي بذلك عن قصد منك... لإثارة فضولنا. أحسب أن المقصود هو القيام بجولة من الأسئلة السريعة. هل تبدئين بذلك يا آنسة ماربل؟

الآنسة ماربل: أود أن أعرف بعض الأمور عن الطباخة. لا بد أنها كانت امرأة شديدة الغباء أو أنها كانت عديمة الخبرة.

السيدة بانتري: كانت غبية جداً فحسب، وقد بكت كثيراً فيما بعد، وقالت إن الأوراق قد قُطفت وأُحضرت إليها على أنها مريمية فكيف لها أن تعرف؟

- لم تكن ممن يستعنّ بعقلهن الخاص، ربما كانت امرأة في

أواسط عمرها، وأظنها كانت طباخة ماهرة، أليس كذلك؟

السيدة بانتري: آه! كانت ممتازة.

السير هنري: دورك يا آنسة هيلر.

قالت جين هيلر: "آه! أتعني دوري في طرح سؤال؟". سكتت قليلاً وهي تفكر ثم قالت أخيراً بيأس: إنني... لا أعرف ما أسأله.

نظرت عيناها بتوسل إلى السير هنري فقال وهو يبتسم: لماذا لا نستعرض أشخاص القصة كما تفعلون أنتم في المسرح؟

ظلت جين هيلر تنظر إليه محتارة فقال بلطف: نذكر الشخصيات حسب تسلسل ظهورها على المسرح.

جين هيلر: آه، نعم. هذه فكرة جيدة.

بدأت السيدة بانتري بسرعة بعدّ الناس على أصابعها قائلة: السير آمبروز... سيلفيا كين (تلك هي الفتاة التي ماتت)... صديقة لها كانت تقيم معهم هناك، اسمها مود واي (وهي من تلك الفتيات السمراوات البشعات اللاتي يمكن أن يؤثّرن بشكل ما، ولست أدري كيف يستطعن ذلك)... شخص اسمه السيد كيرل جاء ليتناقش في الكتب مع السير آمبروز (وأعني الكتب النادرة... كتباً غريبة قديمة باللغة اللاتينية مجلدة بالجلد القديم ذي الرائحة الكريهة)... جيري لوريمر، وهو جار يسكن المنزل المجاور تماماً لعزبة السير آمبروز، واسم منزله فيرليز... السيدة كاربنتر، وهي من ذلك النوع من السيدات الفضوليات اللاتي ينجحن دائماً في زرع أنفسهن بكل ارتياح في مكانٍ ما، وكانت توشك أن تكون راعية لسيلفيا كما أظن.

السير هنري: إن كان دوري في الكلام قد جاء -وأظنه كذلك باعتباري أجلس بعد الآنسة هيلر- فإنني أريد الكثير من الأمور. أريد يا سيدة بانتري وصفاً مختصراً لكل هؤلاء الأشخاص الذين ذكرتِهم.

تأوهت السيدة بانتري وترددت، فمضى السير هنري قائلاً: ابدئي بالسير آمبروز مثلاً، ما هي صفاته؟

السيدة بانتري: آه! كان عجوزاً شديد التميز في شكله. ليس عجوزاً إلى ذلك الحد في الواقع، فهو لم يتجاوز الستين من عمره كما أظن. ولكنه كان رقيقاً جداً ضعيف الجسد. كان قلبه ضعيفاً بحيث لا يستطيع أبداً صعود الأدراج، وقد اضطر لتركيب مصعد، وكل ذلك جعله يبدو أكبر من عمره الحقيقي. كان ذا أدب جم؛ رجلاً «مهذباً»، تلك هي أفضل كلمة تصف حاله. لم تكن لتراه مضطرباً أو منزعجاً. كان له شعر أبيض جميل وصوت عذب يسحر مستمعيه.

السير هنري: جيد، بوسعي الآن تخيل السير آمبروز. والآن صفي لنا الفتاة سيلفيا... ماذا قلتِ كان اسمها؟

السيدة بانتري: سيلفيا كين. كانت جميلة... جميلة جداً في الواقع، ذات شعر أشقر وبشرة نضرة. وربما لم تكن شديدة الذكاء، بل إنها كانت في الواقع غبية بعض الشيء.

احتج زوجها قائلاً: آه! لا تبالغي يا دولي.

قالت السيدة بانتري ببرود: آرثر لا يرى ذلك بالطبع، ولكنها كانت غبية بالفعل؛ فلم تقل أبداً شيئاً يستحق الإصغاء.

تدخل الكولونيل بانتري بحماسة قائلاً: كانت فتاة بالغة الجمال

بالفعل، كما كانت مولعة بالدعابة ومسلّية جداً. سلوكها وسَمْتها كانا رائعيَن. أراهن أنها كانت كذلك في عيون الشباب جميعاً.

السيدة بانتري: هنا بالذات مكمن خطئك... إن شابة من هذا النوع لا تفتن شباب اليوم. وحدهم العجائز -من أمثالك يا آرثر- هم الذين يستغرقون في كلامهم الحالم عن الفتيات.

السير هنري: كان ذلك وصفاً جيداً. والآن أظنك وصفت المرأة الراعية لسلفيا بأنها فضولية يا سيدة بانتري، أليس كذلك؟

السيدة بانتري: ليست فضولية جداً. إنها امرأة ضخمة يوحي سلوكها بالقناعة والسرور، لطيفة دوماً. هكذا هي أديليد كاربنتر.

السير هنري: وماذا عن عمرها؟

السيدة بانتري: آه! أظنها في الأربعينيات من عمرها. كانت قد أقامت هناك منذ زمن... منذ أن كانت سيلفيا في الحادية عشرة من عمرها، وهي إنسانة شديدة اللباقة. كانت واحدة من أولئك الأرامل اللاتي تُركن في ظروف مؤسفة صعبة، لهن العديد من القرابات والعلاقات الأرستقراطية، ولكن ليس لهن المال للعيش بمستواها. إنني لم أحبها شخصياً؛ فأنا لا أحب الفضوليات.

السير هنري: والسيد كيرل؟

السيدة بانتري: كان واحداً من أولئك الكبار الذين يتلطفون بالتعامل مع المرء كمن يعامل من هو أدنى منه. يوجد الكثير من أمثال هذا النوع، حتى إنك لا تكاد تفرق واحداً منهم عن الآخر. كان يبدي حماسة عندما يتحدث عن كتبه القديمة، وتنتهي حماسته عند هذا

الحد. لا أظن أن السير آمبروز كان يعرفه حق المعرفة.

السير هنري: وماذا عن جارهم جيري؟

السيدة بانتري: كان فتى رائعاً حقاً. كان قد خطب سيلفيا؛ وهذا ما جعل الأمر مؤلماً جداً.

قالت الآنسة ماربل: "إنني لأعجب..."، ثم توقفت فسألتْها مضيفتها: ماذا؟

الآنسة ماربل: لا شيء يا عزيزتي.

نظر السير هنري بفضول إلى الآنسة العجوز، ثم قال وهو يتأمل: إذن فقد كان هذان الشابان مخطوبين. أكان وقت طويل قد مر على خطوبتهما؟

السيدة بانتري: نحو من سنة. كان السير آمبروز قد عارض الخطبة بحجة أن سيلفيا كانت صغيرة جداً، ولكنه أذعن للأمر الواقع بعد مرور عام على الخطبة، وكان الزواج على وشك أن يتم في وقت قريب.

السير هنري: آه! أكان للفتاة أي ممتلكات؟

السيدة بانتري: لا تكاد تملك شيئاً. مجرد دخل يبلغ مئة جنيه أو مئتين سنوياً.

قال الكولونيل بانتري وهو يضحك: ما من جرذ في هذا الجحر يا كليذرنغ.

السير هنري: جاء دور الدكتور في طرح الأسئلة، أنا انتهيت.

الدكتور لويد: إن فضولي مهني بالدرجة الأساسية. أود معرفة نوع الدليل الطبي الذي قُدِّم خلال الاستجواب... هذا إن كانت مضيفتنا تتذكر، أو بالأحرى إن كانت تعلم.

السيدة بانتري: أعرف ذلك بشكل عام دون تفصيلات، فقد قال الدليل إنها قضية تسميم باستخدام الديجيتالين... أهذا صحيح؟

أومأ الدكتور لويد بالإيجاب وقال: إنها العنصر الفاعل في نبتة كف الثعلب... اسمها اللاتيني ديجيتاليس، وهي تؤثر على القلب. والحقيقة أنها مادة تعتبر عقاراً بالغ القيمة لبعض أمراض القلب. قضية غريبة عموماً. ما كنت لأصدق أن تناول خلطة من نبتة كف الثعلب يمكن أن يكون أمراً قاتلاً. إن تلك الأفكار التي تتحدث عن تناول أوراق أو أنواع من التوت السام تكون موضع مبالغة كبرى. قلة فقط من الناس يدركون أن من الضروري -لهذا الغرض- استخلاص المادة الرئيسية أو القلوية بكثير من الحرص والإعداد.

الآنسة ماربل: لقد أرسلت السيدة مكارثر قبل أيام بعض أبصال الزهور للسيدة تومي، وقد أخطأت طباخة السيدة تومي فظنتها بصلاً عادياً، وكانت النتيجة أن العائلة كلها مرضت مرضاً شديداً.

الدكتور لويد: ولكنهم لم يموتوا منها.

الآنسة ماربل: لا، لم يموتوا منها.

جين هيلر: لقد ماتت فتاة أعرفها من التسمم الغذائي.

السير هنري: ينبغي أن نمضي في التحقيق بالجريمة.

جين هيلر: الجريمة؟ لقد ظننتها حادثاً.

قال السير هنري بلطف: لو كانت حادثاً لما حسبتُ أن السيدة بانتري كانت ستروي لنا هذه القصة. لا، الأمر كما أراه هو أن ذلك لم يكن حادثاً إلاّ من ناحية المظهر فحسب... وخلف ذلك أمرٌ أكثر شراً. أتذكّرُ قضية كان فيها مجموعة من الضيوف يتبادلون الأحاديث بعد العشاء في سهرة منزلية. وكانت الجدران مزينة بمختلف أنواع الأسلحة القديمة، ومن قبيل المزاح قام أحد الحاضرين بأخذ مسدس قديم من مسدسات الخيالة ووجهه إلى رجل آخر متظاهراً بأنه يطلق النار، وقد كان المسدس محشواً فانطلق وقتل الرجل. وقد اضطررنا في تلك القضية للتثبت من عدة أمور، أولها من هو الذي قام سراً بإعداد المسدس وحشوه، وثانيها من الذي قاد الحديث ووجّهه بحيث نتجت عن ذلك تلك المحاولة باللعب بالأسلحة... ذلك أن الرجل الذي أطلق النار كان بريئاً تماماً.

ويبدو لي أن لدينا هنا مشكلة شبيهة جداً بتلك القضية. لقد تم خلط ورق كف الثعلب عن قصد بنباتات المريمية، مع المعرفة بما سيترتب على ذلك. وبما أننا استبعدنا الطباخة... لقد استبعدناها، أليس كذلك؟... فالسؤال الذي يطرح نفسه هو: من الذي قطف الأوراق وأرسلها إلى المطبخ؟

السيدة بانتري: جواب ذلك سهل، في جزئه الأخير على الأقل. فقد كانت سيلفيا نفسها هي التي أخذت الأوراق إلى المطبخ. كان ذلك جزءاً من واجباتها اليومية؛ أن تقطف مكونات السلطة أو الجزر أو الأعشاب، وكل الأشياء الأخرى التي لا يقطفها البستانيون بشكل صحيح؛ فهم يكرهون إعطاءك نباتات أو خضاراً فتية ويفضّلون الانتظار حتى يأخذ كل شيء حجمه الكامل. وقد اعتادت سيلفيا

والسيدة كاربنتر أن يتابعا بنفسيهما كثيراً من هذه الأمور، وكانت نباتات كف الثعلب تنمو فعلياً بين نباتات المريمية في إحدى الزوايا، ولذلك فقد كان الخطأ طبيعياً تماماً.

السير هنري: ولكن هل سيلفيا هي التي قطفتها بنفسها فعلياً؟

- لم يقدر لأحد أن يتأكد أبداً، ولكن هذا ما افتُرِض.

- إن الافتراضات مسألة خطيرة.

- أعرف يقيناً أن السيدة كاربنتر لم تقطف تلك النباتات؛ لأنها حدث أن كانت تمشي معي في ذلك الصباح على المصطبة الخارجية التي خرجنا إليها بعد الإفطار. كان الجو جميلاً دافئاً أكثر من المعتاد في ذلك الوقت المبكر من الربيع، وقد ذهبتْ سيلفيا بمفردها إلى الحديقة، ولكنني رأيتها لاحقاً تمشي مع مود واي وقد شبكتا ذراعيهما.

الآنسة ماربل: كانتا -إذن- صديقتين حميمتين، أليس كذلك؟

قالت السيدة بانتري: "بلى..."، ثم ترددت وكأنها على وشك قول شيء، ولكنها لم تقله.

الآنسة ماربل: أكان قد مر على إقامتها هناك زمن طويل؟

السيدة بانتري: أسبوعان تقريباً.

كان في نبرة صوتها شيء من الارتباك. قال السير هنري: ألم تحبي الآنسة واي؟

أجابت السيدة بانتري: "بل أحببتها... كانت تلك بالضبط القضية، أحببتها". ونما الارتباك في صوتها ليصبح أسىً.

قال السير هنري بلهجة اتهام: أنت تخفين عنا شيئاً.

الآنسة ماربل: لقد تعجبتُ قبل قليل، ولكنني لم أشأ المضي في ذلك.

السيدة بانتري: متى تعجبتِ؟

الآنسة ماربل: عندما قلتِ إن الشابين كانا مخطوبين. قلتِ إن ذلك ما يجعل الأمر أكثر إيلاماً. ولكن صوتك لم يحمل النبرة الصحيحة عندما قلتِ ذلك، إن كنتِ تفهمينني... لم يكن مقنعاً.

السيدة بانتري: يا لك من امرأة فظيعة! يبدو أنك دوماً تعرفين. نعم، كنتُ أفكر في أمر ما، ولكن لا أدري إن كان عليّ قوله أم لا.

السير هنري: بل ينبغي أن تقوليه... مهما كان وازعك الخلقي فلا ينبغي لك أن تخفي ذلك الأمر عنا.

- حسناً، كان الأمر كالتالي فقط: في إحدى الأمسيات -بل في الأمسية التي سبقت المأساة مباشرة- صدف أن خرجت إلى المصطبة الخارجية قبل العشاء. كانت نافذة غرفة الجلوس مفتوحة، وصدف أن رأيت جيري لوريمر مع مود واي. كان... كان يقبّلها. لم أعرف طبعاً إن كانت مجرد علاقة عابرة بالمصادفة أم أنها... أعني أن المرء لا يستطيع الجزم. كنت أعرف أن السير آمبروز لم يحب أبداً جيري لوريمر؛ فربما كان يعرف أنه من ذلك النوع من الشباب. ولكنني متأكدة فعلاً من أمر واحد: وهو أن تلك الفتاة، مود واي، كانت

حقاً مغرمة به. لم يكن على المرء إلاّ أن يراها وهي تنظر إلى لوريمر عندما لا تكون منتبهة لنفسها. وأحسب أيضاً أنهما كانا متناسبين أكثر من مناسبة الشاب لسيلفيا.

السير هنري: سأطرح سؤالاً بسرعة قبل أن يتاح للآنسة ماربل أن تطرحه. أريد أن أعرف إن كان جيري لوريمر قد تزوج مود واي بعد المأساة؟

السيدة بانتري: نعم، تزوجها. بعد ستة أشهر من ذلك.

السير هنري: آه! يا شهرزاد، يا شهرزاد... يا للطريقة التي رويتِ بها هذه القصة لنا بدايةً! تحدثتِ عن الحقائق المجردة والعظام الجرداء، وها نحن نرى مدى اكتناز اللحم على تلك العظام!

السيدة بانتري: لا تتحدث بهذه الطريقة الفجة، ولا تستخدم كلمة اللحم. إن النباتيين دائماً يستخدمونها. يقولون لك: "إنني لا آكل اللحم"، ويلفظونها بطريقة تجعلك تعاف شريحة الشواء أمامك. لقد كان السيد كيرل نباتياً، وقد اعتاد أن يأكل في إفطاره مادة غريبة أشبه بالنخالة. إن أولئك العجائز المتعجرفين غالباً ما تكون لهم نزوات غريبة فيما يحبونه ويكرهونه من طعام... كما يلبسون ملابس داخلية غريبة أيضاً!

السيد بانتري: بالله عليك يا دولي.. ما أدراك بما يلبسه السيد كيرل من ملابس داخلية؟

قالت زوجته بشيء من الكرامة: لا شيء، كنت أخمن فقط.

السير هنري: سأعدِّل أقوالي السابقة، وأقول بدلاً منها إن

شخصيات المسرحية التي وردت في قصتك مثيرة جداً. لقد بدأت الآن أفهمهم جميعاً، ما رأيك يا آنسة ماربل؟

الآنسة ماربل: الطبيعة البشرية مثيرة دوماً، ومن الغريب أن نرى كيف تميل أنماط معينة من البشر إلى التصرف بنفس الطريقة تماماً.

السير هنري: امرأتان ورجل واحد... المثلث البشري القديم الأبدي. أهذا هو أساس مشكلتنا هذه؟ أكاد أظنه كذلك.

تنحنح الدكتور لويد ثم قال بشيء من الخجل: كنت أفكر... هل يمكنك القول يا سيدة بانتري أنك قد مرضتِ أنت شخصياً؟

السيدة بانتري: طبعاً مرضت! وكذلك آرثر، وكذلك الجميع!

الدكتور لويد: هذا بالضبط ما قصدته... الجميع. أترين ما أعنيه؟ في القصة التي رواها السير هنري قبل قليل قام رجل واحد بإطلاق النار على رجل آخر... لم يكن مضطراً لإطلاق النار على كل من في الغرفة.

جين هيلر: إنني لا أفهم، من الذي أطلق وعلى من؟

الدكتور لويد: ما أقوله هو أن من خطط لهذا الأمر -كائناً مَن كان- تصرف بشكل غريب جداً في تخطيطه هذا، إما معتمداً على إيمان أعمى بالمصادفة، أو باستهانة شديدة بالحياة البشرية. لا أكاد أصدّق أن رجلاً تطاوعه نفسه في تسميم ثمانية أشخاص لمجرد التخلص من واحد منهم.

قال السير هنري وهو يتأمل: أفهم ما تعنيه. وينبغي أن أعترف بأنه كان يُفترض بي أن أفكر بذلك.

جين هيلر: ألم يكن ممكناً أن يسمّم نفسه أيضاً؟

الآنسة ماربل: أغاب أحدٌ عن العشاء في تلك الليلة؟

هزت السيدة بانتري رأسها بالنفي وقالت: كان الجميع هناك.

الآنسة ماربل: باستثناء السيد لوريمر كما أحسب يا عزيزتي. إذ لم يكن بائتاً في المنزل في تلك الليلة، أليس كذلك؟

السيدة بانتري: بلى، ولكنه كان يتناول عشاءه هناك عندها.

قالت الآنسة ماربل وقد تغير صوتها: "آه! بين الأمرين فارق كبير جداً". ثم قطبت حاجبيها بانزعاج وأخذت تتمتم مع نفسها قائلة: لقد كنتُ غبية... بل غبية جداً في الواقع.

السير هنري: أعترف بأن النقطة التي ذكرتَها يا لويد تقلقني. كيف أمكن للقاتل أن يضمن أن تكون الفتاة -والفتاة وحدها- هي التي ستتناول الجرعة القاتلة؟

الدكتور لويد: لا يمكن ضمان ذلك. وذلك ما يقودني إلى النقطة التي أريد توضيحها. ماذا لو افترضنا أن الفتاة لم تكن هي الضحية المقصودة في نهاية الأمر؟

- ماذا؟

الدكتور لويد: في كل حالات التسمم الغذائي تكون النتيجة أبعد ما تكون عن التحديد الجازم واليقين. يشارك عدة أشخاص في وجبة واحدة، فما الذي يحدث؟ واحد أو اثنان لا يكادان يشعران بالمرض، واثنان آخران مثلاً يمرضان بشدة، ويموت شخص آخر

من المجموعة. هذا ما يحدث عادة... ما من شيء يقيني في هذا الأمر أبداً. ولكن توجد حالات أخرى يمكن لعامل آخر أن يتدخل فيها. إن الديجيتالين عقار يعمل مباشرة مع القلب، وهو يوصف -كما أخبرتكم- في بعض الحالات. والآن، فقد كان في المنزل شخص واحد يعاني من مشكلات في القلب. فماذا لو افترضنا أنه كان الضحية المختارة؟ إن عقاراً ليس من شأنه أن يكون قاتلاً للبقية سيكون قاتلاً بالنسبة له... أو ربما فكر القاتل هكذا. أما أن يكون الأمر قد جرى بشكل مختلف فهذا ما يثبت ما كنت أقوله لتوي... أي عدم وجود شيء يقيني موثوق في تأثير العقاقير على البشر.

السير هنري: أتظن -إذن- أن السير آمبروز هو الذي كان مقصوداً؟ نعم، نعم... وكانت وفاة الفتاة غلطة حصلت.

جين هيلر: من الذي حصل على أمواله بعد وفاته؟

السير هنري: سؤال وجيه جداً يا آنسة هيلر. إنه واحد من أوائل الأسئلة التي كنا نطرحها في مهنتي الأخيرة في سلك الشرطة.

السيدة بانتري: كان للسير آمبروز ولد، وكان قد تشاجر معه قبل سنوات طويلة، وأظن أن الولد كان جامحاً صعب المراس. ومع ذلك لم يكن بمقدور السير آمبروز أن يحرمه من الميراث... وهكذا آل المنزل للوريث، مارتن بيرسي، الذي ورث أيضاً لقب أبيه وعزبته. ولكن كان يوجد الكثير من الممتلكات الأخرى التي كان يمكن للسير آمبروز أن يورثها إلى من يشاء، وقد أوصى بتلك الممتلكات لربيبته سيلفيا. أنا أعرف ذلك لأن السير آمبروز توفي قبل انقضاء سنة على الأحداث التي أرويها لكم، ولم يكلف نفسه عناء كتابة وصية جديدة

بعد وفاة سيلفيا. أظن أن الأموال آلت إلى الخزينة العامة، أو ربما آلت إلى ابنه باعتباره أقرب الأقرباء... لا أذكر حقاً مصيرها.

قال السير هنري وهو يفكر: إن قتله -إذن- لم يكن إلاّ في مصلحة ابنه الذي لم يكن موجوداً في تلك المناسبة ومصلحة الفتاة التي ماتت. لا يبدو ذلك طريقاً واعداً.

جين هيلر: ألم تحصل المرأة الأخرى على شيء.. أعني المرأة التي وصفتها السيدة بانتري بالفضول؟

السيدة بانتري: لم يكن لها ذكر في الوصية.

السير هنري: آنسة ماربل، أنت لا تصغين إلينا. لقد شطحت بعيداً في تفكيرك.

الآنسة ماربل: كنت أفكر بالسيد بادجر العجوز، الصيدلي؛ فقد كانت لديه مدبرة منزل صغيرة جداً بالسن... صغيرة بحيث كان من شأنها أن تكون بعمر حفيداته، لا بناته فحسب. ولم يكن قد قال شيئاً حول وصيته، وكانت عائلته -وفيها الكثير من أبناء وبنات الإخوة والأخوات- تعلق آمالاً عريضة على تركته. وعندما توفي...! هل تصدقون أنه كان متزوجاً سراً بمدبرة المنزل طوال سنتين؟ لقد كان السيد بادجر عجوزاً جلفاً مبتذلاً، أما السير آمبروز فهو سيد مهذب رقيق الحاشية كما تقول السيدة بانتري، ولكن الطبيعة البشرية واحدة لدى الجميع في أي مكان.

ساد بعض الصمت، ونظر السير هنري بإمعان شديد إلى الآنسة ماربل التي بادلته النظر بعينين زرقاوين تحملان تساؤلاً رقيقاً. كسرت

الآنسة هيلر الصمت سائلة: أكانت تلك السيدة كاربنتر جميلة؟

السيدة بانتري: نعم، جميلة على نحو هادئ، لا على ذلك النحو الصارخ.

الكولونيل بانتري: كان لها صوت يوحي بالعطف والتفهم.

السيدة بانتري: كصوت قطة تعبر عن الشبع والامتنان...! هذا هو رأيي بصوتها!

الكولونيل بانتري: ستوصمين أنت بهذه الصفة يوماً ما يا دولي.

السيدة بانتري: لا أبالي أن أكون كذلك! حسناً، ماذا عن لغزي الصغير الذي طرحته عليكم. أحسب أنني كنت منصفة تماماً. ألا ترى يا آرثر أنني كنت منصفة؟

السيد بانتري: بلى يا عزيزتي، لا أحسب أن أحداً سيهتم كثيراً بدقة المجريات التي ذكرتِها.

السيدة بانتري: حسناً، الرجال أولاً.

وأشارت إلى السير هنري الذي قال: سأطيل قليلاً في حديثي؛ ذلك أنني لا أملك في الواقع أي شعور بالجزم واليقين في هذه القضية. لدينا السير آمبروز أولاً. إنه ما كان ليتبع مثل هذه الطريقة البدائية في الانتحار... ومن جهة أخرى فإنه لا يستفيد شيئاً بالتأكيد من موت ربيبته، ولذلك نستبعد السير آمبروز. السيد كيرل، لا دافع لديه لقتل الفتاة. ولو كان السير آمبروز هو الضحية المقصودة فربما

كان السبب في ذلك أن كيرل ربما كان قد سرق مخطوطة نادرة أو اثنتين مما لا يمكن لأحد غير السير آمبروز أن يشعر بفقدانها، وهو احتمال ضعيف جداً وغير محتمل. ولذلك فإنني أظن السيد كيرل مُستبعَداً رغم ما قالته السيدة بانتري عن ملابسه الداخلية! الآنسة مود واي، لا دافع لديها لقتل السير آمبروز... أما دافعها لقتل سيلفيا فقوي جداً. فقد أرادت الفوز بخطيب سيلفيا، وأرادت ذلك بقوة... بناء على ما ذكرته السيدة بانتري. وقد كانت مع سيلفيا في الحديقة في ذلك الصباح، ولذلك فقد سنحت لها فرصة قطف العشب. كلا، لا نستطيع استبعاد الآنسة واي بتلك السهولة. الشاب مورتيمر، لديه دافع في كلتا الحالتين. فإن هو تخلص من خطيبته صار بوسعه الزواج بالفتاة الأخرى. ومع ذلك يبدو من القسوة أن يُقدم على قتلها، فما أسهل فسخ الخطبة في هذه الأيام. وإن توفي السير آمبروز يتمكن لوريمر من الزواج بفتاة غنية بدل الزواج بواحدة فقيرة. وهذا قد يكون عاملاً مهماً وقد لا يكون، فذلك يعتمد على وضعه المالي. وإذا ما اكتشفتُ أن عزبته كانت مُثقلة بالديون والرهن، وأن السيدة بانتري أخفت ذلك عنا فسأعتبر ذلك خرقاً لأصول اللعبة. والآن السيدة كاربنتر، أتعلمون أن لديّ بعض الشكوك في تلك المرأة، ولعل ذلك يعود لعذر غيابها الرائع عن حادثة قطف الأوراق... كنت دائما أرتاب بأعذار الغياب. كما أن لديّ سبباً آخر للشك فيها ولكنني سأتركه لنفسي. ومع ذلك، فلو تعين علي أن أختار شخصاً واحداً لاخترت الآنسة مود واي، لأن الدلائل ضدها أكثر مما هي ضد أي شخص آخر.

قالت السيدة بانتري وهي تشير إلى الدكتور لويد: الرجل التالي.

الدكتور لويد: أظنك مخطئاً يا كليذرنغ في تمسكك بالنظرية القائلة إن وفاة الفتاة كانت مقصودة. إنني مقتنع بأن القاتل استهدف قتل السير آمبروز، ولا أظن الشاب لوريمر يمتلك المعرفة الضرورية لذلك. إنني أميل إلى الظن بأن السيدة كاربنتر هي الطرف المذنب؛ فقد قضت وقتاً طويلاً مع العائلة، وتعرف كل شيء عن حالة السير آمبروز الصحية، وكان بوسعها بسهولة أن ترتب الأمر بحيث تجعل هذه الفتاة سيلفيا تقطف الأوراق المطلوبة (خاصة وأن السيدة بانتري نفسها قالت إن الفتاة كانت غبية بعض الشيء). ولكني أعترف بأنني لا أرى دافعاً لها. يمكنني التخمين بأن السير آمبروز قد كتب في وقتٍ ما وصية أتى فيها على ذكرها. هذا أفضل ما يمكنني تخمينه.

أشارت السيدة بانتري بإصبعها إلى الآنسة جين هيلر التي قالت: لا أدري ماذا عساني أقول باستثناء التالي: لماذا لا تكون الفتاة نفسها هي التي قامت بذلك؟ فهي التي أخذت الأوراق إلى المطبخ أساساً. وأنتم تقولون إن السير آمبروز كان متمسكاً بموقفه المعارض لزواجها. فإن هو مات سيكون بمقدورها الحصول على المال والزواج مباشرة، وهي تعرف عن صحة السير آمبروز بقدر ما تعرفه السيدة كاربنتر.

تحولت يد السيدة بانتري ببطء لتشير إلى الآنسة ماربل وقالت: والآن دورك يا مديرة الجلسة.

قالت الآنسة ماربل: لقد عرض السير هنري الأمر كله بمنتهى

الوضوح فعلاً، كما أن الدكتور لويد كان مصيباً تماماً فيما قاله. وقد اشترك الاثنان ليجعلا الأمور واضحة جداً. إلاّ أنني لا أظن الدكتور لويد قد أدرك تماماً جانباً واحداً مما قاله. فلأنه لم يكن الطبيب الخاص للسير آمبروز، فمن الطبيعي أن لا يعرف تماماً ما هو نوع المشكلات القلبية التي كان السير آمبروز يعاني منها، أليس كذلك؟

الدكتور لويد: لا أفهم بالضبط ما تعنينه.

الآنسة ماربل: أنت تفترض أن السير آمبروز كان يعاني من مرض قلبي من شأن الديجيتالين أن يؤثر عليه عكسياً، أليس كذلك؟ ولكن ليس لدينا ما يثبت أن الأمر كان على هذا النحو. وربما كان الأمر على العكس من ذلك تماماً.

الدكتور لويد: على العكس من ذلك؟

الآنسة ماربل: نعم، لقد قلتَ إن الديجيتالين كثيراً ما يوصف كعلاج لمشكلات القلب.

الدكتور لويد: حتى في هذه الحالة لا أرى ما يمكن أن يقودنا إليه ذلك.

الآنسة ماربل: إن من شأن ذلك أن يعني أنه يمكن أن يحتفظ بالديجيتالين بشكل طبيعي تماماً، دون أن يضطر لتفسير ذلك.. إنني لا أحسن التعبير عن نفسي، ولكن ما أريد قوله هو التالي: إذا افترضنا أنك تريد تسميم شخص باستخدام جرعة قاتلة من الديجيتالين، ألن تكون أبسط وأسهل طريقة لذلك هي ترتيب الأمر بحيث يتسمم الجميع... بأوراق الديجيتالين عملياً؟ لن يكون الديجيتالين قاتلاً في

حالة أي شخص آخر بالطبع، ولكن أحداً لن يُدهَش لوقوع ضحية واحدة لأن هذه الأمور -كما قال الدكتور لويد- تفتقر إلى اليقين والجزم. ما كان أحد ليسأل إن كانت الفتاة قد تناولت جرعة قاتلة من حقنة ديجيتالين أو من مصدر مشابه. ربما كان قد وضعها لها في العصير، أو في قهوتها، أو بأية طريقة بسيطة أخرى.

- أتعنين أن السير آمبروز قد سمّ ربيبته... تلك الفتاة الجميلة التي كان يحبها؟!

الآنسة ماربل: هذه هي الحقيقة بالضبط، شأنه في ذلك شأن السيد بادجر ومدبرة منزله الشابة. ولا تقولوا لي إن من السخف أن يحب رجل في الستين من عمره فتاة في العشرين؛ فذلك يحدث كل يوم... وأظن أن هذا الأمر -في حالة طاغية عجوز مثل السير آمبروز- يمكن أن يحمله على تصرفات غريبة. هذه الأمور تصبح جنوناً أحياناً. لم يتحمل فكرة زواجها... وقام بكل ما يمكنه لمنع ذلك... ثم فشل. وقد باتت غيرته الجنونية شديدة إلى الحد الذي فضل فيه قتلها على تزويجها للشاب لوريمر. لابد أنه فكر في ذلك قبل وقت طويل، لأن بذور كف الثعلب لا بد من بذرها بين المريمية، وقد قرر أن يقطفها بنفسه عندما يحين الوقت ويرسلها إلى المطبخ مع المريمية. إن التفكير بذلك أمر رهيب، ولكنني أحسب أن علينا أن ننظر إلى الأمر بعين الرأفة قدر المستطاع؛ فالرجال -في مثل هذا العمر- يصبحون أحياناً غريبي الأطوار فيما يتعلق بالفتيات الصغيرات.

السير هنري: أهكذا كان الأمر يا سيدة بانتري؟

أومأت السيدة بانتري برأسها موافقة وقالت: نعم. لم يخامرني

في ذلك أي شك... لم أتخيل الأمر أبداً إلاّ حادثاً عرضياً. ولكن بعد ذلك... تلقيت رسالة بعد موت السير آمبروز. كان قد أصدر تعليماته بإيصالها إليّ، وقد أخبرني فيها بالحقيقة. لا أدري لماذا... ولكننا كنا ننسجم كثيراً بعضنا مع بعض.

في لحظات الصمت المؤقت التي أعقبت ذلك بدا أن السيدة بانتري قد أحست بنقد مكتوم لم يُقل، فسارعت إلى القول: لعلكم تظنون أنني قد خنت الثقة التي أولاني إياها... ولكن الأمر ليس كذلك. لقد غيرتُ كل الأسماء؛ فلم يكن اسمه حقاً السير آمبروز بيرسي. ألم تروا كيف فغر آرثر فاه جهلاً عندما ذكرت له ذلك الاسم؟ إنه لم يفهم المقصود في البداية. لقد غيرتُ كل شيء، فالأمر كما يقولون في المجلات وبدايات الروايات: «كل الشخصيات في هذه القصة من نسج الخيال».



الفصل الثاني عشر
قضية في «الشاليه»

قالت جين هيلر: لقد فكرت لكم بلغز.

كان وجهها الجميل يتألق بابتسامة ثقة أشبه بطفل ينتظر التشجيع. وتابعت الآنسة هيلير حديثها بحذر قائلة: لقد حدث لصديقة لي.

أصدر الجميع أصواتاً مشجعة وإن كانت لا تخلو من النفاق. وقد كان الكولونيل بانتري وزوجته والسير هنري كليذرنغ والدكتور لويد والآنسة العجوز ماربل، كانوا جميعاً مقتنعين تماماً أن «صديقة» جين كانت جين نفسها. فهي ما كانت لتستطيع أبداً تذكر شيء أو الاهتمام بشيء يؤثر على أحد سواها.

تابعت جين قائلة: كانت صديقتي (التي سأبقي اسمها مكتوماً) ممثلة... ممثلة شهيرة جداً.

لم يُظهر أحد دهشته لذلك. وقد فكر السير هنري قائلاً لنفسه: إني لأتساءل كم جملة ستمضي قبل أن تنسى جين أنها تتحدث عن

شخص آخر وتقول: «أنا» بدلاً من: «هي»؟

جين هيلر: كانت صديقتي في جولة لها في المقاطعات، وكان ذلك قبل سنة أو اثنتين. وأحسب أن من الأفضل أن لا أذكر اسم المكان. كانت بلدة تقوم على ضفة أحد الأنهار، ولا تبعد كثيراً عن لندن. وسوف أسميها...

توقفت قليلاً وقد انعقد حاجباها وهي تفكر بحيرة. إن مجرد اختراع اسم بسيط بدا كثيراً جداً عليها. تدخل السير هنري لإنقاذها قائلاً بهدوء: ماذا لو أسميناها ريفربيري؟

الآنسة هيلر: آه، نعم، هذا ممتاز. ريفربيري... سأحاول تذكر ذلك. حسناً، كما قلت لتوي فإن هذه الـ... صديقتي... كانت في ريفربيري مع مجموعة، وحدث شيء غريب جداً.

قطبت جين حاجبيها ثانية ثم قالت شاكية: من الصعب جداً أن يقول المرء ما يريده بالضبط. يختلط الأمر على المرء فيروي في البداية ما كان عليه أن يبقيه للنهاية.

قال الدكتور لويد مشجعاً: إنك تقومين بذلك بشكل رائع، استمري.

الآنسة هيلر: حسناً، حدث ذلك الأمر الغريب. وقد أرسلوا في طلب صديقتي إلى مركز الشرطة، وقد ذهبت. ويبدو أن حادثة سطو قد حدثت في شاليه على ضفة النهر واعتقلت الشرطة شاباً، وهذا الشاب روى قصة غريبة جداً، ولذلك أرسلوا في طلبها.

لم تكن قد دخلت مركز شرطة من قبل، ولكنهم كانوا في غاية

اللطف معها... كانوا لطفاء جداً في الواقع.

السير هنري: من المؤكد أنهم كانوا كذلك، أنا واثق من هذا.

الآنسة هيلر: وقد قدم لها العريف... أظنه كان عريفاً، أو ربما كان مفتشاً... قدم لها كرسياً وشرح لها الأمور، وشعرتُ على الفور طبعاً بأن في الأمر خطأً ما...

قال السير هنري لنفسه: آها... «شعرتُ»! ها قد زلّت. هذا ما كنت أتوقعه.

ولكن الآنسة هيلر مضت تقول بهدوء غير مدركة لزلتها: صديقتي قالت ذلك. ذكرت أنها كانت في الفندق تراجع دورها لتحفظه مع البديلة، وأنها لم تسمع مجرد سماع بهذا السيد فوكنر. قال لها العريف: "آنسة هيلـ...".

توقفت وقد احمر وجهها فبادرها السير هنري قائلاً وهو يرمش بعينيه: آنسة هيلمان.

- نعم، نعم، هذا اسم جيد، شكراً لك. قال لها العريف: "آنسة هيلمان، لقد شعرتُ أن في الأمر خطأً دون شك بعدما عرفت أنك تقيمين في فندق بريدج". ثم سأل إن كنت أمانع في المواجهة، أم أنها كانت في أن يواجهوني هم؟ لا أذكر ذلك.

قال السير هنري مُطَمئناً: لا يهم ذلك كثيراً.

- على أي حال، في مواجهة ذلك الشاب. وهكذا قلت: "لا أمانع طبعاً"، فأحضروه وقالوا له: "هذه هي الآنسة هيلر" و... آه!

توقفت جين وقد فغرت فاها، فقالت الآنسة ماربل مواسية: لا عليك يا عزيزتي؛ كنا سنحزر ذلك بكل تأكيد. كما أنك لم تذكري اسم المكان ولم تشيري إلى أي شيء ذي أهمية.

الآنسة هيلر: حسناً، لقد كنت أنوي رواية القصة كما لو أنها حدثت لشخص آخر. ولكن ذلك صعب بالفعل، أليس كذلك؟ أعني أن المرء ينسى ذلك.

أكد لها الجميع أن ذلك صعب جداً، وبعد أن تمت مواساتها واطمأنت مضت في سردها: كان الشاب وسيماً، وسيماً تماماً. كان صغيراً ذا شعر يميل للحمرة، وقد فغر فاه عندما رآني. قال له العريف: "أهذه هي السيدة؟"، فقال: "لا، ليست هي في الواقع. يا لي من حمار!". فابتسمتُ له وقلت إن المسألة لا تهم.

السير هنري: بوسعي تخيل المشهد.

قطبت هيلر حاجبيها وقالت: حسناً، كيف أمضي في القصة؟

الآنسة ماربل: ماذا لو أخبرتِنا يا عزيزتي ما هي القصة بالضبط.

قالت الآنسة ماربل عبارتها تلك بأقصى درجة من اللطف بحيث لا يظن أحد أنها تسخر من الفتاة، ثم أضافت قائلة: أعني أن تحكي لنا ما هي غلطة الشاب، وما هي قصة السطو.

الآنسة هيلر: آه، نعم. حسناً، لقد كان هذا الشاب -واسمه ليزلي فوكنر- قد كتب مسرحية. بل كتب عدة مسرحيات في الواقع، مع أياً منها لم يتم تمثيلها أبداً. وكان قد أرسل لي تلك المسرحية

بالذات لأقرأها. لم أكن أعرف بها؛ لأن مئات المسرحيات تُرسل إليّ باستمرار، ولا أقرأ شخصياً إلاّ القليل منها... على كل حال، كان الوضع على هذا النحو، ويبدو أن السيد فوكنر قد تسلم رسالة مني... ولكن تبين أنها لم تكن مني. أتفهمون...

توقفت متلهفة، وطمأنها الحاضرون على أنهم يفهمونها فمضت قائلة: كانت الرسالة تقول إنني قرأت المسرحية وأحببتها كثيراً، وإنني كنت راغبة في أن يأتيني لنتناقش بها. وقد أعطته الرسالة العنوان... الشاليه، ريفربيري. وهكذا لم يصدق السيد فوكنر عينيه فرحاً فجاء إلى ذلك المكان... المسمى شاليه. فتحت له الباب خادمة فسألها عن الآنسة هيلر، فقالت إن الآنسة هيلر موجودة وهي تنتظره، ثم أدخلته إلى غرفة الجلوس، حيث ما لبثت أن أتته امرأة اعتبرها السيد فوكنر أنا بشكل طبيعي... وهو ما يبدو غريباً لأن الرجل قد رآني أمثل، وصوري معروفة للقاصي والداني، أليس كذلك؟

قالت السيدة بانتري جازمة: معروفة في طول إنكلترا وعرضها، ولكن كثيراً ما يكون بين الصورة والأصل فرق كبير يا عزيزتي جين، كما أن الفارق شاسع بين صورة المرء أمام أضواء المسرح وصورته في الواقع. وكثير من الممثلات لا يصمدن أمام الاختبار كما تصمدين أنت.

قالت الآنسة هيلر وقد هدأ خاطرها قليلاً: حسناً، ربما كان الأمر كذلك. على كل حال، وصف السيد فوكنر تلك المرأة على أنها طويلة بيضاء ذات عينين زرقاوين واسعتين، وأنها رائعة الجمال، ولذلك أحسب أنها كانت -دون شك- تشبهني إلى حد بعيد. ومن المؤكد أن الشكوك لم تراوده. وقد مضت المرأة تتحدث

عن مسرحيته وتقول إنها متحمسة لتمثيلها. وقد تم تقديم العصير وهما يتحدثان، وشرب فوكنر كأساً منه بشكل طبيعي. وقد كان ذلك آخر ما يتذكره... أي شربه للعصير. وعندما استيقظ، أو أفاق من غيبوبته، سموها ما شئتم، وجد نفسه متمدداً في الشارع... قرب السياج طبعاً بحيث لا يتعرض لخطر الدعس. وقد شعر بشعور غريب وبعدم التوازن إلى الحد الذي جعله يكتفي بالنهوض والسير مترنحاً في الشارع غير عارف إلى أين يذهب. قال إنه لو كان وقتها واعياً لنفسه لعاد إلى الشاليه ليعرف ما الذي حدث. ولكنه شعر بالدوخة والاضطراب بحيث اكتفى بالمشي دون أن يدرك ما كان يفعله. وقد كان يستعيد وعيه تقريباً عندما ألقى الشرطة القبض عليه.

الدكتور لويد: لماذا ألقى الشرطة القبض عليه؟

قالت الآنسة هيلر وقد فتحت عينيها على اتساعهما: آه! ألم أخبركم؟ يا لغبائي! بسبب عملية السطو.

السيدة بانتري: لقد أشرتِ إلى عملية سطو، ولكنك لم تقولي أين ومتى وكيف.

الآنسة هيلر: حسناً، إن ذلك الشاليه... الذي ذهب إليه الرجل بالطبع، لم يكن لي أبداً. كان ملكاً لرجل يدعى...

عقدت هيلر حاجبيها مرة أخرى فسألها السير هنري: أتريدين مني مجدداً أن أكون العراب الذي يطلق الأسماء على الناس؟ إنني أوزع الأسماء المستعارة مجاناً. صفي لي الرجل وعليّ اسمه.

الآنسة هيلر: لقد استؤجر الشاليه من قبل أحد أثرياء المدينة... وهو يحمل لقب فارس.

السير هنري: فلنسمّه -إذن- السير هيرمان.

الآنسة هيلر: سيكون هذا موفياً تماماً بالغرض. وقد استأجره الرجل لسيدة... كانت زوجة أحد الممثلين، وكانت هي أيضاً ممثلة.

السير هنري: سنسمي الممثل كلود ليسن، وأحسب أن الممثلة ستكون معروفة باسمها الفني، ولذلك سنسميها الآنسة ماري كير.

الآنسة هيلر: أظنك شديد الذكاء يا سير هنري. لا أدري كيف تفكر بهذه الأمور بمثل هذه السهولة. على كلٍ، كان هذا الشاليه بالنسبة للسير هيرمان ولتلك السيدة بمثابة بيت لقضاء عطل نهاية الأسبوع، ولم تكن زوجته تعلم شيئاً عن ذلك بالطبع.

السير هنري: وهو ما تكون عليه الحال غالباً!

الآنسة هيلر: وقد أعطى لصاحبته الممثلة كثيراً من الحلي، بما في ذلك بعض أحجار الزمرد الرائعة.

الدكتور لويد: آه! الآن بدأنا نقترب من الأمر.

الآنسة هيلر: وكانت تلك الحلي في الشاليه، وقد أُقفِلَت عليها علبة حلي. وقد قال الشرطة إن ذلك كان ينم عن إهمال شديد... إذ كان بوسع أي امرئ أخذها.

الكولونيل بانتري: أرأيت يا دولي؟ هذا ما أقوله لك دوماً.

السيدة بانتري: تنبئني تجربتي بأن الناس الأشد حرصاً هم الذين يفقدون أشياءهم دائماً. أنا لا أقفل على جواهري في علبة... بل أدعها هناك في أحد الأدراج تحت جواربي. وأظن أن تلك السيدة التي أسميتموها ماري كير لو فعلت ذلك لما سُرقت جواهرها.

الآنسة هيلر: بل كانت ستُسرق؛ فقد فُتحت كل الأدراج ونُثرت محتوياتها.

السيدة بانتري: إذن فإنهم لم يكونوا يبحثون عن الحلي، بل عن أوراق سرية. هذا ما يحدث دائماً في الروايات.

قالت الآنسة هيلر بارتياب: لا علم لي بأية أوراق سرية... لم أسمع بشيء كهذا أبداً.

الكولونيل بانتري: لا تدعي دولي تلهيك عن حديثك يا آنسة هيلر؛ فلا ينبغي أخذ تخميناتها المستبعَدة على محمل الجد.

السير هنري: نعم، كنا نتحدث عن عملية السطو.

الآنسة هيلر: نعم. ورد إلى الشرطة اتصالٌ من امرأة تدعو نفسها الآنسة ماري كير. قالت إن الشاليه قد تعرض لعملية سطو وأعطت أوصاف شاب ذي شعر أحمر كان قد زار الشاليه صباح ذلك اليوم، وقالت إن خادمتها قد رأت في الشاب ما يريب فلم تسمح له بالدخول، ولكنهما رأتاه لاحقاً يخرج من إحدى النوافذ. وقد وصفت الرجل بشكل دقيق جداً بحيث استطاع الشرطة اعتقاله قبل انقضاء ساعة واحدة، وقد روى لهم الشاب قصته وعرض عليهم

رسالتي فأحضروني كما قلت لكم، وعندما رآني قال ما ذكرتُه لكم قبل قليل... أي أنني لست المقصودة أبداً!

الدكتور لويد: قصة غريبة جداً. وهل كان السيد فوكنر يعرف هذه الآنسة كير؟

الآنسة هيلر: لا، لم يكن يعرفها... أو هذا ما قاله على الأقل. ولكنني لم أروِ لكم أغرب أجزاء القصة بعد. فقد ذهب الشرطة طبعاً إلى الشاليه ووجدوا كل شيء كما وُصف في الشكوى: الأدراج مفتوحة والحلي مأخوذة، ولكن البيت عموماً كان فارغاً. ولم تعد ماري كير إلاّ بعد مضي عدة ساعات، وعندها قالت إنها لم تتصل بالشرطة أبداً وإن تلك هي أول مرة تسمع فيها بالأمر. ويبدو أنها كانت قد تلقت صباح ذلك اليوم برقية من أحد المخرجين يعرض عليها فيها تمثيل دور من أكثر الأدوار أهمية ويضرب لها موعداً لرؤيته؛ ولذلك كان من الطبيعي أن تهرع إلى المدينة للقائه. وعندما وصلت هناك اكتشفت أن الأمر كله كان خدعة، وأن أحداً لم يرسل لها أي برقية.

السير هنري: حيلة شائعة جداً لإبعادها عن الطريق. ماذا عن الخدم؟

الآنسة هيلر: حدث نفس الشيء. فقد كانت في المكان خادمة واحدة فقط، وقد اتصلت بها -ظاهرياً- الآنسة ماري كير بالهاتف وقالت لها إنها قد نسيت شيئاً بالغ الأهمية. وقد طلبت من الخادمة أن تُخرج حقيبة معينة كانت في أحد أدراج غرفة نوم الآنسة كير، وطلبت منها استقلال أول قطار. وقد قامت الخادمة بذلك بعد أن

أقفلت البيت طبعاً، ولكن عندما وصلت إلى نادي الآنسة كير الذي قيل لها أن تقابلها فيه انتظرت هناك دون طائل.

السير هنري: همممم... بدأتُ أفهم. لقد تُرك البيت فارغاً، ولن يكون من الصعب كثيراً الدخول من إحدى النوافذ كما أظن. ولكنني لا أفهم تماماً دور السيد فوكنر في القضية. من الذي اتصل بالشرطة إن لم تكن الآنسة كير؟

الآنسة هيلر: هذا ما لم يعرفه أحد ولم يكتشفه أحد أبداً.

السير هنري: غريبٌ تماماً. وهل تبين لاحقاً أن الشاب هو فعلاً الشخصية التي زعمها؟

الآنسة هيلر: آه، نعم.. لم يكن على ذلك الجزء من القصة أي غبار. حتى إنه كان يحتفظ بالرسالة التي يُفترض أنني كتبتها. لم يكن الخط كخطي أبداً... ولكن لم يكن بالإمكان افتراض معرفته بخطي طبعاً.

السير هنري: حسناً، دعونا نعرض الموقف بوضوح. صحّحي لي إن أخطأت: لقد تم وضع طعم لإبعاد السيدة والخادمة عن البيت، كما تم وضع طعم لذلك الشاب على هيئة رسالة مزيفة... وقد كان ذلك الطعم الأخير مقنعاً لأنك كنت عملياً تمثلين في بلدة ريفربيري في ذلك الأسبوع. وقد تم تخدير الشاب والاتصال بالشرطة وتوجيه شكوكهم باتجاه ذلك الشاب. وقد حدثت بالفعل عملية سطو، وأفترضُ أن الحلي قد أُخذت، أليس كذلك؟

الآنسة هيلر: آه، بلى.

السير هنري: هل تمت استعادتها بعد ذلك؟

الآنسة هيلر: كلا، أبداً. وأظن -في الحقيقة- أن السير هيرمان قد حاول جاهداً طوي الموضوع ومنع انتشاره. ولكنه لم يفلح في ذلك، وأظن أيضاً أن زوجته قد بدأت إجراءات الطلاق نتيجة لذلك. ومع ذلك فإنني لا أعرف عن ذلك الكثير في الواقع.

- وماذا حدث للسيد ليسلي فوكنر؟

- أطلقوا سراحه في النهاية؛ قال الشرطة إنهم لم يمتلكوا أدلة كافية ضده. ألا ترى أن الأمر كله كان غريباً؟

السير هنري: غريب جداً. المشكلة الأولى تكمن فيمن عسانا نصدق قصته؟ لقد لاحظتُ -في سردك للقصة يا آنسة هيلر- أنك تميلين إلى تصديق السيد فوكنر. فهل لديك أية أسباب تدعوك لذلك غير غريزتك الخاصة؟

أجابت الآنسة هيلر بتردد: لا، لا؛ لا أحسب أن لديّ أسباباً. ولكنه كان شاباً بالغ اللطف، وظل يكرر اعتذاراته عن الخلط بيني وبين امرأة غيري بحيث أحسست بالثقة بأنه لا بد صادق.

قال السير هنري مبتسماً: فهمت، ولكن عليك الاعتراف بأنه كان من السهولة له أن يخترع القصة. بل كان بوسعه أن يكتب بنفسه الرسالة التي زعم أنه تلقاها منك. كما كان بمقدوره أن يخدر نفسه بعد أن أتم عملية السطو بنجاح. ولكنني أعترف بأنني لا أرى الهدف من كل ذلك. فمن الأسهل له أن يدخل البيت فيفعل ما يريد ثم يختفي بهدوء... إلاّ إذا كان أحد من الجوار قد لاحظ وجوده وعرف هو أن

بعضهم قد رآه. عندها ربما لجأ بسرعة لهذه الخطة لتبديد الشكوك عن نفسه وتفسير وجوده في المنطقة.

سألت الآنسة ماربل: أكان الشاب ميسور الحال؟

الآنسة هيلر: لا أظن. كلا، أظنه كان معسراً بعض الشيء.

الدكتور لويد: الأمر كله يبدو غريباً جداً. عليّ الاعتراف بأننا إذا ما قبلنا قصة الشاب على أنها صحيحة فإن ذلك يجعل القضية أكثر تعقيداً بكثير. لماذا تُقدم تلك المرأة المجهولة التي ادعت أنها الآنسة هيلر على جرّ هذا الرجل المجهول إلى القضية؟ لماذا عساها تمثل هذه المسرحية المعقدة كلها؟

السيدة بانتري: أخبريني يا جين، هل تقابل الشاب فوكنر مع ماري كير وجهاً لوجه في أية مرحلة من مراحل القضية؟

قالت جين هيلر ببطء وهي تتذكر: لا أدري بالضبط.

السيدة بانتري: لأنه إن لم يكن قد قابلها فالقضية محلولة! أنا واثقة أنني على صواب. ماذا عساه يكون أسهل من تظاهرها بأن أحداً قد اتصل بها واستدعاها إلى المدينة؟ كل ما عليها أن تفعله هو الاتصال بخادمتها من محطة بادينغتن، أو من أية محطة أخرى تصل إليها، وعندما تذهب الخادمة إلى المدينة تعود هي ثانية إلى الشاليه. يزورها الشاب بناء على موعد، ويتم تخديره، ثم يتم إعداد مشهد السطو، والمبالغة قدر الإمكان في مظاهر الفوضى في الشاليه. ثم يتم الاتصال بالشرطة وإعطاء أوصاف كبش الفداء والعودة بسرعة

إلى المدينة. وفيما بعد تعود السيدة إلى الشاليه بقطار لاحق لتمثل دور المدهوش البريء.

الكولونيل بانتري: ولكن لماذا عساها تسرق حليها الخاصة يا دولي؟

السيدة بانتري: إنهن يفعلن ذلك دائماً... وبوسعي ذكر مئات الأسباب. ربما كانت تريد مالاً على الفور، وربما رفض السير هيرمان أن يعطيها المال فتظاهرت بسرقة الحلي ثم باعتها سراً... أو ربما كان أحدهم يبتزها ويهدد بإبلاغ زوجها أو زوجة السير هيرمان... أو ربما كانت قد باعت الحلي أصلاً وكان السير هيرمان قد بدأ يشك ويصر على رؤية الحلي، ولذلك اضطرت للتصرف على هذا النحو. كثيراً ما يجري ذلك في الروايات... أو ربما كانت تريد تبديل فصوص الجواهر بفصوص زائفة... أو أنها (وهذه فكرة رائعة لا توجد كثيراً في الروايات) تظاهرت بأن الجواهر سُرقت وأصيبت بصدمة شديدة بحيث يعطيها الرجل مجموعة جواهر جديدة؛ وبذلك يكون لديها مجموعتان بدلاً من واحدة. أنا واثقة أن ذلك النوع من النساء ذو كيد عظيم.

قالت الآنسة هيلر بإعجاب: إنك ذكية يا دولي. لم أفكر أبداً بهذه الاحتمالات.

الكولونيل بانتري: ربما كنتِ ذكية، ولكنها لم تقل إنك على صواب. إنني أميل إلى الشك برجال المدن. إن من شأنه أن يعرف أي نوع من البرقيات يمكنه أن يجذب السيدة ويخرجها من البيت، وبوسعه أن يتدبر أمر ما تبقى بسهولة بمساعدة صديقة جديدة له.

ويبدو أن أحداً لم يتذكر أن يطلب منه هو أن يقدم عذر غياب عن مكان الجريمة.

قالت جين هيلر وقد التفتت إلى الآنسة العجوز التي جلست صامتة وهي تقطب جبينها حيرة: ما هو رأيك يا آنسة ماربل؟

الآنسة ماربل: يا عزيزتي، لا أدري حقاً ماذا أقول.. سيضحك السير هنري، ولكنني لن أتذكر هذه المرة قصة موازية من قصص القرية لتساعدني في تخمين ما حدث. نجد -بالطبع- أن عدة أسئلة تطرح نفسها. مسألة الخادمة مثلاً؛ ففي... إحمم... في وضع منزلي شاذ كالذي ذكرتِه لا بد أن تكون الخادمة العاملة هناك واعية تماماً لما يحدث في البيت، وليس من شأن فتاة جيدة فعلاً أن تقبل بمثل هذا العمل... وما كان لأمها أن تقبل بذلك لحظة واحدة. ولذلك فإنني أظن أن الخادمة لم تكن حقاً شخصية جديرة بالثقة. ربما كانت متواطئة مع اللصوص. من شأنها أن تترك لهم الباب مفتوحاً وتذهب فعلاً إلى لندن كما لو أنها كانت واثقة من حجة المكالمة الهاتفية، وذلك لتبدد الشكوك عن نفسها. عليّ الاعتراف بأن هذا الحل يبدو الأقرب للحقيقة، إلاّ أنه يبدو احتمالاً بالغ الغرابة إذا كان اللصوص من اللصوص العاديين. ويبدو أن الأمر ينطوي على قدر من المعرفة أكبر مما يُتاح عادة للخدم.

سكتت الآنسة ماربل قليلاً ثم مضت قائلة بشكل حالم: لا أملك إلاّ أن أشعر بأن الأمر كله كان ينطوي على... على ما يمكن تسميته بالشعور الشخصي. ماذا لو افترضنا -مثلاً- أن أحداً كان يشعر بالضغينة وحب الإيذاء؟ كأن تكون ممثلة شابة لم يعاملها الشاب

بشكل جيد؟ ألا ترون أن من شأن ذلك أن يفسر الأمور بشكل أفضل؟ محاولة متعمدة لإيقاع الشاب في المتاعب. هكذا تبدو هذه القصة. ومع ذلك... فهذا ليس مقنعاً تماماً.

الآنسة هيلر: ماذا يا دكتور، أنت لم تقل شيئاً. لقد نسيتك.

قال الطبيب الأشيب بحزن: إنني دائماً ما أُنسى؛ لا بد أن لي شخصية لا تسترعي أي انتباه.

الآنسة هيلر: آه، لا! هيا أخبرنا برأيك.

الدكتور لويد: أنا أكاد أجد نفسي في موقف الاتفاق مع الحلول التي طرحها الجميع... وفي موقف الاختلاف مع كلٍ منها في نفس الوقت. أنا شخصياً لدي نظرية ربما كانت مستبعدة جداً ومخطئة، وهي أن للزوجة علاقة بكل ما جرى. وأعني زوجة السير هيرمان. ليس لديّ أسباب لهذا التفكير، إلاّ أنكم ستُدهشون إذا ما عرفتم الأشياء الغريبة... بل الغريبة جداً التي يمكن لزوجة مظلومة أن تقرر اللجوء إليها.

صاحت الآنسة ماربل بانفعال: آه! دكتور لويد، يا لذكائك! كما أنني لم أفكر بالسيدة المسكينة بيبمارش.

حدقت جين هيلر إليها وقالت: السيدة بيبمارش؟ من هي السيدة بيبمارش؟

الآنسة ماربل: حسناً، لا أدري إن كانت قصتها تناسب حقاً هذا الوضع. إنها صاحبة محل لغسل وكوي الملابس، وقد سرقت

دبوساً ذا حجر كريم كان معلقاً في أحد القمصان ووضعته في بيت امرأة أخرى.

بدت على جين هيلر حيرة أكثر من ذي قبل، فيما سأل السير هنري وهو يرفرف بجفونه كعادته: وهل من شأن ذلك أن يجعل الأمر واضحاً تماماً بالنسبة لك يا آنسة ماربل؟

ولكن ما أدهشه أن الآنسة ماربل هزت رأسها بالنفي وقالت: لا، لا أظنه يوضح الأمور. عليّ الاعتراف بأنني حائرة تماماً... ما أدركه بالفعل هو أن على النساء أن يتضامنّ معاً؛ على الواحدة منهن -في أوقات الأزمات- أن تقف مع بنات جنسها. أظن أن تلك هي الحكمة من القصة التي روتها لنا الآنسة هيلر.

قال السير هنري بتجهم: عليّ الاعتراف بأن ذلك المغزى الخلقي لهذا اللغز قد فاتني. ربما رأيت المغزى من طرحك هذا بشكل أوضح عندما تخبرنا الآنسة هيلر بحل هذا اللغز.

قالت الآنسة هيلر وكأنها صعقت: ماذا؟!

السير هنري: لقد لاحظتُ أننا -بلغة الأطفال- قد «عجزنا». أنت وحدك يا آنسة هيلر التي حظيت بشرف طرح لغز محير تماماً لم تملك حتى الآنسة ماربل إلاّ الاعتراف بأنها هُزمت إزاءه.

الآنسة هيلر: أوَقد عجزتم جميعاً؟

أجاب السير هنري: نعم.

وبعد دقيقة صمت كان ينتظر خلالها كلام الآخرين عاد السير

هنري ليجعل من نفسه مرة أخرى ناطقاً باسم المجموعة قائلاً: وهذا يعني أننا معرضون للخطأ والصواب في الحلول السريعة العامة التي قدمناها. إذ قدم كلٌ من الرجال حلاً واحداً، وقدمت الآنسة ماربل حلين، وقدمت السيدة «ب» دستة كاملة من الحلول.

السيدة بانتري: لم تكن دستة، بل كانت تنويعات على نفس الموضوع. وكم مرة يجب عليّ أن أخبرك بأنني لا أحب مناداتي بالسيدة «ب»؟

قالت الآنسة هيلر وهي تفكر: "فقد عجزتم -إذن- جميعاً. هذا مثير جداً!". ثم أسندت ظهرها إلى مسند كرسيها بشيء من الشرود.

السيدة بانتري: حسناً، هيا يا جين. ما هو الحل؟

الآنسة هيلر: الحل؟

السيدة بانتري: نعم. ما الذي حدث حقاً؟

حدقت جين إليها ثم قالت: ليست لديّ أدنى فكرة عن ذلك.

السيدة بانتري: ماذا؟!

الآنسة هيلر: لطالما تساءلت عن ذلك. لقد حسبتكم جميعاً أذكياء بحيث يمكن لواحد منكم أن يقول لي الحقيقة.

أحس الجميع بالانزعاج. فلا بأس أن تكون جين على هذا القدر من الجمال... ولكنهم شعروا جميعاً -في تلك اللحظة- بأن الغباء يمكن أن يبلغ مدى لا يمكن حتى للجمال الخارق تبريره.

السير هنري: أتعنين أن الحقيقة لم تُكشف أبداً؟

الآنسة هيلر: نعم. ولهذا رأيت أنكم ستستطيعون تفسير الأمر لي كما قلت.

بدا وكأن جين تحس بأن مشاعرها قد جرحت، وبدا واضحاً أنها متذمرة. وأخيراً قال الكولونيل بانتري: "حسناً. إنني، إنني..."، ثم خانته الكلمات.

السيدة بانتري: يا لك من فتاة مناكفة يا جين! ومع ذلك فإنني واثقة -وسأظل واثقة أبداً- بأنني كنت على صواب. لو أنك أخبرتِنا فقط بالأسماء الحقيقية للأشخاص فسأكون متأكدة تماماً.

قالت جين ببطء: لا أظنني أستطيع ذلك.

الآنسة ماربل: لا يا عزيزتي، لا تستطيع الآنسة هيلر ذلك.

السيدة بانتري: بل إنها تستطيع بالطبع. لا تكوني على هذا القدر من الالتزام يا جين. لا بد للعجائز من بعض القيل والقال. أخبرينا -على الأقل- مَن كان ذلك الثري ابن المدينة.

ولكن جين هزت رأسها رافضة، واستمرت الآنسة ماربل في دعمها لموقف الشابة بأسلوبها القديم، ثم قالت: لا بد أنها كانت تجربة مؤلمة جداً.

أجابت جين بصدق: لا، بل أظنني استمتعت بها بعض الشيء.

الآنسة ماربل: ربما استمتعتِ بها؛ أحسبها كانت خروجاً عن الرتابة المملة. ما هي المسرحية التي كنتِ تمثلينها؟

الآنسة هيلر: مسرحية «سميث».

الآنسة ماربل: آه، نعم. وهي للكاتب سومرست موم، أليس كذلك؟ أرى أن مسرحياته كلها جيدة. لقد شاهدتها كلها تقريباً.

سألت السيدة بانتري: إنكم تعيدون إخراجها من أجل جولة الخريف المسرحية، أليس كذلك؟

أومأت جين برأسها بالإيجاب.

قالت الآنسة ماربل وهي تنهض: حسناً، عليّ الذهاب إلى البيت؛ لقد تأخر الوقت كثيراً! ولكننا تمتعنا بأمسية مسلية جداً... مسلية إلى أبعد الحدود. أظن أن قصة الآنسة هيلر هي التي تكسب الجائزة، أليس كذلك؟

الآنسة هيلر: أنا آسفة لغضبكم مني... أعني بسبب عدم معرفتي بالنهاية. كان يُفترض بي -كما أظن- أن أقول لكم ذلك منذ البداية.

بدت الكآبة في صوتها، فتقدم الدكتور لويد بشهامة للدفاع عنها قائلاً: يا شابتي العزيزة، لماذا عساك تأسفين؟ لقد أعطيتنا لغزاً ممتعاً جداً لشحذ عقولنا في فك رموزه. ويؤسفني فقط أن أياً منا لم يستطع حل اللغز بشكل مقنع.

السيدة بانتري: تكلم عن نفسك فقط؛ فقد حللته أنا بالفعل. إنني مقتنعة بأنني على صواب.

الآنسة هيلر: أتعلمين أنني أراك كنتِ على صواب حقاً. إن ما قلتِه يبدو محتملاً.

قال السير هنري على سبيل المناكفة: إلى أي حلٍ من حلولها السبعة تشيرين؟

تبرع الدكتور لويد بشهامة لمساعدة الآنسة ماربل في لبس الحذاء المطاطي الخارجي «تحسباً من المطر والطين» كما قالت الآنسة العجوز. وبعدما تلفّعتْ الآنسة ماربل بالعديد من الوشاحات الصوفية تمنت للحاضرين ليلة هانئة مرة أخرى، ثم وصلت أخيراً إلى الآنسة هيلر فانحنت صوبها وتمتمت شيئاً في أذنها. صدرت عن الممثلة صيحة «آه!» مذعورة... وكانت الصيحة عالية بحيث التفت الجميع إليها.

خرجت الآنسة ماربل وهي تبتسم وتومئ برأسها، وجين هيلر تحدق إليها من الخلف.

السيدة بانتري: ألن تذهبي للنوم يا جين؟ ماذا حل بك؟ إنك تحدّقين كأنك ترين شبحاً.

عادت جين إلى نفسها، وألقت ابتسامة جميلة على الرجلين ثم تبعت مضيفتها إلى الطابق العلوي. دخلت السيدة بانتري إلى غرفة الفتاة معها وقالت وهي تحرك النار في الموقد بقضيب لم يؤثر كثيراً في تأجيجها: النار عندك توشك أن تنطفئ. لا شك أنهم لم يشعلوها بشكل جيد... يا لغباء الخادمات! ومع ذلك أظننا سهرنا طويلاً هذه الليلة؛ لقد تجاوزت الساعة الواحدة ليلاً!

سألت جين هيلر: أتظنين أنه يوجد الكثير من أمثالها؟

كانت تجلس على طرف السرير وقد بدا عليها الاستغراق في التفكير. قالت السيدة بانتري: من أمثال الخادمة؟

- كلا، بل من أمثال تلك العجوز الغريبة... ما هو اسمها.. ماربل؟

- آه! لا أدري. أحسب أنها من نوع شائع تماماً في القرى الصغيرة.

قال جين هيلر: يا عزيزتي، لا أدري ما أفعل!

ثم تنهدت بعمق، فسألتها السيدة بانتري: ما الأمر؟

- إنني قلقة.

- قلقة من ماذا؟

أجابت جين هيلر بشكل بالغ الجدية والتجهم: دولي، أتدرين ما الذي همست به إليّ تلك العجوز الغريبة قبل أن تخرج من الباب؟

- كلا، ما الذي همست به؟

- قالت: "ما كنت لأفعل ذلك لو كنتُ مكانك يا عزيزتي. لا تضعي نفسك أبداً تحت رحمة امرأة أخرى، حتى لو كنت ترينها صديقتك حالياً". دولي، إن ذلك صحيح بشكل فظيع جداً.

- أتعنين الحكمة؟ نعم، ربما كانت صحيحة. ولكنني لا أرى مناسبة هذا القول.

- لا أظن أن بوسع المرء أبداً الوثوق بامرأة... ولسوف أكون تحت رحمتها. لم أفكر بذلك أبداً.

- عن أية امرأة تتحدثين؟

- عن نيتا غرين، بديلتي في المسرح.

- وماذا يمكن للآنسة ماربل أن تعرف عن بديلتك؟

- أظنها قد حزرت الحقيقة... ولكنني لا أفهم كيف.

- جين، هل لك أن تقولي لي فوراً ما الذي تتحدثين عنه؟

- عن القصة... القصة التي رويتها. آه يا دولي... تلك المرأة التي خطفت كلود مني!

أومأت السيدة بانتري برأسها، وعادت بذاكرتها بسرعة إلى أول زواج غير موفق لجين هيلر؛ زواجها من الممثل كلود أفيريبري.

- لقد تزوجها، وكان بوسعي أن أخبره كيف ستكون حياتهما. إن كلود لا يعرف، ولكنها مستمرة في علاقتها مع السير جوزيف سالمون، وهي تقضي معه عطل نهاية الأسبوع في الشاليه الذي أخبرتكم عنه. أردتُ أن تُكشف سيرتها.. وأردت أن يعرف الجميع أي نوع من النساء هي. وكما تعلمين، فإن من شأن حادثة سطو أن تُظهر كل شيء إلى العلن.

شهقت السيدة بانتري قائلة: جين! هل أنت المخططة لهذه القصة التي رويتِها لنا؟

أومأت الآنسة هيلر برأسها بالإيجاب وقالت: ولذلك اخترت التمثيل في مسرحية «سميث». إنني أمثل فيها دور خادمة، وأرتدي ثياب خادمة؛ ولذلك فمن الطبيعي أن تكون الملابس في متناول يدي. وعندما أرسلوا في طلبي إلى مركز الشرطة كان من أسهل الأمور أن أقول إنني كنت أتدرب على دوري مع بديلتي في الفندق. وبالطبع فإننا كنا وقتها في الشاليه. لم يكن عليّ إلاّ أن أفتح الباب للشاب، وأحضر العصير، بينما تتظاهر نيتا أنها أنا. هو لن يراها ثانية بالطبع، ولذلك فلا خوف من تعرفه إليها، ولسوف أبدو أنا مختلفة تماماً كخادمة، بالإضافة إلى أن المرء لا ينظر عادة إلى الخادمات كما لو كنّ بشراً. وقد خططنا لجرّه إلى الطريق فيما بعد، ثم سرقة علبة الجواهر والاتصال بالشرطة ثم العودة إلى الفندق. لم أكن أحب للشاب المسكين أن يعاني، ولكن لم يبدُ أن السير هنري يرى أن الشاب سيعاني حقاً، أليس كذلك؟ وستكون فضيحتها في الصحف وغير ذلك... وسيرى كلود أي نوع هي من النساء فعلاً.

جلست السيدة بانتري ودمدمت قائلة: آه... يا لرأسي! وأنت طوال الوقت... يا لك من فتاة ماكرة يا جين هيلر! وتروين لنا القصة على ذلك النحو!

أجابت الآنسة هيلر بشيء من الرضا عن الذات: إنني ممثلة جيدة، وقد كنت دوماً كذلك بغضّ النظر عما يقوله الناس. لم أكشف نفسي مرة واحدة من قبل، أليس كذلك؟

تمتمت السيدة بانتري: لقد كانت الآنسة ماربل على حق. العنصر الشخصي. آه، نعم... العنصر الشخصي. يا طفلتي العزيزة

جين، أتدركين أن السرقة هي السرقة، وأنه كان من الممكن أن تذهبي إلى السجن؟

- ولكن أحداً منكم لم يحزر، باستثناء الآنسة ماربل.

عاد تعبير القلق ليرتسم على وجهها وقالت: دولي، أتظنين أنه يوجد -فعلاً- الكثير من أمثالها؟

- بصراحة، لا أظن ذلك.

تنهدت جين ثانية وقالت: ومع ذلك، فالأفضل للمرء أن لا يخاطر. بالإضافة إلى أنني سأكون تحت رحمة نيتا... هذا صحيح تماماً. ربما انقلبت علي، أو ابتزتني، أو أقدمت على أي تصرف آخر. لقد ساعدتني في وضع التفصيلات، وتظاهرت بأنها شديدة الإخلاص لي، ولكن المرء لا يستطيع الجزم بشيء عندما يتعلق الأمر بالنساء. نعم، أظن الآنسة ماربل كانت محقة... الأفضل أن لا أجازف بذلك.

- ولكنك جازفت به يا عزيزتي.

فتحت جين عينيها الزرقاوين على اتساعهما وقالت: آه، لا. ألا تفهمين؟ لم يحدث شيء من هذا بعد! لقد كنت... كنت أجري تجربة كما يقال.

قالت السيدة بانتري بشيء من الكرامة: هل تعنين أن هذه القصة مشروع مستقبلي... أم حادثة مضت؟

- كنت سأنفذها في هذا الخريف... في شهر أيلول. ولا أدري الآن ماذا أفعل.

قالت السيدة بانتري بغضب: وقد حزرت الآنسة ماربل... حزرت الحقيقة بشكل دقيق ولم تخبرنا أبداً.

- وأظن أن هذا هو السبب الذي دفعها لقول تلك العبارة حول ضرورة تضامن النساء معاً. ما كانت لتكشف أمري أمام الرجال. كان ذلك لطفاً منها. ولكنني لا أمانع في معرفتك أنت بالقصة يا دولي.

- تخلي عن هذه الفكرة يا جين... أتوسل إليك.

- أظنني سأتخلى عنها؛ فربما كان في الدنيا الكثير من أمثال الآنسة ماربل!

* * *

الفصل الثالث عشر
الموت غَرَقاً

كان السير هنري كليذرنغ، الرئيس الأسبق لشرطة سكوتلانديارد، يقيم في منزل أصدقائه عائلة بانتري في بيتهم القريب من قرية سينت ميري ميد الصغيرة.

وفي صباح يوم السبت، حين نزل لتناول الإفطار في ذلك الوقت الرائع من الضحى عند الساعة العاشرة والربع، أوشك أن يصطدم بمضيفته السيدة بانتري عند مدخل غرفة الإفطار. كانت تندفع خارجة من الغرفة بحالة انفعال وأسىً.

كان الكولونيل بانتري يجلس إلى المائدة وقد احمرّ وجهه أكثر قليلاً من المعتاد. قال: صباح الخير يا كليذرنغ... نهار جميل. تفضل اجلس.

أطاعه السير هنري، وفيما هو يأخذ مجلسه وأمامه طبق من لحم الكلى والنقانق مضى مضيفه قائلاً: إن دولي منزعجة قليلاً هذا الصباح.

قال السير هنري بهدوء: نعم. لقد... لقد حسبتُ ذلك.

تعجب في نفسه قليلاً؛ فقد كانت مضيفته ذات مزاج هادئ قليلاً ما يميل للنكد والانفعالات. ولم يكن السير هنري يعرف عنها حماسةً إلاّ لموضوع واحد؛ زراعة وتنسيق الحدائق.

الكولونيل بانتري: نعم، لقد وردنا خبرٌ هذا الصباح أزعجها قليلاً. فتاة في القرية... ابنة إيموت، إيموت التي تدير فندق بلو بور.

- آه، نعم، بالطبع.

قال الكولونيل متأملاً: نعم، فتاة جميلة ورطت نفسها في مأزق؛ القصة المعتادة! وقد كنت أناقش دولي في ذلك (وهي حماقة مني، فالنساء لا يعقلن أبداً). لقد كانت دولي ثائرة دفاعاً عن الفتاة. أنت تعلم كيف تتحدث النساء: الرجال متوحشون، الرجال... إلى آخر تلك الأسطوانة. ولكن الأمر ليس بهذه البساطة، خاصة في أيامنا هذه؛ فالفتيات يعرفن ما هن بصدده! لقد أحببت الشاب سانفورد شخصياً إلى حدٍّ ما، ولو سُئلت عن رأيي فيه لقلت إنه أقرب إلى حمار صغير منه إلى «دون جوان».

- أهو هذا الشاب سانفورد الذي أوقع الفتاة في المتاعب؟

أجاب الكولونيل بشيء من الحذر: هكذا يبدو. أنا لا أعرف شيئاً بالطبع، فالأمر كله إشاعات وأقاويل. أنت تعرف طبيعة هذه البلدة! وأنا لست مثل دولي... أقفز مباشرة لاستخلاص النتائج وأقذف بالاتهامات ذات اليمين وذات الشمال. لا بد أن يكون المرء حذراً فيما يقوله؛ فربما كان استجواب أو شيء من هذا القبيل.

- استجواب؟!

- نعم، ألم أخبرك؟ لقد أغرقت الفتاة نفسها. هذا هو سبب الضجة كلها.

- هذا أمر كريه.

- كريه بالطبع. لا أحب -شخصياً- التفكير فيه. تلك الشقية الجميلة المسكينة. والدها رجل متشدد بكل الاعتبارات، وأظن أنها شعرت بأنها لن تستطيع مواجهة العواقب.

توقف قليلاً ثم قال: وهذا ما أزعج دولي كثيراً.

- أين أغرقت نفسها؟

- في النهر. هناك -بعد المطحنة تماماً- تجري المياه بسرعة، ويوجد طريق ترابي وجسر فوق النهر. ويرون أنها قذفت بنفسها من فوق الجسر. لا يكاد المرء يستطيع التفكير في الأمر.

صفر الكولونيل بانتري صفرة تأفف وفتح صحيفته ومضى في القراءة ليتخذ من الاستغراق في أحدث ضرائب الحكومة ما يلهيه عن التفكير بالأمور المؤلمة.

أما السير هنري فكان اهتمامه بمأساة القرية بسيطاً. فبعد الإفطار استقر في كرسي مريح على المرجة العشبية في الحديقة وأمال قبعته فوق عينيه وأخذ يتأمل الحياة من زاوية هادئة مسالمة.

في نحو الحادية عشرة والنصف تقدمت خادمة مرتبة المظهر على المرجة العشبية وقالت للسير هنري: إذا سمحت يا سيدي، لقد زارتنا الآنسة ماربل وهي ترغب برؤيتك.

- الآنسة ماربل؟

اعتدل السير هنري في جلسته وعدّل وضع قبعته. لقد أدهشه الاسم. كان يتذكر الآنسة ماربل تماماً... بأساليبها الرقيقة الهادئة (التي تناسب عجوزاً مثلها) ونظرتها الثاقبة للأمور. تذكّر دستة من الألغاز والقضايا الافتراضية، وكيف كانت هذه المرأة -التي تشكل نموذجاً «لعجوز القرية»- تقفز كل مرة دون خطأ إلى الحل الصحيح لكل لغز. كان السير هنري يكنّ احتراماً عميقاً جداً للآنسة ماربل، وقد تساءل عما أتى بها لرؤيته.

كانت الآنسة ماربل تجلس في غرفة الجلوس معتدلة الظهر كدأبها دائماً وإلى جانبها سلة ذات ألوان بهيجة تستخدم للتسوق. كانت وجنتاها محمرتين قليلاً، وبدت مرتبكة. قالت: سير هنري... إنني سعيدة جداً بلقائك، من حسن الحظ أن أجدك. سمعت بأنك مقيم هنا في زيارة. آمل حقاً أن تغفر لي...

قال السير هنري وهو يأخذ يدها مصافحاً: هذا من دواعي سروري البالغ. أخشى أن السيدة بانتري خارج المنزل.

- نعم، رأيتها وأنا أمرّ تتحدث مع فوتيت، الجزار. لقد تم بالأمس دعس هنري فوتيت، وهو كلب الجزار. وهو واحد من تلك الكلاب الصغيرة ذات الشعر الناعم التي تشبه الثعالب، سمين ويميل للشجار طوال الوقت. يبدو أن لكل الجزارين كلاباً من هذا النوع.

قال السير هنري وكأنه يستحثها: نعم...

- أنا سعيدة لمجيئي إلى هنا وهي غائبة عن البيت؛ لأنني أردت رؤيتك أنت، بشأن هذا الأمر المحزن.

سألها السير هنري وقد ذُعر قليلاً: بشأن هنري فوتيت؟

رمته الآنسة ماربل بنظرة تأنيب وقالت: كلا، كلا. بشأن روز إيموت طبعاً. ألم تسمع بالأمر؟

أومأ السير هنري برأسه وقال: لقد كان الكولونيل بانتري يخبرني عن ذلك. أمر مؤسف جداً.

شعر بشيء من الحيرة. فلم يستطع أن يفهم لماذا تأتي الآنسة ماربل لرؤيته بشأن روز إيموت. جلست الآنسة ماربل ثانية، وجلس هو الآخر. وعندما تكلمت العجوز كان أسلوبها قد تغير؛ فقد تحدثت بجدية وتجهم وبشيء من الكرامة.

- لعلك تتذكر يا سير هنري أننا لعبنا -في مناسبة أو اثنتين- لعبة كانت حقاً مسلية، وهي طرح الألغاز وإعطاء حلول لها. وقد كنتَ من اللطف بحيث قلتَ إنني... إن أدائي في تلك اللعبة لم يكن سيئاً.

قال السير هنري بحماسة: لقد غلبتِنا جميعاً. لقد أظهرتِ عبقرية كاملة في الوصول إلى الحقيقة. وكنتِ دوماً -كما أذكر- تستشهدين قصصاً موازية من قصص القرية كانت تعطيك مفتاحاً للقضية.

ابتسم وهو يتكلم، ولكن الآنسة ماربل لم تبتسم، بل بقيت متجهمة وقالت: إن ما قلتَه قد جرّأني على القدوم إليك الآن. أشعر بأنني إن قلتُ شيئاً فإنك لن تضحك مني على الأقل.

أدرك فجأة بأنها في منتهى الجدية فقال بلطف: بالتأكيد، لن أضحك.

- يا سير هنري. هذه الفتاة، روز إيموت، لم تُغرق نفسها، بل قُتلت... وأنا أعرف من الذي قتلها.

ظل السير هنري صامتاً للحظات وقد استبدت به الدهشة الكاملة. لقد كان صوت الآنسة ماربل هادئاً جداً وغير منفعل، ولو رأى أحد ضآلة ما تبديه من عاطفة لظن أنها تدلي بأكثر الأقوال اعتيادية وطبيعية في العالم.

قال السير هنري بعد أن استرد أنفاسه: هذا قول شديد الخطورة والجدية يا آنسة ماربل.

أومأت برأسها عدة مرات وقالت: أعرف، أعرف. ولهذا جئت إليك.

- ولكن يا آنستي العزيزة، أنا لست الشخص المناسب لتذهبي إليه؛ فأنا لا أكاد أكون سوى شخص عادي في هذه الأيام. إن كانت لديك معرفة كتلك التي تزعمينها فإن عليك الذهاب للشرطة.

- لا أظنني أستطيع ذلك.

- ولكن لماذا؟

- لأنني لا أمتلك أي... أي معرفة كما تسميها.

- أتعنين أن الأمر مجرد تخمين من طرفك؟

- يمكنك تسميته كذلك إن أحببت، ولكنه ليس كذلك أبداً.

إنني أعرف. إنني في موقع يتيح لي أن أعرف، ولكن إن أعطيت أسباب معرفتي للمفتش دريويت فإنه سيكتفي بالضحك، ولن ألومه -فعلاً- على ذلك. إن لمن الصعب جداً فهم ما يمكنك تسميته بالمعرفة المتخصصة.

- مثل ماذا؟

ابتسمت الآنسة ماربل قليلاً وقالت: لو أخبرتك بأنني أعرف بسبب رجل يدعى بيسغود ترك اللّفت بدل الجزر عندما جاء وباع خضاراً لابنة أختي قبل عدة سنوات...

ثم سكتت سكوتاً بليغاً، فتمتم السير هنري: اسمه مناسب لتجارته. هل تعنين أنك تحكمين على القضية من خلال حقائقِ قضيةٍ أخرى مشابهة فقط؟

- إنني أعرف الطبيعة البشرية. من المستحيل عدم معرفة الطبيعة البشرية بعد العيش في القرية كل هذه السنين. السؤال هو: هل تصدقني أم لا؟

نظرت إليه مباشرة وقد ازداد احمرار وجنتيها. وتقابلت عيناها مع عينيه دون أي تردد. كان السير هنري رجلاً ذا خبرة واسعة جداً في الحياة، وكان يتخذ قراراته بسرعة دون لف أو دوران. ورغم ما قد يبدو من غرابةٍ أو استهجانٍ فيما قالته الآنسة ماربل، إلاّ أنه أدرك فوراً أنه يتقبل أقوالها.

- إنني أصدقك فعلاً يا آنسة ماربل. ولكنني لا أفهم ما الذي تريدين مني عمله في هذه القضية، أو لماذا جئت إلي.

- لقد فكرت في الأمر مراراً وتكراراً. وكما قلت لك فمن غير المفيد الذهاب إلى الشرطة دون أية حقائق. وأنا لا أملك حقائق. ما أطلبه منك هو أن تحمل نفسك على الاهتمام بالقضية، وأنا واثقة أن المفتش دريويت سيشعر بأن ذلك يشكل امتيازاً كبيراً له. وإذا ما تعقدت القضية وارتفعت إلى من هم أعلى من المفتش فإنني واثقة أن الكولونيل ميلتشيت، رئيس الشرطة، سيكون كالعجينة بين يديك.

ثم نظرت إليه بتوسل فقال: وما هي المعلومات التي ستعطينني إياها لأعمل على ضوئها؟

- لقد فكرت في كتابة اسم... أو الاسم. . . على ورقة صغيرة وإعطائها لك. وعندها، إذا قررتَ -بعد التحريات- أن... أن الشخص لا علاقة له بالقضية بأي شكل... أكون عندها مخطئة تماماً.

توقفت قليلاً ثم أضافت وهي ترتعد قليلاً: سيكون الأمر فظيعاً.. فظيعاً جداً؛ إذا ما قُدِّر لإنسان بريء أن يُشنق.

صاح السير هنري مذعوراً: ماذا تقولين بالله عليك؟!

أدارت له وجهاً يقطر بالأسى وقالت: قد أكون مخطئة في ذلك... مع أنني لا أراني مخطئة. إن المفتش دريويت رجل ذكي، ولكن القدر المتوسط من الذكاء يكون أحياناً شديد الخطورة؛ فهو لا يمضي بالمرء إلى مبتغاه تماماً.

نظر السير هنري إليها بفضول... وعبثت هي بيديها باضطراب ففتحت حقيبتها وأخرجت منها دفتر ملاحظات صغيراً نزعت منه ورقة وكتبت بحرص اسماً عليها ثم طوتها طية واحدة وسلّمتها للسير هنري.

فتح الورقة وقرأ الاسم. لم يعنِ ذلك شيئاً بالنسبة له، ولكن حاجبيه ارتفعا قليلاً. نظر إلى الآنسة ماربل ودس الورقة في جيبه قائلاً: حسناً، حسناً... هذا أمر غريب بعض الشيء. لم أفعل شيئاً كهذا أبداً من قبل. ولكنني سأدعم حكمي... عليك يا آنسة ماربل.

جلس السير هنري في غرفة مع الكولونيل ميلتشيت رئيس الشرطة في المقاطعة، ومعهما المفتش دريويت. كان رئيس الشرطة رجلاً ضئيل الجسم ذا سمت عسكري يوحي بالعدوانية، أما المفتش فقد كان ضخم الجسم عريض المنكبين يوحي شكله بالعقلانية.

أقبل السير هنري بابتسامته الجذابة قائلاً: أشعر بأنني أتدخل في عملكم، ولكنني لا أستطيع -فعلاً- أن أخبركم بسبب قيامي بذلك. (وتلك حقيقة لا مراء فيها).

قال الكولونيل ميلتشيت: "يا صديقي العزيز، إننا ممتنون لذلك. إنه لأطراء عظيم لنا". وقال المفتش: "إنه شرف لنا يا سير هنري".

كان رئيس الشرطة يفكر في نفسه قائلاً: "المسكين! لا بد أن الضجر قتله عند عائلة بانتري؛ فالعجوز يمضي وقته في انتقاد ضرائب الحكومة والمرأة في الحديث عن الأبصال والأزهار". وكان المفتش يفكر قائلاً لنفسه: "من المؤسف أننا لا نحقق في لغز صعب. لقد سمعت من يقول إنه أحد أفضل العقول في إنكلترا. من المؤسف أن تكون القضية واضحة إلى هذا الحد".

أما في الكلام المسموع فقد قال رئيس الشرطة: أخشى أن

الأمر كله مؤسف ولا تعقيد فيه. كانت الفكرة الأولى أن الفتاة أغرقت نفسها؛ لقد كانت من النوع العائلي، إن كنت تفهمني. ولكن طبيبنا هيدوك -وهو رجل دقيق حريص- لاحظ الرضوض على ذراعيها... في الجزء الأعلى من كل ذراع. وقد حدثت قبل الوفاة، تماماً في المكان الذي يمكن فيه لرجل أن يمسكها من ذراعيها ويقذف بها في النهر.

- أكان ذلك يتطلب الكثير من القوة؟

- لا أظن ذلك. لن يقع صراع؛ إذ ستؤخذ الفتاة على حين غرة. إنه جسر للمشاة ذو خشب زلق، ورميها عنه من أسهل الأمور... لا يوجد درابزين في تلك الجهة.

- أتعرفون يقيناً أن المأساة وقعت في ذلك المكان؟

- نعم. لدينا فتى يدعى جيمي براون... عمره اثنا عشر عاماً، وقد كان في الغابة في الجانب الآخر. وقد سمع صوتاً أشبه بالصرخة من الجسر ثم صوت ارتطام بالماء. كانت العتمة شديدة ومن الصعب رؤية شيء. وسرعان ما رأى شيئاً أبيض اللون يطفو على صفحة الماء أسفل منه فركض وأحضر نجدة. أخرجوها من الماء ولكن الوقت كان قد فات على إنقاذها.

أومأ السير هنري برأسه وقال: ألم يرَ الفتى أحداً على الجسر؟

- نعم، لم يرَ أحداً، ولكن العتمة كانت شديدة كما قلت، والضباب ينتشر دوماً هناك. سأحقق معه لمعرفة ما إذا كان قد رأى أحداً في المنطقة قبل الحادث مباشرة أو بعده. لقد افترض الفتى

بأن الفتاة قد قذفت بنفسها من الجسر، وقد افترض الجميع ذلك في بداية الأمر.

قال المفتش دريويت: ومع ذلك فلدينا الرسالة.

رئيس الشرطة: رسالة كانت في جيب الفتاة القتيلة. كانت مكتوبة بنوعٍ من أقلام الرصاص، ورغم أنها كانت مبللة تماماً إلاّ أننا استطعنا قراءتها.

السير هنري: وماذا كان بها؟

قال رئيس الشرطة: كانت من الشاب سانفورد، وقد جاء فيها: "حسناً، سأقابلك على الجسر عند الساعة الثامنة والنصف... «ر.س.»". وقد كان سماع جيمي براون للصرخة وصوت الارتطام بالماء قريباً تماماً من الثامنة والنصف... بعد دقائق قليلة من ذلك الوقت.

ثم مضى رئيس الشرطة قائلاً: لا أدري إن كنتَ قد قابلت سانفورد من قبل؟ لقد جاء إلى هنا منذ نحو الشهر. وهو واحد من أولئك المهندسين المعماريين الحديثين الذين يبنون بيوتاً غريبة. إنه يبني بيتاً لأسرة ألينغتن. والله وحده يعلم كيف سيكون شكله... هذا لا أهمية له على أي حال، ولكنه يُظهر نوعية هذا الشاب. بلشفي... لا أخلاق له.

المفتش دريويت: حسناً يا سير هنري، هذا هو الوضع... جريمة بشعة، ولكنها واضحة. لقد ورّط هذا الشاب سانفورد الفتاة في المتاعب، ثم مال إلى تصفية أموره والعودة إلى لندن؛ فلديه فتاة هناك... امرأة شابة جميلة، وهما مخطوبان يعتزمان الزواج. ومن

الطبيعي أن علاقته هذه -لو أتيح لخطيبته أن تسمع بها- ستدمر حياته معها تماماً. ولذلك فقد قابل روز على الجسر في ليلة يلفها الضباب وفي مكان لا أحد فيه، ثم أمسكها من كتفيها ودفعها إلى النهر. إنه شاب شقي تماماً... ويستحق ما ينتظره. هذا رأيي.

سكت السير هنري للحظات. لقد أدرك وجود تيار داخلي قوي من التحيز الذي يحسه أبناء القرى تجاه الغرباء. لم يكن من المرجح أن يحظى مهندس معماري ذو ذوق مستهجن بالشعبية في قرية سينت ميري ميد المحافِظة.

السير هنري: أيوجد أي شك في كون هذا الرجل، سانفورد، الأب الفعلي للطفل الذي كان سيولد؟

المفتش دريويت: إنه أبوه بالتأكيد. هذا ما أفضت به روز لأبيها. لقد ظنت أنه سيتزوجها. هَه... يتزوجها! إنه آخر من يفعل ذلك!

فكر السير هنري قائلاً لنفسه: يا إلهي! يبدو أننا قد عدنا إلى ميلودراميات العصر الفيكتوري: الفتاة الساذجة البريئة، والشرير القادم من لندن، والأب القاسي، والخيانة... لم يعد ينقصنا إلاّ الحبيب القروي المخلص. نعم، أحسب أنّ الأوان قد آن للسؤال عنه.

عند ذلك سأل: أليس للفتاة شاب يحبها من أهل القرية هنا؟

المفتش: أتعني جو إيليس؟ إنه شاب طيب يشتغل بالنجارة. آه! لو أنها فقط تمسكت بجو...

أومأ الكولونيل ميلتشيت برأسه موافقاً وقال: على المرء أن لا يخرج عن أبناء طبقته.

السير هنري: كيف كان وقع القضية على جو إيليس؟

المفتش: لم يعرف أحد كيف كان وقعها عليه. إنه رجل هادئ ومنغلق. كان كل ما تفعله روز صحيحاً بالنسبة له... كانت تسيطر عليه سيطرة تامة، وهو كان يأمل بأن تعود إليه ذات يوم. هكذا كان موقفه على ما أظن.

السير هنري: إنني أود رؤيته.

الكولونيل ميلتشيت: طبعاً سندقق في أمره. لن نهمل أي احتمال. لقد فكرتُ -شخصياً- في أن نرى إيموت أولاً، ثم سانفورد، وبعدها يمكننا رؤية إيليس. هل يناسبك ذلك يا كليذرنغ؟

أجابه السير هنري بأن ذلك سيناسبه على أفضل وجه. وانطلق القوم فوجدوا توم إيموت في فندق بلو بور. كان رجلاً ضخماً ممتلئ الجسم في أواسط عمره ذا عين ختّالة وفكٍّ بارز قاسٍ.

توم إيموت: تسعدني رؤيتكم أيها السادة... صباح الخير أيها الكولونيل. تفضلوا هنا وسنكون بمفردنا. أأقدم لكم شيئاً أيها السادة؟ كلا؟ حسناً، كما تحبون. لقد جئتم بشأن قضية ابنتي المسكينة. آه! لقد كانت روز فتاة طيبة. كانت دوماً فتاة طيبة... حتى جاء هذا الشقي المجرم. اعذروني، ولكنه كذلك بالفعل... لقد وعدها بالزواج، ولكنني سأستعين عليه بالقانون. فقد دفعها دفعاً لذلك... ذلك الشقي القاتل... وجللنا جميعاً بالعار. يا لفتاتي المسكينة!

سأله ميلتشيت باقتضاب: هل أخبرتك ابنتك تحديداً بأن السيد سانفورد مسؤول عن حالتها؟

- نعم، أخبرتني. أخبرتني في هذه الغرفة نفسها.

السير هنري: وماذا قلتَ لها؟

- ماذا قلتُ لها؟

بدا الرجل للحظة وقد فوجئ بالسؤال، فقال السير هنري: نعم. ألم تهددها -مثلاً- بطردها من البيت.

- لقد انزعجتُ قليلاً... وهذه مسألة طبيعية. أنا واثق أنكم تتفقون معي في أنها مسألة طبيعية... ولكنني لم أطردها من البيت بالطبع. ما كنت لأفعل شيئاً كهذا.

تظاهر بسخط الفضيلة وأكمل قائلاً: كلا، وإلاّ لماذا وُجد القانون... هذا ما أسأله، لماذا وجد القانون؟ لا بد أن ينصفها القانون منه. وإن لم يدفع ثمن غلطته فوالله لأُجبرنّه على دفع الثمن.

ثم أهوى بقبضته على الطاولة.

ميلتشيت: متى رأيت ابنتك لآخر مرة؟

- عصر أمس... ساعة شرب الشاي.

- كيف كان سلوكها وقتها؟

- كانت كعادتها إلى حد بعيد. لم ألاحظ شيئاً غير عادي، ولو أنني عرفت...

قال له المفتش بجفاء: "ولكنك لم تعرف...". ثم اعتذر الثلاثة وغادروا.

قال السير هنري وهو يفكر: لا يكاد إيموت يترك انطباعاً جيداً لدى المرء.

ميلتشيت: إنه رجل وغد إلى حد ما، ولو سنحت له الفرصة لسفك دم سانفورد دون شك.

كانت زيارتهم التالية للمهندس المعماري. وقد كان ريكس سانفورد مختلفاً كثيراً عن الصورة التي شكّلها عنه السير هنري في خياله. كان شاباً طويلاً بالغ النحول، ذا عينين زرقاوين حالمتين، وشعره أشعث طويلاً، وحديثه أشبه بحديث النساء.

عرّفه الكولونيل ميلتشيت بنفسه وزميليه، ثم انتقل مباشرة إلى موضوع الزيارة داعياً المهندس إلى التصريح عن تحركاته في الليلة السابقة، ثم قال محذراً: لعلك تفهم أنني لا أملك سلطة لإجبارك على الإدلاء بتصريح، وكل تصريح تدلي به قد يُستخدم شاهداً ضدك. أريد أن يكون الموقف واضحاً تماماً بالنسبة لك.

سانفورد: إنني... إنني لا أفهم.

- أتعرف أن الفتاة روز إيموت قد غرقت مساء أمس؟

- أعرف ذلك. آه! إنه أمر محزن جداً. لم يغمض لي جفن حقاً، ولم أستطع القيام بأي عمل اليوم. أشعر بأنني مسؤول... مسؤول بشكل فظيع.

خلل شعره بأصابعه مضاعفاً عدم ترتيبه، ثم قال بشكل يدعو إلى الرثاء: لم أقصد أبداً أي أذى، ولم أفكر به أبداً. لم أحلم أبداً أن تتلقى الأمر بهذه الطريقة.

جلس إلى طاولة ودفن وجهه بكفيه. قال ميلتشيت: هل أفهم من موقفك يا سيد سانفورد أنك ترفض الإدلاء بتصريح حول مكان وجودك في الثامنة والنصف من مساء أمس؟

سانفورد: كلا، كلا بالتأكيد. كنت خارجاً. ذهبت في نزهة مشياً على الأقدام.

- ذهبتَ لمقابلة الآنسة إيموت؟

- لا، ذهبت بمفردي... خلال الغابة، وكان طريقاً طويلاً.

- إذن كيف تفسر هذه الرسالة التي وجدت في جيب الفتاة القتيلة؟

قرأ المفتش دريويت الرسالة بصوت عال وبشكل يخلو من أية عاطفة، ثم قال بعد ذلك: والآن يا سيدي، أتنكر أنك كتبت ذلك؟

- لا، لا... أنت على صواب؛ فقد كتبتُ ذلك بالفعل. طلبت مني روز أن ألقاها، وقد أصرّت. ولم أدرِ ما أفعل، ولذلك كتبتُ تلك الرسالة.

المفتش: آه، هذا أفضل.

ارتفع صوت سانفورد عالياً منفعلاً وهو يقول: ولكني لم أذهب، لم أذهب! شعرتُ أن من الأفضل كثيراً أن لا أفعل؛ فقد كنتُ عائداً غداً إلى المدينة. شعرتُ أن من الأفضل أن لا... أن

لا نتقابل. كنت أنوي الكتابة من لندن والقيام... والقيام ببعض الترتيبات.

- هل تدرك يا سيدي بأن تلك الفتاة كانت ستلد طفلاً، وأنها أسمتك أنت أباً له؟

زمجر سانفورد ولكنه لم يجب.

- هل كان ذلك القول صحيحاً أيها السيد؟

دفن سانفورد رأسه أعمق من ذي قبل وقال: أظن ذلك.

لم يكن بوسع المفتش دريويت أن يخفي رضاه، فمضى قائلاً: والآن نأتي إلى «نزهتك» تلك على الأقدام. هل رآك أحد ليلة أمس؟

- لا أدري. لا أظن أحداً رآني؛ فلم أقابل أحداً حسبما أذكر.

- هذا أمر مؤسف.

نظر سانفورد إليه بشرود وقال: ماذا تعني؟ ماذا يهم إن كنتُ خارجاً في نزهة أو لم أكن؟ ما تأثير ذلك على إغراق روز نفسَها؟

أجابه المفتش: آه! ولكنها لم تُغرق نفسها، بل قُذِف بها عمداً إلى النهر يا سيد سانفورد.

- كانت...

استغرقه الأمر دقيقة أو اثنتين ليستوعب تماماً ما في الموقف من رعب، ثم صاح: "يا إلهي! إذن..."، ثم سقط على أحد الكراسي.

أومأ الكولونيل ميلتشيت بإشارة للمغادرة وقال: لعلك تفهم يا سانفورد بأن عليك أن لا تغادر هذا البيت بأي حال.

غادر الثلاثة معاً، وتبادل المفتش ورئيس الشرطة النظرات بينهما ثم قال المفتش: أظن أن هذا يكفي يا سيدي.

- نعم، قم بالحصول على إذن واعتقله.

قال السير هنري: "اعذراني، لقد نسيت قفازي..."، ثم عاد بسرعة إلى المنزل.

كان سانفورد جالساً حيث تركوه تماماً يحدق بشرود أمامه. قال له السير هنري: لقد عدت لأقول لك إنني حريص على أن أبذل جهدي لمساعدتك... أما سبب اهتمامي بك فلا أملك التصريح به. ولذا سأطلب منك أن تخبرني بأكبر قدر من الإيجاز -إذا سمحت- ما هو الذي جرى بالضبط بينك وبين تلك الفتاة روز.

سانفورد: كانت جميلة، جميلة جداً، وقد... وقد جعلت دأبها أن تكسب ودي بكل وسيلة. ووالله إن هذه هي الحقيقة؛ لم تشأ أن تتركني وشأني. وكان المرء يشعر بالوحدة هنا، ولم يحبني أحد كثيراً، وقد... وقد كانت -كما قلت- بالغة الجمال، ويبدو أنها عرفت كيف توقع بي...

تلاشى صوته، ثم رفع بصره وقال: ثم حدث ذلك... أرادت مني أن أتزوجها... لم أعرف ماذا أفعل؛ فأنا خاطبٌ فتاةً في لندن.

ولو قدر لها أن تسمع بهذا (وستسمع به طبعاً) فسينتهي كل شيء.. لن تفهم أية مبررات. وكيف لها أن تفهم؟ إنني شخص كريه طبعاً. وكما قلت، لم أعرف ماذا أفعل. تجنبت رؤية روز مرة أخرى. فكرت في العودة إلى المدينة ورؤية محاميّ وإجراء بعض الترتيبات لإعطائها مالاً وغير ذلك. يا إلهي، كم كنتُ مغفلاً! والقضية ضدي كلها واضحة تماماً... ولكنهم ارتكبوا خطأً ما دون شك. لا بد أنها أغرقت نفسها بنفسها.

- هل سبق لها أن هددت في أي مناسبة بالانتحار؟

هز سانفورد رأسه بالنفي وقال: أبداً. ما كنت لأقول إنها من ذلك النوع الذي يهدد بالانتحار.

- ماذا بشأن رجل يدعى جو إيليس؟

- الرجل النجار؟ إنه من ذلك النمط القروي الجيد... رجل ممل... ولكنه يهيم بروز حباً.

- ربما كان يحس بالغيرة؟

- أظنه كان يحس بالغيرة قليلاً... ولكنه من النوع الهادئ البليد؛ من شأنه أن يعاني بصمت.

- حسناً، ينبغي أن أذهب.

ثم لحق بالآخرِين، وقال مخاطباً ميلتشيت: أتدري يا صديقي، أشعر أن علينا أن نرى ذلك الرجل الآخر، إيليس، قبل أن نقدم على أمر لا تحمد عقباه؛ فسيكون من المؤسف أن تُقدم على اعتقال يتبين

فيما بعد أنه كان خطأ. والغيرة -في نهاية الأمر- تشكّل دافعاً جيداً للقتل... وهو دافع شائع تماماً أيضاً.

المفتش: هذا صحيح تماماً، ولكن جو إيليس ليس من ذلك النوع؛ فليس من شأنه إيذاء بعوضة. إن أحداً لم يره يوماً يفقد أعصابه. ومع ذلك فإنني أوافق على أن من الأفضل أن نسأله أين كان ليلة أمس. سنجده الآن في البيت. إنه يقيم عند السيدة بارتليت... سيدة طيبة جداً... وهي أرملة، وتتولى بعض أعمال الغسيل.

كان المنزل الصغير الذي اتجهت إليه خطاهم بالغ النظافة والترتيب. فتحت لهم الباب امرأة ضخمة بدينة في أواسط عمرها. كانت ذات وجه مريح وعينين زرقاوين.

المفتش: صباح الخير يا سيدة بارتليت. هل جو إيليس هنا؟

قالت السيدة بارتليت: "لم تمضِ على عودته سوى عشر دقائق. تفضلوا بالدخول رجاء أيها السادة". ثم قادتهم -وهي تنشف يديها بصدرية المطبخ- إلى غرفة جلوس صغيرة أمامية فيها الكثير من الطيور المحنطة وتحف البورسلان وأريكة، وغير ذلك الكثير من قطع الأثاث التي لا فائدة منها.

سارعت إلى إعداد مكان لجلوسهم، وانهمكت بكل جسمها في رفع العديد من الأغراض لفسح المزيد من المجال، ثم خرجت وهي تنادي: جو، هنا ثلاثة رجال يريدون رؤيتك.

أجابها صوت من المطبخ الخلفي: سآتي على الفور.

ابتسمت السيدة بارتليت، وقال الكولونيل ميلتشيت: ادخلي يا سيدة بارتليت... اجلسي.

السيدة بارتليت: آه، كلا يا سيدي. ليس ذلك من اللباقة.

صُدمت السيدة بارتليت لتلك الفكرة. سألها الكولونيل ميلتشيت بلهجة لم يَبدُ فيها الاهتمام: هل وجدتِ جو إيليس نزيلاً جيداً؟

السيدة بارتليت: لم أكن لأجد أفضل منه يا سيدي. إنه شاب مستقيم حقاً؛ لا يقرب المشروب أبداً ويعتزّ بعمله كثيراً، وهو دائماً لطيف ومساعِد في شؤون المنزل. لقد ركّب لي تلك الرفوف، وركّب خزانة أطباق جديدة في المطبخ. وكل أمر صغير يتطلب إصلاحاً في البيت تراه يصلحه مباشرة، ولا يكاد يقبل شكراً على ذلك. آه! لا يوجد الكثير من أمثال جو يا سيدي.

قال ميلتشيت مظهراً عدم الاهتمام: سيكون من حسن حظ فتاة ما أن تتزوجه ذات يوم. لقد كان معجباً بعض الشيء بتلك الفتاة المسكينة روز إيموت، أليس كذلك؟

تنهدت السيدة بارتليت وقالت: لقد أتعبني ذلك فعلاً. تقديسه للأرض التي تمشي عليها، وعدم اهتمامها أبداً به.

- أين يقضي جو أماسيه يا سيدة بارتليت؟

- هنا عادة يا سيدي. يقوم بأداء بعض الأعمال الغريبة أحياناً في المساء، وهو يحاول دراسة المحاسبة بالمراسلة.

- آه! نعم. وهل كان هنا ليلة أمس؟

- نعم يا سيدي.

قال السير هنري بحدة: أأنت واثقة من ذلك يا سيدة بارتليت؟

التفتت إليه وقالت: واثقة تماماً يا سيدي.

- ألم يخرج إلى مكانٍ ما بين الثامنة والثامنة والنصف؟

ضحكت السيدة بارتليت وقالت: لم يخرج أبداً؛ فقد كان يركّب لي خزانة الأطباق في المطبخ طَوال المساء تقريباً، وكنت أنا أساعده.

نظر السير هنري إلى وجهها المبتسم المطمئن وشعر بأول وخزة شك.

بعد دقيقة من ذلك دخل إيليس نفسه الغرفة. كان شاباً طويلاً عريض الكتفين وسيماً تماماً ولكن على نحو ريفي غير مصقول، ذا عينين زرقاوين خجِلتين وابتسامة هادئة. بدا -عموماً- شاباً ودوداً.

افتتح ميلتشيت الحديث فيما انسحبت السيدة بارتليت إلى المطبخ: إننا نحقق في وفاة روز إيموت... أنت تعرفها يا إيليس.

قال: "نعم"، ثم تردد قليلاً وعاد ليقول: كنت آمل أن أتزوجها يوماً ما، تلك المسكينة.

- هل سمعت بما كانت عليه حالتها؟

أجاب الشاب وقد التمعت شرارة غضب في عينيه: نعم. لقد

خذلها، ولكن ذلك كان أفضل؛ إذ ما كانت لتسعد بالزواج به. ظننتها ستأتي إليّ عندما حدث ذلك... كنت سأعتني بها.

- بالرغم من...

- لم تكن غلطتها؛ هو الذي حرفها عن الطريق بوعوده وكلامه. آه! لقد أخبرتْني عن ذلك. لم يكن من داعٍ لإغراق نفسها؛ فلم يكن يستحق ذلك.

- أين كنت بين الثامنة والثامنة والنصف من ليلة أمس؟

أكان ذلك توهماً من طرف السير هنري أم كان -بالفعل- في جوابه أثر من التفكير الجاهز... بل الجاهز كثيراً؟

- كنتُ هنا... أركّب خزانةً في المطبخ للسيدة بارتليت. اسألوها، وستخبركم.

فكّر السير هنري قائلاً لنفسه: "لقد كان سريعاً جداً في إجابته تلك، وهو رجل بطيء التفكير! لقد قفز جوابه فوراً بشكل جاهز إلى الحد الذي أشك معه بأنه قد حضّر الجواب مسبقاً". ثم قال السير هنري لنفسه إن ذلك مجرد خيال. إنه يتخيل الأمور... نعم، بل إنه يتخيل أيضاً التماعة خشية في هاتين العينين الزرقاوين.

وبعد عدة أسئلة وأجوبة أخرى غادروا المنزل، ولكن السير هنري خرج بعذر ليعود إلى المطبخ. كانت السيدة بارتليت منشغلة بالفرن، وقد رفعت نظرها إليه بابتسامة عذبة. كانت في المطبخ خزانة جديدة مركبة على الحائط، ولم تكن قد انتهت تماماً، إذ كانت

بعض الأدوات وقطع الخشب ملقاة حولها. قال السير هنري: أتلك هي الخزانة التي كان إيليس منشغلاً بها ليلة أمس؟

- نعم يا سيدي. أليست خزانة رائعة؟ إن جو نجار ممتاز.

ليس في عينيها التماعات خشية ولا حرج، ولكن إيليس... أيكون قد تخيل ذلك؟ لا، بل لقد كان فيه شيء. ثم قال لنفسه: ينبغي أن أضغط عليه.

وعندما التفت ليغادر المطبخ اصطدم بعربة أطفال، فقال: أرجو أن لا أكون قد أيقظت الطفل.

علت ضحكة السيدة بارتليت وقالت: آه، كلا يا سيدي. ليس عندي أطفال... وهو أمر مؤسف. هذا ما أحمل عليه الملابس التي تحتاج إلى غسيل يا سيدي.

- آه! فهمت.

سكت قليلاً ثم قال من وحي اللحظة: سيدة بارتليت... لقد كنت تعرفين روز إيموت. أخبريني عن رأيك بها حقاً.

نظرت إليه باستغراب وقالت: حسناً يا سيدي، أظنها كانت متقلبة. ولكنها ميتة الآن، ولا أحب أن أتكلم بسوء عن الموتى.

قال بإقناع: ولكن لي سبباً... سبباً وجيهاً جداً للسؤال.

بدا وكأنها تفكر بالأمر وهي تدرس محدثها بعناية، وأخيراً حزمت أمرها وقالت بهدوء: لقد كانت فتاة سيئة يا سيدي. ما كنت

لأقول ذلك أمام جو. لقد خدَعَتْه جهاراً نهاراً. ذلك النوع من النساء يستطيع ذلك... وهو أمر مؤسف. أنت تعلم كيف تجري هذه الأمور يا سيدي.

نعم، كان السير هنري يعرف. لقد كان أمثال جو إيليس في هذا العالم دائماً ضعافاً عرضة لكل تأثير؛ فهم يمنحون ثقة عمياء لكل شخص. ولكن -لهذا السبب تحديداً- ربما كانت صدمتهم باكتشاف الحقيقة أعظم.

غادر البيت متحيراً مضطرباً. إنه يعالج جداراً عالياً لا ثغرة فيه! لقد كان جو إيليس يعمل داخل البيت طوال مساء أمس، وقد كانت السيدة بارتليت هناك تراقبه. أيمكن لامرئ أن يتجاوز هذه الحقيقة؟ لا يوجد ما يدحضها... ربما باستثناء تلك الجاهزية المريبة في الإجابة التي أبداها جو إيليس والتي توحي بوجود قصة مُعدّة سلفاً.

قال الكولونيل ميلتشيت: حسناً، يبدو أن ذلك يجعل القضية واضحة تماماً، أليس كذلك؟

وافقه المفتش قائلاً: بلى يا سيدي؛ سانفورد هو رجلنا الذي نطلبه. ليس لديه أي دليل براءة؛ القضية أوضح من شمس النهار. أرى أن الفتاة ووالدها كانا... كانا يخططان لابتزازه عملياً. وليس لديه مالٌ يُعتدّ به... ولم يشأ أن تصل القضية إلى مسامع فتاته، وأصبح في موقف يائس، فتصرف على هذا الأساس.

ثم أضاف مخاطباً السير هنري باحترام: ما رأيك يا سيدي؟

اعترف السير هنري قائلاً: يبدو الأمر كذلك، ومع ذلك... لا أكاد أستطيع تخيل سانفورد يرتكب أي تصرف عنيف.

ولكنه كان يعلم -وهو يتكلم- أن اعتراضه لا يكاد يكون وارداً؛ فإن أشد الحيوانات خنوعاً قادر -إذا ما حوصر- على الإتيان بأفعال مدهشة. قال فجأة: أود رؤية ذلك الصبي... الذي سمع الصرخة.

أثبت الصبي جيمي براون أنه فتى ذكي. كان جسمه ضئيلاً بعض الشيء بالنسبة إلى عمره، ووجهه حاد الملامح يكاد يوحي بشيء من المكر. كان متلهفاً للخضوع للتحقيق، بل إنه أصيب بشيء من خيبة الأمل عندما رأى أن الشرطة يريدون التثبت من روايته الدرامية عما سمعه في تلك الليلة المشؤومة.

السير هنري: لقد فهمتُ أنك كنت على الجانب الآخر من الجسر، في الطرف الآخر من النهر المقابل للقرية. هل رأيت أحداً في ذلك الجانب وأنت تأتي إلى الجسر.

- كان شخص يمشي في الغابة. أظنه كان السيد سانفورد؛ الرجل المهندس الذي يبني ذلك البيت الغريب.

تبادل الرجال الثلاثة النظرات.

السير هنري: أكان ذلك قبل عشر دقائق تقريباً من سماعك للصرخة؟

أومأ الفتى بالإيجاب.

السير هنري: هل رأيت أحداً آخر... في الجانب الآخر من النهر... جانب القرية؟

- جاء رجل على الطريق الترابي في ذلك الجانب. كان يمشي متمهلاً ويصفر. ربما كان جو إيليس.

قال المفتش بحدة: لم يكن بوسعك تمييز هويته بسبب الضباب وشدة العتمة.

الفتى: أقول ذلك بسبب صفيره. إن جو إيليس يصفر دوماً نفس اللحن... لحن «أريد أن أكون سعيداً»... إنه اللحن الوحيد الذي يعرفه.

كان يتكلم بذلك الازدراء الذي يبديه العصريون لأصحاب الذوق القديم. قال ميلتشيت: بوسع أيٍ كان أن يصفر لحناً. أكان متجهاً باتجاه الجسر؟

- كلا، بل بالاتجاه الآخر... إلى القرية.

ميلتشيت: لا أظن أن علينا شغل أنفسنا بهذا الرجل المجهول. لقد سمعتَ الصرخة وصوت الارتطام بالماء، وبعد بضع دقائق رأيتَ الجثة طافية في النهر فركضتَ لطلب النجدة عائداً بذلك إلى الجسر الذي عبرتَه، وهرعت مباشرة باتجاه القرية. هل رأيت أحداً قرب الجسر وأنت راكض لطلب النجدة؟

- أظن أنه كان هناك رجلان معهما عربة من تلك التي تُستخدم في نقل التراب، وكانا على الطريق الترابي المؤدي إلى النهر. ولكنهما كانا بعيدين، ولم أستطع التمييز فيما إذا كانا ذاهبين أم قادمين، وكان منزل السيد غايلز هو الأقرب؛ ولذا ركضتُ إليه.

ميلتشيت: لقد أحسنت صنعاً يا فتى وتصرفت بشكل يستحق الثناء وبالكثير من حضور البديهة. أنت في الكشافة، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي.

- هذا جيد، جيد جداً.

كان السير هنري ساكتاً... يفكر. أخذ قصاصة ورق من جيبه ونظر إليها ثم هزّ رأسه حيرة. لا يبدو ذلك ممكناً، ومع ذلك...

قرر زيارة الآنسة ماربل. استقبلَتْه في غرفة جلوسها الجميلة ذات الطراز القديم والمكتظة قليلاً بالأثاث. قال يخاطبها: لقد جئت لأقدم تقريراً عن تقدم الأمور. أخشى أن الأمور -من وجهة نظرنا- لا تسير بشكل جيد؛ فإنهم سيقومون باعتقال سانفورد... وعليّ الاعتراف بأن لهم مبرراتهم لذلك.

الآنسة ماربل: ألم تجد شيئاً يدعم نظريتي إذن؟

بدت حائرة... قلقة، ثم قالت: ربما كنتُ مخطئة، مخطئة تماماً. إن لديك خبرة واسعة جداً، ولا شك أنك ستكتشف ذلك إن كنتُ مخطئة.

السير هنري: إنني -من جهة- لا أكاد أستطيع تصديق ذلك، ومن جهة أخرى فإن أمامنا عذر غياب عن مكان الجريمة لا يمكن دحضه. لقد كان جو إيليس يركّب خزانة أطباق في المطبخ طوال تلك الليلة، وكانت السيدة بارتليت تراقبه وهو يقوم بذلك.

انحنت الآنسة ماربل إلى الأمام وهي تسحب نفساً سريعاً وقالت: ولكن الأمر لا يمكن أن يكون كذلك؛ فقد كان ذلك مساء الجمعة.

- مساء الجمعة؟

- نعم، مساء الجمعة. وفي مساء كل جمعة تقوم السيدة بارتليت بإيصال الملابس التي غسلتها إلى أصحابها في القرية.

أسند السير هنري ظهره إلى مسند كرسيه، وتذكر قصة الصبي جيمي عن الرجل الذي كان يصفر. نعم، من شأن الحقائق كلها أن تأخذ الآن مكانها الصحيح.

نهض ممسكاً بيد الآنسة ماربل بحرارة وقال: أظن أنني أرى طريقي الآن. أستطيع المحاولة على الأقل...

بعد خمس دقائق كان ثانية في بيت السيدة بارتليت يواجه جو إيليس في غرفة الجلوس الصغيرة. قال باقتضاب: لقد كذبتَ علينا يا إيليس بشأن الليلة الماضية؛ أنت لم تكن هنا في المطبخ تركّب خزانة أطباق بين الثامنة والثامنة والنصف. لقد شوهدت وأنت تمشي على الطريق الترابي قرب النهر باتجاه الجسر قبل بضع دقائق من مقتل روز إيموت.

شهق الرجل، ثم قال: إنها لم تُقتل... لم تُقتل! لا علاقة لي بالأمر. لقد رمت نفسها في النهر... كانت يائسة. ما كنت لأمسّ شعرة في رأسها، أبداً.

سأله السير هنري بحدة: لماذا كذبت إذن؟

تقلبت عينا الرجل ثم انخفضتا باضطراب وقال: كنت مرعوباً.

رأتني السيدة بارتليت قريباً من هناك، وعندما سمعنا -فيما بعد- بما حدث... عندها رأت أن الأمر ربما أصبح سيئاً بالنسبة لي. واتفقنا أن أقول إنني كنت أعمل هنا، ووافقت هي على التستر علي. إنها امرأة نادرة المثال... كانت دوماً طيبة معي.

غادر السير هنري الغرفة دون أن ينبس بكلمة ومضى إلى المطبخ. كانت السيدة بارتليت تغسل المجلى فقال لها: سيدة بارتليت، إنني أعرف كل شيء. أظن أن من الأفضل لك الاعتراف... إلاّ إذا كنت تريدين أن يُشنق جو على شيء لم يفعله... لا، أرى أنك لا تريدين ذلك. سأخبرك بما حدث: كنتِ خارجة لإيصال الغسيل إلى الناس فصادفت روز إيموت في طريقك. كنت ترين أنها قد تخلت عن جو وستذهب مع هذا الغريب. أما وهي في محنة الآن فقد كان جو مستعداً للتقدم لإنقاذها والزواج بها إذا تطلب الأمر... وإذا قبلت به. لقد سكن جو في بيتك أربع سنوات، وقد وقعتِ في حبه. أردتِه لنفسك، وكرهت تلك الفتاة. لم تتحملي أن تأخذ هذه المنحلّة التافهة رجلك منك، وأنت امرأة قوية يا سيدة بارتليت... أمسكتِ بالفتاة من كتفيها وقذفت بها إلى النهر من فوق الجسر. وبعد بضع دقائق التقيتِ بجو إيليس. وقد رآكما الفتى جيمي معاً من بعيد، ولكنه -بسبب الظلام- ظن أن عربة الأطفال التي تنقلين بها الغسيل ما هي إلاّ عربة البستان وأن رجلين يقودانها. ثم أقنعتِ جو أنه ربما كان موضع شبهة واخترعت ما كان يُفترض أنه عذر غياب له عن مسرح الجريمة، ولكنه كان -في الواقع- عذر غياب لك أنت. والآن، إنني مصيبٌ فيما قلته، أليس كذلك؟

حبس أنفاسه، فقد جازف بكل ما عنده في هذه الضربة.

وقفت أمامه تنشّف يديها بصدرية المطبخ وهي تحزم أمرها ببطء، ثم قالت أخيراً بصوتها الهادئ البعيد (الذي شعر السير هنري فجأة أنه صوت خطير): الأمر كما قلتَ تماماً يا سيدي. لا أدري ما الذي انتابني. كانت فتاة لا تخجل، وقد أحسست فجأة بأنها لن تأخذ جو مني. إنني لم أعش حياة سعيدة يا سيدي؛ لقد كان زوجي رجلاً فقيراً... مقعداً وسيء الطبع. خدمته واعتنيت به بكل صدق. ثم جاء جو ليسكن هنا. أنا لست امرأة مسنة لهذا الحد يا سيدي، رغم ما برأسي من شيب. إنني في الأربعين من عمري فقط، وجو رجل نادر الوجود. كان من شأني أن أفعل أي شيء من أجله... أي شيء. كان كالطفل الصغير يا سيدي، لطيفاً وساذجاً. كان لي، أنا التي أرعاه وأشرف على حاجاته. وتأتي تلك الـ... تلك الـ...

ازدردت ريقها وضبطت عاطفتها. كانت امرأة قوية حتى في تلك اللحظة. وقفت منتصبة ونظرت إلى السير هنري بفضول ثم قالت: أنا جاهزة للذهاب يا سيدي. لم يخطر لي أن أحداً سيكشف الحقيقة. لا أدري كيف عرفتَها يا سيدي... لا أدري!

هز السير هنري رأسه بأسف رقيق وقال: لست أنا مَن عرف.

ثم فكر في قصاصة الورق التي ما زالت في جيبه بكلماتها التي كُتبت بخط جميل قديم الطراز: **«السيدة بارتليت، التي يسكن عندها جو إيليس، في المنزل رقم ٢، ميل كوتيجيز»**.

مرة أخرى تُثبت الآنسة ماربل أنها على حق.

* * *

المحتويات